

مصر والشرق الأدنى القديم

(٥)

الحضارة المصرية القديمة

المجلد الثاني
الحياة الدينية

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الرابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع ستيفن الأفاريطة
الإسكندرية

الفصل الأول

فكرة الخلق عند المصرى القديم

حاول المصريون القدامى منذ عصورهم السحيقة التعرف على أسرار العالم ، وكيفية خلق الارض ، وبدء الحياة عليها ، فضلا عن كنه السماء والكواكب التى تتحرك فوق صفحتها ، وقد استطاع رجال الفكر والمدين منذ فجر التاريخ ، بعد أن استقرت الامور فى البلاد ، وأخذت الالهة الكونية تحتل مكانة سامية فى النفوس ، أن يقدموا وجهات نظر مختلفة ، فى أربعة مراكز حضارية مختلفة ، عن تفسير المنشأة الاولى للخلقة ، ظهرت كل واحدة منها بعد الاخرى ، وكانت هذه المراكز الاربعة على التوالى : عين شمس والاشمونين ثم منف وطيبة .

(١) نظرية عين شمس

كانت نظرية ايونو أو أون (هليوبوليس = عين شمس) أولى هذه النظريات الاربعة ، وقالت بماض سحيق قديم ، لم تكن فيه أرض ولا سماء ، ولا حس ولا حسيس ، وما من أرباب أو بشر ، وانما عدم مطلق ، لا يشغله سوى كيان مائى لا نهائى عظيم ، أطلقوا عليه اسم «نون» ظهر منه روح الهى أزلى خالق هو «أتوم» ، لم يجد مكانا يقف عليه ، فوقف فوق «تل» ثم صعد فوق حجر «بن بن» فى هليوبوليس ، على هيئة مسلة رمز الشمس ، أبو الالهة جميعا ، وظل أتوم هكذا حيناً من الدهر منفردا بوحدايته ، حتى ذرأ من نفسه — بامتزاجه بظله أو باستمنائه — عنصرين ، الواحد ذكر تكفل بالفضاء والهواء والنور ، وغدا يعرف باسم «شو» ، والاخر أنثى تكفلت بالرطوبة والندى ، وغدت

تعرف باسم «تفنوت» ، ثم تراوجا وأنجبا بدورهما «جب» اله الأرض ، و «نوت» الهة السماء ، ثم أوحى الى «شو» أن يفصل بين السماء والأرض ، وقد كانتا في بداية أمرهما رتقا ، وأن يملأ فراغ ما بينهما بالهواء والنور •

ثم ذهب أصحاب عين شمس الى افتراض حلقة وسطى بين الاوضاع المطلقة التي بدأ بها الوجود ، حينما كان خاصا لاربابه الكبار، والاولى التي استقر عليها أمر الوجود حينما عمره الانسان ، ودبت فيه حياة العمران ، فذهبوا الى أن «جب» و «نون» انما قد رزقا بمواليد أربعة، ذكران هما أوزير وست ، وأنثيان هما ايزة ونفتيس ، وقد عرف هؤلاء الالهة التسعة باسم «تاسوع عين شمس» أو «التاسوع الكبير» •

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى عدة نقاط تتصل بنظرية هليوبوليس هذه أو نظرية التاسوع ، منها (أولا) أن مفكرى عين شمس قد سبقوا مفكرى العالم بفكرة الفصل بين السماء والأرض ، ثم رددتها فيما بعد أساطير الخلق العراقية ، وفي القرن التاسع قبل الميلاد (وربما على أيام السبى البابلى في القرن السادس قبل الميلاد)، وبعد ظهور النظرية المصرية بأكثر من ألفين من السنين سجل كاتب سفر التكوين في التوراة أنه «في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن جلد في وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد» •

ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه النظرية أرادوا أن يتغلبوا على مشكلة انجاب نسل عن طريق اله وحيد ، دون آلهة أخرى بأن جعلوا أتوم ينجب شو وتفنوت عن طريق الاستنماء ، كما أنهم أرادوا أن يمثل الزوجان الاوليان من أبناء أتوم (شو وتفنوت وجب ونوت) عناصر كونية في العالم ، هي الهواء والرطوبة والسماء والأرض ، وأن يمثل

الزوجان الاخرين (أوزير وايزة وست ونفتيس) ظواهر أرضية في الكون ، فأوزير انما يمثل النيل الذى يسبب خصوبة الارض ونتاجها للمحاصيل ، وتمثل ايزة الارض السوداء التى تنتج المحاصيل بعد ارتوائها من مياه النيل ، بينما يمثل ست أرض الصحراء القاحلة الحمراء ، وتمثل نفتيس تلك الارض البور التى كانت مهيئة للإنتاج اذا ما وصلتها مياه النيل ، ومع ذلك فعل الفكر الدينى الهليوبوليتانى انما أراد من وجود هذين الزوجين تمثيل الكائنات التى تعيش في هذا الكون ، بشرا أو آلهة ، بعد خلق عناصره ، على أن هناك من يذهب الى أن هذين الزوجين انما يمثلون جسرا بين الطبيعة والانسان ، وليسوا عناصر كونية أبدا •

ومنها (ثالثا) أن هذه النظرية لم تقدم لنا نظرية متكاملة عن الخلق، فقد بدأت عملية الخلق بارتقاء أتوم فوق تل ، ثم صعد فوق حجر «بن بن» في هليوبوليس حتى ذرأ من نفسه الزوج الالهى الاول شو وتفنوت ، ولكنها لم تشرالى دور أتوم كخالق بالنسبة الى «الهولى» أو «الماء الازلى نون» (مادة الكون قبل خلقه) ، وهل أتوم هو الذى خلق نون ، أم ان نون هو الذى خلقه ، فان صح الاحتمال الثانى ، فلن يكون «أتوم» هو الاله الازلى الذى خلق نفسه بنفسه ، والامر كذلك بالنسبة الى التل البدائى الذى صعد فوقه ليمارس عملية الخلق.

ومنها (رابعا) أن آراء أصحاب هذا المذهب قد تباينت حول الطريقة التى ذرأ بها أتوم مخلوقاته الاوائل ، لاسيما ولديه القديمين شو وتفنوت ، فقال أيسرهم سبيلا ، انه خلقهما بماء اللقاح ، كما يخلق بنو البشر عادة ، غير أن هناك من حاولوا أن يخرجوا من المدلول اللفظى للاسمين ، شو وتفنوت ، بما يدل على طريقة خلقهما ، فقربوا بين كلمة «شو» وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا نفخ ، والانف اذا عطس كما قربوا بين كلمة تفنوت وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا تفل ، وانتهوا من ذلك الى أن ربهم الخالق أتوم نفخ ذات

مرة أو عطس عن قصد ، فصدر عنه «شو» روح الهواء ، وتفل مرة أخرى فصدرت عنه «تفنوت» روح الرطوبة والندى •

ومنها (خامسا) أنه حدث فيما أعقب تأليف المذهب من عهود أن تولى الزعامة في مدينة ايونو جماعة من أهلها أو من جوارها القريب (ربما من مدينة «ساخبو» على الضفة الغربية في مواجهة ايونو عبر النهر تقريبا ، وربما كانت ساخبو ممتدة الى ايونو ، أو أن ايونو قد امتدت ضواحيها الى ساخبو) دانوا بدين اله الشمس رع ، وأفلحوا في أن يجعلوا مدينتهم حاضرة رئيسية في ملك مصر العريض ، ولم ينشأ أنصار رع لأنفسهم زعامة الحكم وحده ، وإنما ابتغوا كذلك زعامة في الفكر والدين ، ولم يكن أقرب الى توطيد زعامة الدين في جانبهم من أن ينادوا بربهم رع كبيرا لبقية من كان يتعبد لهم أهل عصرهم من الارباب ، لولا أن مدينتهم ايونو (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) كانت من قبل قد آمنت بربها أتوم ، واعتبرته خالقا للوجود والارباب على سواء ، وتعين من ثم على أصحاب رع أن يتلمسوا للربط بين ربهم وبين أتوم ما يستطيعونه من المصلات والاسباب ، وتفتحت قرائحهم عن طائفة من قضايا المنطق والتلاعب باللفظ ، لم يسجلوها للأسف في عهودهم الاولى ، وإنما عبرت عن أمثالها عبارات أخرى تناقلها أشياع مذهبهم فيما تلاهم من عصور ، وسجلوها في متون لهم متفرقة خلال عصر الدولتين الوسطى والحديثة.

وفي جانب من هذه المتون نسب أنصار المذهب الى أتوم عبارة يقول فيها عن نفسه «ظللت أتوم حين كنت فردا ، غير أنك أصبحت رع منذ تجلياته القديمة» وعبارة أخرى يؤكد فيها ذات المعنى ، فيقول «ظللت أتوم حين كنت وحيدا في نون ، ولكنك غدوت رع في جلاله منذ بدأ يشرف على ما خلفه وأبدعه» ، وبأشبه هاتين العبارتين ، ان لم يكن بنصهما ، خرج أنصار رع يعلنون على الناس أن ربهم رع لم يكن لها جديدا على الاطلاق ، وإنما هو أتوم الخالق القديم من بعد أن شاعت ارادته أن يتجلى على الناس في هيئة اله الشمس «وأن ينير

العالم من أفقه العظيم» ، فالامر اذن في زعمهم لم يكن أكثر من تداول بين اسمين ، أما الرب الخلاق صاحب الاسمين ، فهو واحد •

وعلى نحو قريب من هذا المنطق تيسر لاصحاب ايونو أن يزاوجوا بين الاسمين ، فأصبح ربهم الخالق يدعى «رع أتوم» ، وأخذ أشياعهم عصرا بعد عصر ، يضيفون الى أتوم كل النعوت التي كانوا يخلعونها على رب الشمس وحده عن سبب أو أكثر من سبب ، ومن هذه النعوت «خبرى» ، وهو من ألفاظهم التي تلاعبوا بها تلاعبا واسعا ، وكانوا ينطقونه «خبر» ، ويكتبونه بصورة «الجعل» أو الجعران في كتابتهم التصويرية القديمة ، ويدل هذا اللفظ في بعض صيغته على الافعال «حدث ونشأ وتكون وأصبح» كما دل في صيغ أخرى له على اسم «الوليد» وصفة «المحدث» بمعنى حديث التكوين ، واذا أضيفت اليه «ياء» أخيره أو جرة ، فأصبح «خبرى» غدا. معناه «الكائن» أو «الموجود» واذا كررت راءه الأخيرة فأصبح «خبرر» دل على نفس معنى الكائن الموجود ، وزاد عليه خاصة الاستمرار ، فعدا يعنى «دائم التكوين ودائم الوجود» ، فضلا عن دلالة على حشرة الجعل التي يكتب اللفظ بصورتها •

وأطلق القوم لفظ خبر ومشتقاته على طائفة من المقدسات والارباب فأطلقوه تبارة على كوكب الشمس حين الشروق ، وابتغوا بذلك أن يصفوه بصفة الحدث الذي ظهر لتوه ، ثم عادوا وأطلقوا الاشتقاق «خبرى» على رب الشمس ومسير كوكبها ، وابتغوا به معنيين ، أحدهما فقهي ، وهو تلقيبه بلقب الكائن أو الموجود ، والآخر شعري : وهو تصويره للناس بصورة الجعل العادي حين يدفع بويضاته أو كرة طعامه بين يديه ويدحرجها في طريقه منذ صباحه الباكر ، وادخبر أهل ايونو الاشتقاق الاخير من «خبر» ، وهو «خبرر» لربهم الخالق أتوم ، وابتغوا بل كذلك معنيين ، معنى فقهي يرمى الى تلقيبه بلقب دائم الوجود أو دائم التكوين ، ومعنى آخر شعريا أو مجازيا يرمى الى تشبيه ظهوره المفجائي القديم من نون ، بما يظهر للناس من حال الجعل العادي حين

كمن في باطن الرمل ثم يظهر فجأة على سطحه ، وكأنه ظهر من دنيا
العدم الى دنيا الوجود •

ومنها (سادسا) أن أتوم بصفته «خالق نفسه» ، فإن العمل التالي
الذى قام به انما كان خلق آلهة أخرى ، ونظرا لكونه كان وحيدا في
العالم وقت ذاك ، فقد خلق ذريته دون زوجه ، بامتزاجه بظله أو
باستمنائه ، ومن ثم فقد اعتبرته بعض النصوص الها يجمع بين الذكورة
والانوثة ، وأطلقت عليه «عظيم هو — هي» •

ومنها (سابعا) أن تفتوت ، فيما يبدو ، كانت لها أهمية أقل في نظرية
الخلق الهليوبوليتانية ، باستثناء وظيفتها كزوجة لشو ، غير أن الكهنة
سرعان ما نادوا بأن «شو» انما كان عماد الحياة منذ وقت مبكر ، وأن
«تفتوت» انما هي أساس النظام في الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الالهة
الشهيرة «معات» ومن ثم فقد أصبح شو وتفتوت الهين صالحين لحمل
دورة الخلق وتأسيس النظام الاجتماعى ، وعلى أى حال ، فليس هناك
من دليل على المكان الذى وقعت فيه هذه الاحداث المبكرة ، فقد خلق
شو وتفتوت ، طبقا لبعض النصوص على التل الازلى •

ولكن طبقا لنصوص أخرى ، فإن أتوم ظل في مياه نون ، حيث
أنجب فيها ولده وابنته ، وتعهدهم بالرعاية عين أتوم ، وذلك طبقا
لاسطورة تذهب الى أن شو وتفتوت قد انفصلا عن أتوم في أحراش
مياه نون ، ومن ثم فقد أرسل أتوم عينه لتجىء بهما ، ولكنه في نفس
الوقت فقد استبدل هذه العين بعين أخرى أكثر لمعانا ، مما أغضب العين
الاولى كثيرا ، وحينئذ أخذها أتوم ووضعها على مقدمة رأسه ، حيث
تستطيع أن تحكم العالم الذى كان على وشك أن يخلقه ، وقد صورت
هذه العين كالهة مدمرة ، وكان أحد مظاهرها الشمس المحرقة في مصر ،
ثم ارتبطت مع الالهة الكوبرا ادجو ، التى مثلت على رؤوس الفراعين
كرمز لقوتهم ، وعندما عاد شو وتفتوت الى أتوم سالت دموعه من
الفرح ، ومن هذه الدموع جاء البشر ، وعندما عاد أتوم لاولاده كان
مستعدا لترك مياه نون وخلق العالم •

ومنها (ثامنا) أن أولاد جب (الارض) ونوت (السما) الاربعة ، وهم أوزيروايزه وست ونفتيس (فضلا عن حور بن ايزه ، والذي كان أحيانا ابنا لنوت) انما أدخلهم الكهنة الى نظرية الخلق الهليوبوليتانية كآلهة أقل مكانة من آلهة التاسوع الاصليين ، ومع ذلك فان هذه الالهة الذى أطلق عليها اسم تاسوع هليوبوليس قد بقيت كتقليد فى الديانة المصرية القديمة ، وقد وضعت فى مراكز العبادات الاخرى بنفس هذه الصلات الاسرية ، وربما ارتبطت ببعض العبادات الاخرى مع شىء من التغيير كما يبدو ذلك بوضوح فى أصل أتوم فقد أعتبر بشكل عام أنه خلق نفسه بنفسه وان قيل كذلك انه ابن «نوت» فى محاولة لنسبة الخلق فيها الى نون وجب ونوت ، ومن ثم فهو — مع اخوته الاربعة ، أوزيروايزه وست ونفتيس — انما كانوا مسئولين عن ولادة الناس على الارض ، بينما تذكر نصوص أخرى أن «نوت» انما قدسميت «أم الالهة» و «التي تحمل رع كل يوم» ومرة ثالثة نقرأ فى متون الاهرام أن الفرعون «ببى» قد تناسل من أتوم ، قبل خلق السموات والارض والالهة والناس والموت ، وفى مقبرة أخرى يدعى «ابن نوت» وقد ولد قبل أن تخلق السموات والارض (١) .

(١) عبد العزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة ص ٣٣ - ٣٧ ، محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق فى مصر القديمة ص ١٠٣ - ١٣١ ، تكوين ١ : ١ - ٨ ، وكذا ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ترجمة أحمد قدرى - القاهرة ١٩٨٧ ص ٥٢ - ٥٥ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ - ٧٤ ، فرانسو دوما : آلهة مصر - القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٧ - ١٠٩ .

E. Naville, The Old Egyptian Faith, P. 122-129, V. Lons, Egyptian Mythology, P. 26-32.

S. Mercer, The Pyramid texts, I, P. 33, 125-126 E. A. Budge, Book of Dead, I, P. 8. 62, 285, J. A. Wilson A.N.E.T., P. 3, Intellectual Adventure of Ancient Man, P. 54; H. Frankfort Kingship and the Gods, P. 33, 125-126, 155-182.

B. Gunn, JEA III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 34-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians, 50, 52, 61-26-74-82.

(٢) نظرية الاشمونين

كانت نظرية الاشمونين أو الثمانية^(٢) أكثر تطورا من تلك التى سبقتها، وقد ردت أصل الوجود الى ثمانية عناصر طبيعية أولية سبقت ظهور «رع أتوم» ومهدت لوجوده ، وتعصب هؤلاء لعناصرهم الثمانية ، وأطلقوا عليها اسم «الثامون» ، وخلعوا اسمها على مدينتهم فدعوها «مدينة الثامون» (الاشمونين) ، غير أنهم حين بدأوا بصياغة مذهبهم خلال العهود الاواخر من فجر التاريخ القديم ، لم يكونوا قد اهتموا بعد الى سبل الكتابة والتدوين ، ومن ثم فقد كان على المذهب أن يظل على أفواه أصحابه حتى تبدأ عصور الكتابة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد أو نحوه ، حيث بدأت بهما العصور التاريخية .

غير أن ظروفنا أخرى ساعدت على بقاء مذهب أونو (خمنو) فى طى النسيان قرونا طويلة ، منها أن أمور السياسة والفكر لم تعد وقت ذاك تتقبل الاقليمية من أهلها ، وانما اتجهت الى دعم المركزية المطلقة فى عاصمة الدولة وحدها ، ومنها أن رجال الدين فى الدولة القديمة حين عمدوا الى تدوين أولى موسوعاتهم الدينية والمذهبية فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، كانوا من أنصار رع ومذهب التاسوع بالذات ، فعمدوا الى تجاهل مذهب خصومهم من أهل أونو ، ولم يذكروا غير

(٢) كان عدد الثمانية الذى عرفت به مدينة الاشمونين يشير الى الالهة الثمانية التى كان موطنها الاصلى مدينة «أونو» وقد نطق فى المصرية القديمة «خمون» أو «خمنو» وفى القبطية «شمون» ثم ثنى لفظه فى اللغة العربية فأصبح «شمونين» ، وظال يطلق على الجانبين الواقعين على بحر يوسف من مدينة الاشمونين، على أن هناك من يذهب الى أن اسم «خمون» أو «خمنو» سبقه الى الوجود ، فيما قبل العصر الاهناسى ، اسم «أونو» التى أعطت اسمها للاقليم «ونوت» وكانت تقع فى العصر التاريخى فيما وراء خمنو ، ثم أصبحا فيما بعد مدينة واحدة تتكون من جزأين ، الواحد «ونو» والثانى «خمنو» ، وكانت خمنو (الاشمونين) عاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، وقد عرف باسم إقليم الارنب، الذى رمز له به ، وقد أطلق الاغريق على المدينة اسم «هرموبوليس» أى مدينة هرمس ، الاله اليونانى المقابل للاله تحوت اله الاشمونين ، والتى تقع على مبعدة ، ١٠ كيلا شمال غرب ملوى (٤٥ كيلا جنوبى مدينة المنيا) .

أربعة من أسماء عناصره أو نحوها بين الاصول ، وفي العصر الالهاسي لم يستطيع أهل أونو ، في مقابل منافسة أهل الشمس ، غير تسجيل أسماء أربابه الثمانية في عدد من النصوص دون شرح أو تفصيل ، وفي العصور المتأخرة نجح أصحاب مذهب أونو أن يسجلوا ما ترامى اليهم من صفات أربابه وعناصره ، فسجلوها في بضعة نصوص متفرقة يغلب عليها طابع التفلسف وطابع الاستغراق في الوقت نفسه •

هذا وتتفق نظرية الاشمونين أو الثمانية مع نظرية عين شمس أو التاسوع في أن العالم كان محيطا مائيا اسمه «نون» ، ولكنها تختلف عنها في أن اله الشمس هنا لم يخلق نفسه ، وانما انصدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على هيئة ضفادع وحيات ، خلقت بيضة وضعتها فوق مونتغ على سطح «نون هرموبوليس» ، ومن هذه البيضة خرجت الشمس ، فهذه العقيدة تنتهي الى الشمس ، ولكنها لا تبدأ بها ، والشمس ولدت في هرموبوليس ، وليس في هليوبوليس ، ومن ثم فان للاولى (هرموبوليس) حق السيادة •

وأما آلهة الاشمونين الثمانية فكانوا عبارة عن أربعة ذكور في هيئة الضفادع ، وأربعة اناث في هيئة الحيات ، وكل منهما مثل مظهرا من المظاهر التي كانت تسود العالم في البداية ، فالزوج الاول هو «نون» و «نونه» (نونت) ويمثل الفراع اللانهائي ، والزوج الثاني هو «حوح» و «حوحة» (حوحيت) ويمثل الماء الازلي ، والزوج الثالث هو «كوك» و «كوكة» (كوكيت) ويمثل الظلمة ، والزوج الرابع «نيباو» و «نيات» و «آمون» و «أمونيت» ، ويمثل الخفاء وأن هؤلاء الثمانية قد خلقوا العالم مجتمعين ، ثم حكموا فترة من الزمن ، اعتبرت بمثابة عصر ذهبي ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى العالم السفلي ، وان استمرت قوتهم بعد موتهم لتكون سببا في فيضان النيل ، وفي شروق الشمس كل صباح •

ولعل من الاهمية هنا الاشارة الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن نظرية

الاشمونين هذه لم تصل اليينا من نقوش معاصرة أو حتى قريبا من ذلك ، كما حدث بالنسبة لنظرية عين شمس ، التي حفظت لنا في متون الاهرام ، وكما حدث بالنسبة الى نظرية منف التي حفظت في نقش جبرى ، يرجع الى أيام الملك شباكا (٧١٦ - ٦٩٥ ق م) ، وان كانت دون شك ترجع الى تاريخ موغل في القدم ، ربما بجانب ما ذكرنا من قبل ، أن الاشمونين لم تكن يوما ما مقبرا للعرش المصرى ، ومن ثم لم تجسد ملكا يهتم بها بالدرجة التى تجعله يأمر بنقشها في مقبرة أو هرم أو حتى على حجر ، وربما تعرضت المدينة للتخريب منذ عصور ما قبل التاريخ ، مما أدى الى ضياع تلك النظرية ، وهكذا لجأ العلماء الى البحث عنها في مقتطفات من نصوص تنتمى معظمها الى طيبة ،والتي كان معبودها آمون ، واحدا من آلهة أونو (الاشمونين) الثمانية ، بل أن هذه المقتطفات نفسها انما يرجع معظمها الى العصر اليونانى الرومانى ، وليس الى العصور الفرعونية •

ومنها (ثانيا) أن تعاليم الاشمونين انما تبدأ بالبداية الاولى للكون ، بالهيولى (مادة الكون قبل خلقه) ، والذي تصوره القوم مياها أرلية موحلة بما علق عليها من طمى ، مستمدين هذه من المياه التى تغرق الارض وقت الفيضان ، ولعل تصور القوم الالهة الاربعة الذكور برؤوس ضفادع ، والالهات الاربعة الاناث برؤوس ثعابين ، انما هو من تأثير آخر فى هرموبوليس يربط هذه الالهة الثمانية بالحياة البرمائية التى تكونت نتيجة لخلق نفسها بنفسها فى الطمى الذى يخلقه عادة فيضان النيل كل عام ، وان ذهبت آراء الى أن تصويسر الالهة الثمانية بهذه الاشكال انما يعنى فى التفكير المصرى انها كانت فى الواقع حيوانات من هذا النوع ، مخلوقات تكونت بنفسها من الطين ، وذهبت آراء أخرى الى أن الالهة الثمانية فى أشكالها هذه انما هى مناسبة لسكنى الاصل البدائى ، وأنهم لم يكونوا جزءا من الكون المخلوق ، وان كانوا من الهيولى نفسه ، كما تشير الى ذلك أسماؤهم ، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن الالهة الثمانية انما نشأت من تل هرموبوليس البدائى ، أى نشأت بعد ارتفاع التل البدائى من الهيولى •

ومنها (ثالثا) أن القوم رغم أنهم لم يتركوا لنا نصوصا في تعليل ما دعاهم الى تخير رؤوس الضفادع لذكور الالهة ، ورؤوس الحيات لاناثها، غير أنه ما من بأس في أن يظن بهم نوع من القصد السليم وعمق التفكير ، فكل من الضفادع والحيات يناسب الحياة الاولى التى عاشتها الارواح الثمانية كل المناسبة ، فهى تحيا فى الماء واليابس ، وتحيا كذلك عن قريهما ، وتبدو كما لو كانت تختزن فى جوفها الهواء ، ولعلمهم زادوا كذلك فافترضوا فى الضفدع على أقل تقدير ، تمثيلها لمرحلة عتيقة من صور الحياة الاولى ، ولا سيما أنه يتبدى من مظهرها الاغبر وجلدها المغض ما يوحي بالقدم والتقدم لجنسها بالفعل ، فضلا عن أنه فى الكثرة الهائلة التى تتوالد بها على شواطئ الماء ما يوحي باتخاذ مخلوقات المصغرة رمزا للكثرة التى تعاقبت بها المخلوقات الاخرى الكبيرة وتم بها عمران الكون ، وهو أمر أخذ به المصريون فى كتابتهم التصويرية القديمة ، فجعلوا من صورة يرقة الضفدع رمزا يعبر عن مائة •

ومنها (رابعا) أن النصوص انما تشير الى أن عمل الالهة الثمانية انما هو خلق النور ، أى خلق اله الشمس ، ومن هنا فقد أطلق عليها «الاباء والامهات الذين صنعوا النور ، والمياه التى صنعت الهواء ، آباء وأمهات الشمس» و «الارواح التى صنعت الشمس» و «والالهة القدماى الذين صنعوا ساكن الافق (رع) ، والذين خلقوا اله الشمس بعد الظلام» ، ويشير كتاب الموتى من عهد الدولة الحديثة الى أن خلق النور انما تم عن طريق الالهة الثمانية القدماى • التى تركت اله الشمس ينشأ فى زهرة من زهور اللوتس عند مصدر الماء القديم ، ومنها خرج اله الشمس ، ويذهب «كورت زيت» الى أن خلق النور انما قد حدث فوق التل البدائى لهرموبوليس ، ذلك لانه انما كان أول قطعة أرض صلبة انبثقت من مصدر الماء نون ، والتى يمكن أن يمارس فوقها هذا العمل •

ومنها (خامسا) انه ربما أمكننا القول أن نظرية الاسمونين هذه ربما تكمل نظرية عين شمس ، فكما أشرنا من قبل أن نظرية هليوبوليس

قدمت لنا نظرية خلق كاملة للكون الحالى وعناصره ، ولكنها أهملت جانباً هاماً من قصة الخلق يتمثل فى مادة الكون وطبيعته قبل الخلق ، فضلاً عن التل البدائى الذى مارس فوقه أتوم أول أعماله فى الخلق ، ومن ثم فإن نظرية هرموبوليس تكمل هذا النقص عن طبيعة الكون ومادته قبل الخلق ، فتذهب الى أن ثامونها إنما هو تشخيص وصفات للهيولى ، وهو مادة الكون قبل خلق العالم ، ومن ثم فإذا ضمت النظريتان الى بعضهما لانتجا نظرية شبه متكاملة لا ينقصها سوى تفسير كيفية وجود التل البدائى ذلك لان التعاليم الهرموبوليتانية لم تقدم لنا تفسيراً اثولوجياً مع ضرورة وجود هذا التل لتعيش الالهة الثمانية ، فضلاً عن اشارة هذه التعاليم الى قيام هذه الالهة بخلق النور فوق هذا التل .

ومنها (سادساً) أن تعاليم منف وطيبة عن فكرة الخلق إنما تشير الى أن كلا منهما تحاول أن تثبت تفوقها عن طريق تقرير أن الالهة الخالقة فى هليوبوليس وفى هرموبوليس أن هى الا صور ومظاهر لبتاح منف وآمون طيبة ، مما يثبت أصالة عقيدتى ايونو وأونو ، كما أن كلا منهما لها طابعها الخاص ، هذا فضلاً عن أن طبيعة تعاليم هرموبوليس والمفهوم الذى تقدمه إنما يشير الى أنها أقدم من تعاليم هايوبوليس ، وإذا ما قيل أن الاولى إنما قد وضعت لمنافسة الثانية فيما يتصل بنسبة الخلق الى أتوم اله ايونو ، فإن ذلك يمكن قبوله بالنسبة لتعاليم منف مثلاً ، حيث تنص صراحة على أن أتوم من خلق بتاح ، أما تعاليم أوتو فقد أعطت تفسيراً لطبيعة الكون قبل الخلق ، ثم خلق النور بإنتاج اله الشمس الذى لم يكن أتوم ، وإنما اله آخر لقبه القوم «شيسى الذى فى خمنو ، الابن الرائع للثامون» ، فضلاً عن أنها تعاليم منطقية تعطى تفسيرات معقولة أكثر من عبارة «الذى خلق نفسه» التى نسبها كهان هليوبوليس الى ربهم أتوم ، الذى جعلوه مخلوقاً من نفسه ، ولم يخلقه أحد بل أنه خلق كذلك عناصر فى الكون كأبناء له ، منها النسماء التى هى فى الواقع أعظم اذ أنه يسير فى فلكها ، بل هى أمه التى تنجبها كل.

صباح ، وهذا فى حد ذاته يرجح أن عقيدة هرموبوليس لم تكن أحدث من تلك التى كانت لهليوبوليس (٣) •

(٣) نظرية منف

استطاع الملك مينا أن يوحد القطرين ، وأن يؤسس الاسرة الاولى المصرية ، وأن يقيم لمصر حكومة متحدة قوية حوالى عام ٣٣٠٠ ق م ، وأن يشيد له عاصمة جديدة ، هى «أنب حج» (منف) ، وسرعان ما بدأ أهلها يهتمون بتفوق مدينتهم الجديدة على المدن الاخرى ، ليس فقط لأنها أصبحت مقر العرش الملكى ، ومن ثم فقد أصبحت لها الاهمية السياسية الاولى فى البلاد ، ولكن كذلك على أساس أنها مركز دينى يفوق غيره من المراكز الدينية الاخرى ، وهكذا بدأت تظهر فى منف مدرسة دينية ثالثة ، بجانب مدرستى عين شمس والاشمونين •

وفى الواقع فلقد كانت مدرسة منف هذه أكثر المدارس الثلاثة عمقا وأكثرها حكمة ، وأقربها الى المعنوية والمنطق ، وتذهب الى أن ربها «بتاح» هو الرب الخلاق القديم ، وأن الارباب الاخرى التى عرفها البشر لم تكن غير صور من «بتاح» ، وأنه منذ أن استوى على عرشه لأول مرة كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، وهكذا حاول المنفيون أن يجعلوا ربهم بتاح محل أتوم ، رب عين شمس ، وأن يجعلوه على رأس تاسوع مكون من «تائنن» ثم أتوم ونون ونونة ، ثم أربعة آلهة أخرى هى : حور وتحوت ، ثم نفر توم والشعبان ، ومن ثم

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٩ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٣١ - ١٤٨ ، ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ - ٧٣ ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٥١ - ٥٢ ، وكذا

B. Gunn, JEA, III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 33-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians 1927, P. 298-301.

K. Sethe, Amin und die Achte Urgotter Von Hermopolis, P. 36-38 50-52, 61-62, 74-82; H. Frankfort, Op. Cit., P. 151, 155, 166.

فقد أعتبر أتوم في هذه المدرسة أقل شأنًا من بتاح ، كما أن شفتى أتوم وأسنانته التى تفل بهما شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كما اعتبر القلب واللسان من أطيايف بتاح ، وهذان كانا يمثلان حور وتحوت ، وقد خلق اللسان (أى تحوت) كل شىء بواسطة الكلمة •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة نقساط ، منها (أولا) أن أصحاب منف قد أبتغوا في مذهبهم التجديد ، فضلا عن اعلاء شأن مدينتهم وأربابها المحليين ، وليس هناك من ريب في أنهم كانوا على دراية بما نادى به مذهب ايونو وأونو ، ومن ثم فاذا كان أصحاب عين شمس قد سبّوا ظهور ربهم الخالق القديم بظهور ربوة عالية أو طافية فصدقهم القوم وأعتنقوا مذهبهم ، وإذا كان أصحاب أونو بدورهم قد نادوا بوجود ربوة عالية ظهر عليها رب الشمس حين خرج من دحيته لأول مرة ، فلم لا تكون الربوة العالية أو الطافية الحقيقية هى منف ذاتها أو جزءا معينا منها ، وهى بالفعل أرض طافية ومن غير مجاز من قبل أن يتحول عنها طوفان الماء القديم أو طغيان فرع النيل القديم ، ولم لا يكون ما حدث في منف من عمران وتنظيم منذ بداية أنشائها القديم عن تدبير حكيم ، قد حدث مثله عند نشأة الوجود لأول مرة ؟ •

ومنها (ثانيا) أن أصحاب المذهب المنفى انما اعتبروا بتاح ، اله منف الاكبر ، والمتخكم في القضاء والقدر ، انما هو الاله خالق العالم كله ، وهو «بتاح» بمعنى المفتاح أو البناء ، وربما الخلاق كذلك، ويلقب أحيانا بلقب «تائنن» بمعنى رب الارض العالية أو الناهضة ، وهكذا أعلن المنفيون أن الارباب الذين عرفهم البشر جميعا لم يكونوا غير صور من بتاح أو اقانيم له ، وأن بتاح هو الرب الخالق القديم ، وانه منذ أستوى على عرشه لأول مرة ، كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، كما كان روحا لليابس القديم أو الارض الطافية الناهضة على حد سواء •

وارتأى أصحاب المذهب أنه لما كان بتاح هو الاصل والجوهر ،

والارباب صوره وأقانيمه ، فقد حق له أن يتميز عنهم جميعا بحيث ظل «بمثابة القلب واللسان لهم جميعا» ، وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم أن القلب معناه «العقل» أو «الفهم» ، أما اللسان فهو رمز للنطق أى للاداة التى تبرز أفكار العقل وتعبّر عن أوامره، أى أنها تخرج ما فيه من خير الى عالم الحقيقة الملموس ، وهكذا ، كما قلوا ، لم يكن القلب واللسان بالشئ الهين ، اذ كان لهما سيطرة على كل عضو فى الجسم ، واذا كان ثمة دليل سابق ، فهو «دليل قائم فى كل صدر ، وفى كل فم للارباب والبشر والانعام والزواحف على سواء» ، واذا كان ثمة دليل مرة أخرى على أهمية القلب فانما يكون مما يلاحظ من أن «هاتشده العينان وتسمعه الاذنان وتشممه الانف ، انما جميعه الى الفؤاد» و «أما الفم فهو الناطق بكل شئ» .

ومنها (ثالثا) أن أصحاب منف انما ذهبوا الى أن بتاح هو قلب ولسان الناسوع ، وقد قصدوا بذلك أن بتاح انما هو قلب ولسان الناسوع أتوم، ومن ثم فقد سلبوا أتوم رب هليوبوليس كل عمل خلاق وكل قدرة ونشاط فى الخلق والابداع، مادام قلبه ولسانه اللذين خلق بهما الناسوع الهليوبوليتانى ، ليسا الا أحد مظاهر بتاح ، وهكذا نسب المنفيون عمل أتوم فى الخلق الى ربهم بتاح ، أى أن تعاليم منف جعلت كل النشاط الخلاق لأتوم من عمل بتاح .

ومنها (رابعا) أن هناك من يذهب الى أن فكرة وجود ثمانية أشكال لبتاح ، انما هى اقتباس من فكرة الخلق الهليوبوليتانية التى أعترفت باله الشمس ، ولكنها فى نفس الوقت ذهبت الى أنه من انجذاب الالهة الثمانية الذين يشخصون الهيولى (مادة الكون قبل أن يأتى أى شئ للوجود) ، وما دام هؤلاء الثمانية كانوا من مادة بتاح ، مظاهر غير مخلوقة لكنيونته ، ومن ثم يصبح بتاح خالقا للشمس وللالهة جميعا .

ومنها (خامسا) أن حور كان فى مذهب المنفيين مظهرا لبتاح ، وقد مثل فى الطقوس كفرعون الحاكم ، وقد ظهر فى حجر شباكا (مصدرنا عن المذهب المنفى) كحاكم للارض ومسئول عن توحيدها وذكرها مع الاسم

الكبير «تائثن-ن» ، وأصبح تائثنن هو اسم بتاح في منف (بتاح التل الازلى) وقد قصدوا من ذلك أن بتاح لم يخلق الارض فحسب ، وإنما هو الارض كذلك ، ولعل الهدف تفنيد مزاعم أصحاب هليوبوليس من أن معبدهم مقام فوق نون ، التل الازلى •

ومنها (سادسا) أن مفكرى منف انما كانوا يدركون أن كل هذه التمثيلات لبتاح انما هى مجرد رموز ، بمثابة أفكار فلسفية ، فقد كان بتاح يملك قوة الخلق من خلال الفكر والارادة ، وقد أستبعد أتوم ، وحل محله حور ، الذى ولد بارادة بتاح ، وقد أعتبره المنفيون بمثابة القلب ، كما أعتبروا تحوت بمثابة اللسان ، ربما كمحاولة لادخال عقائدهم فى نظرية أكثر قدما من نظرية هليوبوليس ، فقد كان حور هو اله الشمس القديم ، وكان تحوت هو اله القمر ، واله الحكمة كذلك ، وقد كان من المفروض أن يكون قلب بتاح هو تحوت ، ولسانه هو حور ، ذلك لان تحوت انما هو العقل المفكر ، اله الحكمة والذكاء والعلم، بينما كان حور ممثل السلطة الفرعونية ، سلطة الحاكم الذى يعطى أوامر تنفذ ، فهو اللسان أو النطق القاطع البات ، هو الامر الذى يصدر لتنفيذ ما فكر فيه القلب •

ولكن النص صريح ويفرض الالتزام بما جاء به ويجعل الاجتهاد خروجاً عليه ، ولو أن المنطق قد لا يتقبل تشخيص القلب ب «حو» (حور) بعكس الحال بالنسبة لتشخيص اللسان ب «سيا» (تحوت) الذى يمكن قبوله على أساس أن تحوت أيضا سيد الكلام والصيغ السحرية ، الاله الذى ينطق الكلام بالمنطق الصحيح وبالنعمة الصحيحة، على أنه يمكننا أن نتصور أن المذهب المنفى جعل من حور قلبا لبتاح ربما لان مؤسسى الوحدة ومشيدى منف كانوا من أتباع حور ، ومن ثم فقد نسب كهان منف،ارضاء لهم،الى حور الدور الفعال فى مذهبهم، فجعلوه بمثابة القلب العضو الاكثر أهمية فى تعاليمهم ، فهو الذى تنشأ عنه كل الافكار والاعمال ، بينما يقتصر عمل اللسان على مجرد تنفيذ هذه الافكار باصدار الامر بها •

ومنها (سابعاً) أن بتاح لم يكن في نظر المنفيين هو خالق الكون والروح الخالقه للعالم المادى ، والجامع لكل وظائف الالهة الاخرى فحسب ، وانما كان كذلك خالق النظام الاخلاقى ، مما يشير الى تطور نظرية منف أكثر من نظريه ايونو ، وان كانت معلوماتنا عن الاخيرة ليست كافية ، ويقرر حجر شباكا (الذى دونت عليه تعاليم منف ، والموجود حالياً بالمتحف البريطانى) أن بتاح هو «الذى صنع الجميع» أحضر الالهة الى الوجود ، انه حقا تائنن ، الذى أحضر قديما الالهة ، لان كل شيء انبثق منه ، الغذاء والمؤن وقرايين الالهة ، وكل شيء طيب ، وهكذا اكتشف وفهم أن قوته أعظم من الالهة الاخرى ، لذلك كان بتاح راضيا بعد أن صنع كل شيء ، وكذا كل أمر الهى ، لقد شكل الالهة ، وأسس المدن ، وأوجد الاقاليم ، ومن ثم فهو الذى خلق النظام السياسى ، لقد وضع الالهة فى محاريبهم وصنع أجسامهم بالطريقه التى ترضى قلوبهم ، ولذا فقد دخلت الالهة فى أجسامها من كل نوع من الخشب والحجر والطفل أو أى شيء مما ينمو فوقه ، قد يأخذون فيه أشكالهم ، ومن ثم فان كل الالهة «كا» انهم قد جمعت أنفسهم له ، راضية ومقترنة بسيد الارضين» ، وهكذا كان بتاح هو «تائنن» الارض المرتفعة ، اله هذه الارض وروح الحياة الموجودة فيها ، ومن ثم فهو يقوم بتنظيم هذه الارض باقامة المدن والمقاطعات الى جانب أنه أتى بكل الالهة وبجميع الكائنات الى الوجود ، على أساس أن كل شيء فى هذا الوجود انما هو انبثاق منه كالقلب واللسان .

ومنها (ثامناً) وصف بتاح بأنه «تائنن» التل البدائى الذى ارتفع من الهيولى ، والذى يمثل أول قطعة أرض برزت من هذا الهيولى ، وهذا التل هو الذى مارس فوقه أتوم أول أعماله فى الخلق ، وفقاً لنظرية عين شمس ، وهو المكان الذى تعيش فوقه ثمانية هرمبوليس ، طبقاً لنظرية الاشمونين ، وقد أشير من قبل الى أن نظرية عين شمس لم تقدم تفسيراً ثيولوجياً عن الهيولى (مادة الكون قبل الخلق) والتل البدائى الذى ارتفع من هذا الهيولى ، وأن نظرية الاشمونين قد استوفت الهيولى بأن جعلت الثامون تشخيصاً ووصفاً للهيولى ، ولكنها

لم تقدم تفسيراً ثيولوجياً لكيفية وجود التل البدائى ، برغم الإشارة الى أن الالهة الثمانية خلقت اله الشمس فوق هذا التل ، وهكذا جاءت نظرية منف لتكمل نظرية عين شمس عن التل البدائى فنادت بأن بتاح تائثن هو هذه الارض الاولى التى ارتفعت من المهيولى الكونى، وهكذا يمكن القول أن النظريات الثلاث انما تقدم معا قصة خلق متكاملة تقدم تفسيراً للكون وظواهره وكائناته قبل أن تأتى الخليقة الى الوجود وبعد أن أتت •

ومنها (تاسعا) أن كهانة منف حاولوا أن يربطوا مدينتهم بديانة أوزير ، وذلك بادعاء أن أوزير قد غرق عند شاطئ منف ، وأن ايزة وتفنيس قد انتشلتا جسده ثم دفنتاه فى أرض منف ، ومن ثم أصبح منف مخزن غلال الاله التى تمد الارضين بالغذاء ، نتيجة للخصوبة التى اكتسبتها أرضها بدفن أوزير فيها ، ذلك لان أوزير كان ، فيما يعتقد القوم ، مياه الفيضان الخصبة أو هو القوة التى تمنح الارض الخصب والحياة ، وبالتالي تصبح منف التى نسب اليها مكان غرق أوزير ودفنه هى أخصب الاراضى المصرية قاطبة ، وهكذا أصبحت مخزن غلال الاله التى تمد الارض بالقوت ، هذا فضلا عن أن المنفيين انما نسبوا الى أوزير ، شأنه فى ذلك شأن بتاح ، أنه علم الجنس البشرى فنون الحضارة ، مما يشير الى أن الكهانة المنفية انما أرادت أن تستميل أوزير وتجعله واحدا فى نظامها •

ومنها (عاشرًا) أن أصحاب المذهب المنفى انما أطلقوا على بتاح كذلك لقب الصانع الماهر المقدس ، كما كان الخالق العظيم ، وقد وحده الاغريق مع الههم «هيفايستوس» ، ولكنه كان كذلك سيدا للصدق ، ومن ثم فقد صحبه تحوت الى الحكمة فى كل مكان ، ولما كانت أفعاله أعمال عدالة كان مع تحوت يعمل كل شئ بصورة كاملة لم يكن مضللا أو مخادعا ولكنه كان صانعا ماهرا ، انه بتاح ومن هنا فقد نادت النظرية المنفية بأن العدالة تعطى لمن يفعل ما هو محبوب ، والمظلم لمن يفعل ما هو مكروه ، وأن الحياة تعطى للمسالمة ويحقيق الموت بالمجرم

الاثيم ، وفي التعبيرين «ما هو محبوب وما هو مكروه» نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الانسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء ، لانهما ذكرا هنا لأول مرة في تاريخ البشر .

ومنها (حادى عشر) أن بتاح قد مارس عمله في الخلق عن طريق القلب واللسان ، وهو أسلوب في الخلق لم يشهده في النظريات الاخرى، فالنظرية المنفية جعلت من الخلق عملية عقلية معنوية صرفة لا تتصل بالمادية من قريب أو بعيد ، ومن ثم فلم يكن المذهب في حاجة الى تقديم تفسيرات عن كيفية خلق السماء أو الارض أو الهواء أو غيرها من الظواهر الكونة الاخرى ، هذا فضلا عن أن بتاح انما هو القلب واللسان في كل كائن ، سواء أكان من البشر أو الالهة أو أى شىء يعيش على الارض ، وما دام كل عمل أو نشاط ينسب الى القلب الذى هو منبع كل فكرة ، واللسان الذى يقوم بتنفيذ هذه الفكرة بالنطق بها، ومن ثم فان كل نشاط في هذه الحياة انما ينسب الى بتاح ، وهذا يعنى أن بتاح هو نشاط هذا العالم وحياته ولولاه لما وجد في هذا العالم حياة، وهو مبدأ لم تتناوله النظريات الاخرى .

وهكذا كان اللاهوت المنفى الذى كتب قبل العبرانيين وقبل اليونان بأكثر من ألفى سنة ، كان اصراره على وجود عقل خالق ومسيطر ، عقل صور مظاهر الطبيعة وأمدّها منذ البداية بالمقاعدة والبرهان ، كان تفكيراً شاعراً في سموه ، قبل أن يوجد الفكر اليونانى أصلاً ، ولم يستطع المصريون بعد ذلك أن يصلوا الى علوه ، فضلا عن أن يتجاوزوه، هذا فضلا عن أن هذا اللاهوت المنفى انما يزيل من ديانة المصريين القدامى سمة المادية ، فقد كانت ذات طبيعة روحية وفلسفية لا تبارى من قبل النظريات الاخرى ، فقد كان بتاح روحاً خلقت نفسها ، ومسبباً للأسباب التى أنتجت كل شىء وكل كائن مادي في السماء والارض والعلم السفلى ، وهكذا انتقل القوم من عالم المادة الى عالم الروح .

على أن هذا اللون من ألوان التفكير في الخلق وخالقه لم يجب

ما تقدمه من ألوان أخرى ، فنحن نرى الجديد على رقيه وتهذيبه الى جانب القديم على ما فيه من خشونة مادية وجفاف ، وليس ذلك بالشئ الغريب ، فان للقديم على جفافه وخشونته حرمة في ضمير الزمن وقديسية في نفوس الناس ، وآية ذلك ان نظرية منف على ما فيها من لطف وروحانية لم تستطع أن تجب نظرية هليوبوليس المادية المفترية بل ان هذه الطبيعة المعنوية التي انفردت بها تعاليم منف عن الخلق هي التي كانت عائقا أمام انتشار هذه التعاليم ، ذلك لان أفكارها الدينية والفلسفية السامية لم يتقبلها عامة القوم قبولا حسنا ، ربما لانهم لم يجدوا لها تفسيراً في الواقع المحسوس ، وربما لانها لم تترك شيئاً لنشاط خيالهم أو لادراك عقولهم ، ومن ثم ازدهرت هذه العقيدة ابان سيطرة ملوك منف ، ومع ذلك فقد استطاع كهان رع أن ينشروا مذهبهم بنجاح في الاسرة الرابعة ، وان كان نجاحهم أكبر في الاسرة الخامسة ، على أن نهاية الاسرة السادسة ربما كانت بمثابة انهيار للعقيدة المنفية ، كما أن طبيعة بتاح الروحية لم تدعيها فيما بعد واحدة من الكهانات لمعبودها^(٤) .

٤ - نظرية طيبة

كانت المدرسة الرابعة قد نشأت في طيبة (واست) ، وهي مدينة نهياً لها حظ واسع في عالم الفكر والسياسة والدين خلال فترات قصار من عصر الدولة الوسطى ، وفترات طوال من عصر الدولة الحديثة ، حتى أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم من غير منازع ، وفي فترة

(٤) جيمس هنري برستد : فجر الضمير ص ٤٨ - ٦٠ ، أحمد بدوى في موكب الشمس ص ١٥٨ - ١٥٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٣ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٧٦ ياروسلاف تشرنى : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ ، فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٦٤ - ٧٠ .

J. A. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, P. 58-61.
ANET, P. 4-6; H. Frankfort, Op. Cit., P. 24-31; V. Lons, Op. Cit. P. 33-34; E. A. Budge, Op. Cit., P. 265-270, P. Boylan, Thoth the Hermes of Egypt, P. 110-111; J. Vandier, Op. Cit., P. 34.

لاندرى تحديدها عن يقين خرج أهل الفكر والدين في واست (الاقصر) بمذهب جديد من مذاهب نشأة الوجود، وكان من البدهي لهؤلاء أن يبدأوا بمدينتهم ، وأن يلتمسوا لها من من الطبيعة وتقدم النشأة وقداسة السعة ، ما يكفل تصويرها للناس على أنها الموطن القديم للبدء والخلق والعز والمجد ، دون أية مدينة أخرى سواها ، وهكذا مهداه طيبة أو واست لأزلية مدينتهم ، ثم يفعلون الشيء نفسه بالنسبة لربها آمون، فأعلنوه ملكا للارباب جميعا ، وتعمدوا أن يوحدوا بينه وبين آلهة المذاهب القديمة جميعا ، وأن يجعلوه المصدر الازلى القديم لها جميعا .

وانطلاقا من هذا فلقد بدأ أنصار آمون ينسبون اليه كل ما يليق بمكانة ربهم الذى أيدهم بنصره في مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة المعالية ، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة ، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لمذهب طيبة هذا ، والمذى تاتر بمذهب الاشمونين ، هو الاله الاكبر الذى أوجد ذاته بذاته ، شأنه في ذلك شأن أتوم ، لم يكن هناك اله آخر غيره ليخلقه ، ومن ثم فلم يكن له أب ولا أم ، لم يكن مرثيا، وانما ولد في الخفاء ، واستمر فردا حتى أتم عهده قدره لنفسه ، وحين ذاك تخير لنفسه مكانا مقدسيا آوى اليه واستقر فيه ، وظل أمر الاله خفيا باسمه وشكله والمقر الذى استقر فيه ، حتى ابتغوا أنصاره أن ينسبوا اليه ألقابا ثلاثة يرتضيها لنفسه ، فدعوه «آمون» بمعنى الخفى ، و «آمون رنف» أى خفى الاسم ، و «كم آتف» بمعنى الذى أتم عهده، كما جروا على أن يرمزوا اليه تجاوزا بهيئة الثعبان ، ويتخيلوا مأواه المختار في عالم سفلى بعيد يقع مدخله لدى مكان دعوه «يأت ثامو» على مقربة من مدينة «هابو» بغربى طيبة ، وظل أمره كذلك حتى اتجه الى خلق الارض ، وهنا أطلق عليه أنصاره لقبين ، الواحد آمون بمعنى الخفى ، والاخر «ايرتا» بمعنى خالق الارض ، أو صانع الارض .

وارتأى رب واست (الاقصر) بعد ذلك أن يغادر مقره القديم ، وأن يتزود له بقدرة الخلق والاختصاص، فاتجه الى الاشمونين، وهناك أصبح

واحدا من أربابها الثمانية الكبار ، وأن زعم الطبيعيون أنه كان قد خلق
الأرباب الثمانية من نفسه قبل أن يغادر طيبة في مكان معبد 'الاقصر
المحلى ، والذي أقيم بعد ذلك بعشرات القرون ، ومن ثم فإن آمون
حينما ظهر في ثامون الأشمونين إنما استمرت له الهيمنة وظل صورتهم
المنلى ، ولم يعدوا أن يكونوا أقانيمه أو توائمه ، و في هذا 'وضع
الآخر في الأشمونين أصبح آمون ربا للهواء وحفيظا على مقومات
الحياة وشريكا في توليد شمس السماء ، وصورة أصلية من الهيا في
الوقت نفسه ، ومن ثم فقد اتجه أصحابه الى التعديل في ألقابه القديمة؛
افنظا ومدلولا ، فخلعوا عليه لقب آمون القديم ، ولكن بمدلول جديد،
وهو «الحفيظ» ، كما أضافوا اليه لقباً آخر فجعلوه «آمون رع» تنويها
بأنه يهينه للشمس وما يصدر عنها من حرارة ودفع ونور .

وأما الأرباب الثمانية التوائم في أونو ، فقد نصبوا اله الشمس
في هيئته الجديدة خليفة لهم ، ثم خرجوا معه بعد ذلك الى عدة مواضع
أصبحت فيما بعد عواصم الدين والملوك جميعا ، خرجوا به الى عين
شمس (ايونو) فقصوا بها زمنا وجعلوا له فيها شأنا كبيرا ، ثم رجعوا
به الى الأشمونين حيث أكدوا له ملكوات الهواء ، ثم انطلقوا به بعد
ذلك الى منف حيث عهدوا اليه بعرش ربها ، وأخيرا عادوا به الى طيبة،
حيث استقروا في عالمها السفلى ، على مقربة من مدينة حابو ، حيث
استقر قبلهم «كم آتف» أصلهم الازلى القديم .

وكان من نتائج ذلك كله عدة دعاوى ، منها (أولا) أن رب الشمس
الذى عهد الأرباب الاوائل بخلافتهم اليه ، لم يكن رع ، أو رع أتوم،
وانما كان آمون الذى يرجع نسبه الى طيبة وحدها ، ومنها (ثانيا) أن
آمون رع انما قد جمع كل مظاهر السلطة والتقديس التى زعمها كهان
عين شمس والأشمونين ومنف لأربابهم ، وأن آمون رع الذى ورث
عروش الالهة لم يكن فى الواقع غير فيض أخير للاله القديم «كم آتف»،
معبود واست (ويزة) ، وخالق الارض ، واله التناسل .

ومنها (ثالثا) أن الروح الالهية التى اعتاد الناس أن يتعبدوها فى

معابد واست (الكرنك والاقصر وحابو وغيرها) لم تكن غير روح واحدة تعددت أوضاعها ، ولكنها صدرت جميعها عن واحد ، وامتدت جميعها الى واحد ، ومن ثم فقد ظل آمون رع رب معبد الكرنك وملك الارباب ورب العروش ، حريصا على أن يتردد على معبد الاقصر مرة كل عشرة أيام ، ليؤكد قدرته على الخلق والاخصاب ، كما ظل كذلك يزور معبد حابو من حين الى حين ليؤكد روابطه القديمة بكل من المصدر الاول الذى صدر عنه وهو «كم آتف» والاقاليم الثمانية التى صدرت منه ، والتى تواضع الناس على تسميتها باسم الثامون الازلى •

ومنها (رابعا) أن طيبة انما كانت أول مدينة ظهرت في الوجود ، ثم تكونت بعدها المدن الاخرى ، وكانت واست الماء الاول (نون) والارض الاولى (التل الازلى) وقد تأسست طيبة فوق التل ، ومن ثم بدأ العالم ، ثم خلق الجنس البشرى ليشيد المدن الاخرى ، (شأنها في ذلك شأن عين أتوم التى تشرف على شو وتفنوت في مياه نون) •

ومنها (خامسا) أن الكهانة الطيبية انما زعمت أن مدينتهم طيبة انما كانت كذلك مكان مولد أوزير ، وليس هنسك من ريب في أن ذلك انما يرجع الى الوقت الذى حاز فيه أوزير على مكانته الشعبية فضلا عن ارتباطه بالبيت الملكى وبخصوبة الارض •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة أخيرا الى أن أصحاب المذاهب المصرية لم يتصوروا خطة محددة لخلق الانسان ، وانما صدرت عنهم آراء متفرقة يمكن اجمالها في ستة آراء منها (أولا) رأى قديم ماذى شائع رد أصحابه خلق الانسان الى أرباب عدة ، ردوه الى اله دعوه «خنوم» ، وصوروه جالسا الى دولا ب الفخار يسوى الاجنة من صلصال ، ثم جعلوا له شريكة في بعض الاحايين دعوها «مسخت» ، وردوا الخلق تارة ثالثة الى ثلاث من الربيات الاناث هن «حقنت ورننت ومسخت» ، وكانت «حقنت» تصور عادة بهيئة الانثى ورأس الضفدعة، و «رننت» يدل اسمها على معنى المربية ، و «مسخت» واحدة من ربات الوضع والولادة •

ومنها (ثانيا) رأى جمع أصحابه بين المادية والواقعية ، واعتقدوا أن الانسان خلق أصلا من صلصال ، «وأن الاله هو مسويه» ، وأن هذا الاله «لايزال يرفع الناس ويخفضهم كل يوم ، فيجعل ألفا منهم توابع ان شاء ، وألفا رؤساء ان شاء» ، ومنها (ثالثا) رأى معنوى يذهب الى أن خلق البشر تأتى عن رغبة أرادها الاله وأمر بها لسانه ، فكان من أمر خلقهم وتناسلهم ما كان ، ومنها (رابعا) رأى ذهب الى أن الاله خلق الناس على صورته ومن ذات بدنه ، ولايزال يرعاهم أجنة وكبارا ، ومنها (خامسا) رأى شاعرى ذهب الى أن الاله خلق الناس من عينيه وأرسلهم على الارض مع دموعه •

ومنها (سادسا) رأى أسطورى ذهب الى أن خلق البشر تم في مصر وحدها ، لولا أن تمرد بعضهم على سلطان ربها ثم تخوفوا نقمته، فتفرقوا شر فرقة^(٥) ، وفرت جماعات منهم الى الجنوب حيث أصبحوا السلف القديم للسودانيين ، وهرع آخرون الى الشمال فكانوا أسلافا للاسيويين على حين تناسل الليبيون من الهاربين ناحية الغرب ، ونشأ أسلاف البدو من الملائذين بالشرق^(٦) •

(٥) قارن : تكوين ١١/١ - ٩ •

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٦ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٥٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر •

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 130-131. V. Lois, Op. Cit., P. 37-38.

وانظر :

S. G. F. Brandon, Creation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

الفصل الثانى

المعبودات المصرية القديمة

تمهيد :

لم تكن هناك قوة فى حياة الانسان القديم يسيطر أثرها على نشاطه — فيما يرى برستد — كما يسيطر الدين ، ذلك لان الدين كان منفذا للخىالات ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة بالانسان ، وهو يصدر دائما عن رغبة أو رهبة ، رغبة فى المنفعة أو رهبة من المجهول والاضطراب ، والحياة لا تتأثر بالدين فحسب ، بل تختلط وتمتزج به امتزاجا ينفذ بالانطباعات الخارجية حتى يخرج من ذلك كله مزاج يتطور مع القوى الكامنة فى الانسان ، هذا وكانت الطبيعة المبشر الاول للدين ، اذ فسر الانسان مظاهرها حين عجز عن فهمها بأن عزاها الى قوى خارجة عن نطاق تفكيره ، والالهة أو المعبودات فى رأى الانسان القديم كالشخص يمكن أن نقرضاهم بالقرايين والتقدمات، ولهم صفات البشر أحيانا كذلك.

هذا وقد تكون عند المصرى القديم نوعان من الالهة ، آلهة عالمية، وآلهة محلية ، وقد لعبت الاخيرة عنده الدور الرئيسى ، وقد ظلت تعبد حتى نهاية العصور الفرعونية ، وذلك لقربها منه ، ولتأثره المباشر بها، حتى أصبح لكل أسرة، ولكل قبيلة ، ولكل اقليم ، معبوداتها المحلية المتعددة ، غير أن نفوذ كل معبود انما كان أحيانا لا يقتصر على منطقته التى نشأ فيها ، وانما كان يمتد الى ما حولها من القرى حسب أحوال البيئة التى تحيط بمنطقة نفوذه ، وخاصة الاحوال السياسية ، فاذا ما عظم شأن قبيلة سياسيا تغلب الهها على ما حولها من القبائل الاخرى دينيا ، وأصبح اله هذه القبيلة هو صاحب النفوذ الاعظم .

.. واستمر الحال على هذا النحو حتى أصبح لمصر كيان سياسى ،

فاندمجت المناطق بعضها في البعض الآخر ، وانقسمت الى قطرين ، ثم اتحدت البلاد تحت امرة ملك واحد ، وهنا ظهر نوع ثالث من الالهة، هو معبود الدولة الذي كان في الاصل أحد المعبودات المحلية ثم استطاع حاكم اقليمه أن يفرض سيطرته على مصر بأكملها ، وحتم على القوم أجمعين أن يقدسوا معبوده ، فيصبح بالتالى معبود الدولة بأكملها .

على أن المعبودات المحلية ، رغم أنها أساس الديانة المصرية القديمة ، فان قوى الطبيعة العالمية قد قامت بدور هام في معتقدات القوم في كل عصور التاريخ المصرى القديم ، ولا بد أن هذه الالهة كانت تعبد منذ الازل بصفة عامة ، غير أنها لم تحتل مكانة مرموقة ، على ما يظن ، في نفوس القوم الذين كانوا لا يؤمنون الا بعبادة الاشياء المحسوسة القريبة الى عقولهم ، وربما لم تتأصل عبادة القوى العالمية في نفوس القوم بسبب تطورات عقلية ، وربما بسبب توجيهات رجال الفكر والدين عندما أرادوا تفسير أصل العالم وتكوينه ، ولا نزاع في أن الالهة العالمية اذا ما قورنت بالالهة المحلية ، فان الاخيرة تتضاءل أمام الاولى ، وربما كان من المرجح أن عبادة القوى الطبيعية البارزة لم تأت الا بعد اتحاد القطرين .

هذا وقد بدت لنا الالهة العالمية اما في صورة انسانية أو صورة حيوانية ، فقد ظهر اله الشمس في صورة انسان برأس صقر ، كما مثلت الهة السماء «نوت» في صورة بقرة كبيرة تعتمد على قوائمها الاربع التى تمثل دعائم السماء ، يبحر فيها قارب يحمل شمس الصباح، وقد ظهرت السمء كذلك امرأة تحل محل البقرة أحيانا ، تنحنى بجسمها المديد فوق الارض ، وتعتمد على ذراعيها وساقها التى تحل محل قوائم البقرة ، ومن ثم نفهم أن نظام عبادة القوى الطبيعية يرجع الى عهود قديمة جدا ، وربما قد عبدت هذه الالهة الطبيعية في بادىء الامر في صورة مبهمه ، ومن ثم فلم يكن لها محاريب خاصة ، وأن محرابها انما كان الكون نفسه ، غير أن المصرى الذى لم يكن يؤمن الا

بالمرثيات والاشياء المحسة قد اتخذ لها أماكن عبادة كالتى اتخذها في
بادىء الامر لالهته المحلية .

هذا ومن المعروف أن الدين المصرى القديم انما كان — كما ظل
طوال ألف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية
الاصلية ، وكان لكل مدينة معبودها الخاص ، ومن ثم فقد تميزت كل
منطقة بمعبود خاص ، ربا كان في الاصل هو الكائن الغالب في البيئة
أو ذو التأثير الكبير في سكانها ، وهكذا عبد التمساح في المناطق التى
تكثر فيها الجزر أو البحيرات ، حيث يكثر وجوده هناك ، ومن ثم فقد
عبد في منطقة دندرة ، عند ثنية قنا ، حيث ينحنى النيل ويتخلف عن
انحنائه عدة جزر ، لاريب في أن عددها كان في تلك الايام الغابرة أكثر
منه اليوم ، كما عبد في منطقة وادى كوم أمبو ، وفي الفيوم حيث توجد
بحيرة قارون العذبة ، وما يتصل بها من بحيرات صغيرة تنتثر بها
الجزر التى تأوى اليها التماسيح ، كما عبدت الثعابين والافاعي في
مناطق التلال القريبة من الوادى ، حيث يكثر وجودها هناك ، كما في
قاو الكبير ، وفي مستنقعات الدلتا ، كما في بوتو ، كما عبدت السبع في
الاقاليم المجاورة للدلتا .

وعبدت الصقور في مناطق التقاء الوديان أو الطرق الصحراوية
بوادى النيل ، كما في ادفو حيث ينتهى وادى عبادى ، وفي قفط حيث
ينتهى وادى الحمامات ، فضلا عن المناطق التى تتاخم الصحراء والتى
تقع في أقصى شرق الدلتا ، وغربها ، كما في دمنهور وفي أوسيم ، وفي
منطقة صفط الحنة قريبا من فاقوس ، كما عبد الذئب وابن آوى في
تلال أسيوط شبه الجبلية وفي أقاليم مصر الوسطى ، وعبدت القطط في
بوابسة وعند وادى بنى حسن ، وأنثى النسر في ثالث أقاليم الوادى
من الشرق ، والصقر من الغرب ، وعبد الكباش في كثير من الاقاليم
المصرية من مطلع الوادى الى رأس الدلتا .

على أننا يجب أن نلاحظ أن القوم لم يقدسوا حيوانا لذاته ، ولم
يقروا تماما لاربابهم بالتجسد المادى في هيئة حيوان أو طير ، وانما

كان اهتمام المتدينين منهم بما تخيره من الحيوان والطير يستهدف رغبتين ، وهما : رغبة الرمز الى صفات اله خفى ببعض المخلوقات الظاهرة التي تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته ، ثم رغبة التقرب اليه عن طريق الرعاية التي يقدمونها ضمنا لما رمزوا به اليه من مخاوفاته ، هذا وقد ترتب على التفرقة بين كل اله ورموزه الحية من الحيوانات والطيور ، أن اختلف وضع هذه الرموز عندهم ، عنه عند شعوب أخرى ، فلم يكن اختيار المصريين لرمز أو فرد من الحيوان يؤدي الى تقديس كل أفراد نوعه ، ولم يكن من بأس على قرية ترمز الى ربها بهيئة الفحل مثلا ، أن تستخدم الفحول في الحقل والنقل والمذبح ، وانما هو مجرد حيوان واحد منها يتخيره الكهان اذا توافرت فيه علامات حددها لهم الدين ونواميسه ، ثم يتركونه في مزاره آية مشهودة حتى ينفق ، وذلك على العكس من شعوب أخرى قدست أنواعا من الحيوانات بكافة أفرادها •

ومن ثم فاننا نلاحظ أنه ما من معبد من المعابد الكبيرة الباقية حتى الان ، مما خلفته العصور الممتدة من الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الحديثة على أقل تقدير ، أى خلال ما يقرب من ألفى عام ، قد تضمن مكانا معدا لحيوان ، مما يعنى أن رمز الحيوان المقدس اذا وجد لم يكن مقرا لعبادة فعلية على الاطلاق ، وان كنا نفترض من جهة أخرى ، بناء على نصوص وصور نادرة ، وعادات أخرى تتعلق بالعجل أبيس وغيره من عصور متأخرة ، أنه اذا قضت الظروف بالعناية بحيوان معبود ما ، وضع الكهنة هذا الحيوان المختار في مزاره منفصلا عن مكان العبادة ، بحيث ان شاء المتعبد زاره ، وان شاء تتجاوزته •

وعلى أى حال ، فان القوم في معظم الاحوال ، انما قد اتخذوا آلهتهم ، في بادىء الامر ، من طبيعة البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، مراعين في ذلك مدى افادتهم من هذه الالهة ، سواء أكان ذلك بكشف الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، بخاصة وأن التجارب قد علمتهم أن بعض الالهة قد يتأتى عنها كثير من الخير ، وبعضها الآخر قد يتأتى

عنها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها في جهات بعينها ، وفي ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز فى نطاق تصوراتهم التى كانت فى عصورها الاولى لاتزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، ويوحى هذه التصورات رموزا بحيوية الكباش الطلوق الى الاخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شئ من ذلك ، والى قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع والمالبوات الى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراشة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا •

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس (فيتش Fetish) مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صور حيوانية ، وهكذا كانت القطة باست فى بوباستة ، والالهة الصل ادجو فى بوتو . والابيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات الاله ابن آوى فى أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، وهكذا صور الاله آمون فى هيئة آدمية برأس كبش، وصورت الالهة حتحور ، برأس آدمية ، ولها قرون بقرة •

ومع ذلك كله ، فلقد ندر أن قدس القوم معبودا ذا رمز حيوانى باسم الحيوان المادى الذى يرتبط به ، فهم لم يقدسوا هيئة الصقر مثلا باسمه الحيوانى «بيك» ، ولكن باسم ربانى هو «حور» ، ولم يقدسوا هيئة البقرة باسمها الحيوانى «آحت» (احة) وانما باسم «حتحور»، ولم يقدسوا هيئة اتمساح باسمه الحيوانى «مسح» ولكن باسم ربانى هو «سوبك» ، ولم يقدسوا هيئة الكباش باسمه الحيوانى «با» ولكن باحدا اسمين ربانيين ، هما «خنوم» و «آمون» ، هذا فضلا عن أن القوم لم يقدسوا السماء باسمها الطبيعى «بت» ولكن باسم ربتها «نوت» ، أضف الى ذلك أن بعض أسماء معبوداتهم الانثة الذكر ، انما

كانت صفات في جوهرها أكثر منها أسماء ، فاسم «حور» يعنى العالى أو البعيد ، واسم «سخت» يعنى القادرة أو المقتدرة ، واسم «أتوم» يعنى الكامل المنتهى ، واسم «آمون» يعنى الحفيظ والخفى ، وما الى ذلك من أسماء يعز علينا تفسير معانيها بالتحديد .

هذا وقد كانت الهيئة البشرية هي أكرم ما تصور المصريون به أربابهم ، ومن ثم فقد جرت العادة على تمثيلهم على هيئة الانسان في أغلب الاحوال ، مع تميزهم عنهم بأزليتهم وأبديتهم ومطلق قدرتهم ، ولو أن ضرورة تمييز كل معبود منهم عن الآخر دفعت أتباعهم الى تمثيل كل واحد منهم بجسم انسان ورأس الحيوان أو الطير الذى رمزوا به اليه ، وذلك ما نفذه الفنانون المصريون في صورهم وتمثيلهم في توافق عجيب لم يستطعه فنان آخر قديم ، وتمثيلهم بهيئة الانسان كاملة مع تمييز كل واحد منهم بشارة تدل عليه ، وكان من هؤلاء الارباب الاخرى الذين احتفظوا بالهيئة البشرية الخالصة : أتوم وبتاح وعنجتى ومين وجب ونوت وأوزير وايسه ونبت حت وشسست وخونسو هذا وربما كان تمثيل الالهة في هيئة آدمية سببا في أن يظن القوم أن لها من المشاعر ما يحاكي مشاعر البشر من حب وبغض وأنها تأخذ وتعطى، وتعاقب وتثيب ، مما لا يستطيعه الحيوان أو الجماد ، أو أنهم أرادوا أن يضيفوا عليها صفاتهم الانسانية وعواطفهم ، ومن ثم فقد جمعوا بين الانسان والحيوان الذى يعبدونه عند تصورهم الاله بصورة تتفق مع واقعته .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن كثيرا من الالهة انما كانت تكون أسرا الهية ، منها ما كان يؤلف في عهد الاسرات ثالوثا من الاب والام والابن ، كما في ثالوث أوزير وايزه وحور ، على أن هذه الاشكال الثلاثة لم تكن دائما في نظر القوم شخصيات مستقلة لها ذاتيتها وفرديتها ، وانما هي أشكال أو صور لاله واحد جمع في شخصه درجات القرابة في العائلة الانسانية ، فهو الاب ، على أساس أنه العضو الاول في الثالوث ، والام ليست سوى صورته المؤنثة ، وهو الابن ، على

أساس أنه العضو الثالث الذى يشبهه هو نفسه ، فهو أب لنفسه وابن لنفسه وزوج لأمه •

على أن هناك من يذهب الى أن الثالوث ماهو الا تشكيلة من معبودات ثبتت صفات كل منها منذ زمن بعيد ، مستقلة عن صفات الآخرين ، فاذا ماتركنا الثالوث جانبا ، وجدنا أنفسنا أمام آلهة لا صلة بينها ، فضلا عن الرابطة والتبعية ، هذا الى جانب أن الثالوث قد يتكون كذلك من زوج وزوجتين ، كما فى ثلوث الميفانتين ، المكون من خنوم وزوجتيه ساتت وعنقت ، بل ربما يتكون كذلك من أم وابنين ، كما فى ثالوث دندرة والمكون من حتحور وولديها سماتاوى وايجى •

ولعل من أشهر هذه الاسر الالهية : ثالوث اليفانتين ، ويتكون من خنوم وساتت وعنقت ، وثالوث كوم أمبو ، ويتكون من سوبك وحتحور وخونسو (الذى ظهر كخونسو حور) ، وثالوث ادفو ، ويتكون من حور وحتحور وحارسوماتيس ، وثالوث اسنا ، ويتكون من خنوم ومنحيت وحكا ، وثالوث أرمنت ، ويتكون من مونتو وثنيت وحربو قراط ، وحور بارع ، وثالوث طود ، ويتكون من مونتو وثنيت وحربو قراط ، وثالوث طيبة ويتكون من آمون وموت وخونسو ، وثالوث قفط ، ويتكون من مين ورشب ووقدش (الالهان الاخيران أجنيان) ، وكذا أوزير وايزه وحور ، وثالوث دندرة ، ويتكون من حتحور وسماتاوى وايجى ، وثالوث أبيدوس ويتكون من أوزير وايزه وحور ، وثالوث منف ، ويتكون من بتاح وسخمت ونفرتم ، وثالوث عين شمس ويتكون من أتوم وتفنوت ، وفى أطفيج حتحور ونبت وسوبك^(١) •

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٩٧ - ٣٠٠ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٤٠-٥٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٨ وما بعدها ، تشرنى : المرجع السابق ص ١٣ - ٤٤ .
G. Maspero, Sur Lenneade, Bulletin de la religion Egyptienne, 1891, P. 42-43.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939P. 45, A History of Egypt, P. 53-54.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

المعبودات المصرية

١ - حور

يجمع المؤرخون أو يكادون على أن اله السماء «حور» انما قد أصبح الاله الأعظم في مصر منذ بداية العصر التاريخي ، وأن له معبدا في «نخن» (البصيلية مركز ادفو) عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد، وذلك منذ أخريات عصر بداية الاسرات ، ثم أصبح الاله الهامى لحكام الصعيد المنتصرين على الدلتا وخلفائهم المباشرين ، ذلك لان القوم انما كانوا يرون أنه بتأييد من حور ومؤازرته استطاع ملك نخن أو ملك الصعيد «نعرمر» أن يحقق الوحدة لمصر بعد انتصاره على الدلتا ، وأن يؤسس الاسرة المصرية الاولى ، وأن يخلد هذا العمل التاريخي على لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) التي عثر عليها في نخن ، حيث يسجل على أحد وجهي اللوحة انتصاره على الدلتا ، وهو يرتدى تاج الصعيد الابيض ، فضلا عن مشاركة حور في احراز هذا النصر ، وذلك بتمثيله في صورة صقر مهيب يقف بأحدى قدميه فوق نبات البردى ، شعار الدلتا ، بينما تمتد قدمه الاخرى في شكل ذراع بشرية لتمسك بحبل خزمت به أنف رأس بشرية تتصل بشكل مستطيل ، ربما تشير الى بيئة الدلتا ذات المستنقعات ، اذ ينبثق منه نبات البردى الذي أشير من قبل أن حور انما كان واقفا فوقه •

وأما الوجه الآخر للوحة ، وفيه يرتدى «نعرمر» تاج الدلتا الاحمر ، فتعبر نقوشه عن نتائج نصر الملك الصعيدى المبين على الدلتا ، وقد مثلت فيه أربعة ألوية للمعبودات التي شاركت في احراز النصر ، وهى لواءان للصقر حور في المقدمة ، مما يشير الى سيادته على الصعيد والدلتا ، يليها لواء المعبود «وب واوات» (فاتح الطريق) ، ثم لواء رابع يصعب التعرف على مدلوله ، ويمثل في شكل أنفتاح شبه

بيضاوى ، بل ان هناك ما يشير الى أن الاله حور انما سبق تمثيله في نقش للملك العقرب ، وهو يقف في مواجهة الملك ويمسك في إحدى قدميه بطرف حبل خزمت بطرقه الآخر أنف أحد زعماء البدو ، في صورة تشبه تمثيل حور في لوحة نعرمر •

وهكذا حقق حور لأتباعه من زعماء الصعيد وحدة الارضين (تاشمعو ، وتامحو) فأصبح بذلك اله الدولة ، فضلا عن الملكية الجديدة ومن ثم فقد اتخذ ملوك الاسرة الاولى شعارا ملكيا يعلوه صقر (السرخ) الذى كان يكتب فيه الاسم الحورى للملك في عصر هذه الاسرة ، والذى كان يتصدر غيره من الاسماء الملكية الاخرى ، كما تشهد آثار تلك الفترة ، والتي تشير الكثير منها الى أن الملكية انما هي منحة من الاله حور ، أول معبود رسمى للدولة والملكية في التاريخ المصرى القديم ، ومن ثم فقد تضرع حور مكان الصادر بين غيره من الآلهة في عصر الاسرة الاولى ، ثم سرعان ما بدأت عبادة حور تنتشر في الصعيد في الاقليم الثانى والثالث والثانى عشر والسابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين ، وعبد في الدلتا في الاقليم الثانى والخامس والسادس عشر والسابع عشر والتاسع عشر والعشرين (١) •

هذا وقد قام جندل طويل حول الموطن الاصلى للاله حور ، فيذهب البعض ، اعتمادا على المصادر المتأخرة ، الى أن الموطن الاصلى لحور انما كان في الدلتا ، وليس في الصعيد ، وأن عبادته قد أنتشرت في الصعيد بعد انتصار الدلتا على الجنوب ، وقيام الاتحاد الاول في الربع الاخير من الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن هذا الاتحاد لم يعد فرضا من الفروض ، كما كان الامر من قبل ، وانما أصبح حقيقة مقررة بعد دراسة حجر بالرمو ، وغيره من آثار ذلك العصر ، وأن لم يكن لدينا

1) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, Pls. XXVI, XXIX; A. Gradiner, JEA, 30, 1944, P. 24-25-39; W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 120.

معلومات مؤكدة عن عاصمة المملكة المتحدة وقت ذاك ، فقد أصبح فيها للاله حور مركز أهم من مركز الاله «ست» ، وأصبحت مدينة نخن (البصيلية) مركزا رئيسيا لعبادته في أواخر عصر ما قبل الاسرات حيث وجد أقدم رمز للاله أوزير في الصعيد على مدخل معبد حور في نخن في أخريات عصر بداية الاسرات (٢) .

على أن هناك من يعترض على وجهة النظر هذه ، ذلك لأن هناك ما يشير الى وجود تماثيل له في نقادة منذ عصر ما قبل الاسرات ، وأن عبادته كانت منتشرة في الصعيد ، في كوم أمبو وادفو والبصيلية والملا وأصفون المطاعة ، فإذا كانت عبادة حور قد أنتقلت من الدلتا الى الصعيد ، فإنه يصعب عدم فهم عدم أنشارها في أقاليم الدلتا ذاتها ، فضلا عن مصر الوسطى ، من الجيزة الى سوهاج وان عبد في جنو ، جنوب زاوية الميتين ، (جنوب شرق المنيا عبر النهر) ، هذا ويذهب «جاردرنر» الى أن أصل حور من مستنقعات الدلتا الشمالية ، مع أن الصقر طائر صحراوي ، وقد وصف في متون الاهرام تارة بكلمة «أختي» وتارة بكلمة «أبتى» والأولى معناها «أفق الشمس» ، والثانية معناها «الشرق» ، وكلا الكلمتين تشير الى المشرق .

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري — طيب الله ثراه — الى أن هناك أشارات كثيرة الى أن الموطن الاصلى لحور ، انما كان في «بونت» ، والى أن اسم «حر» (حور) غريب على اللغة المصرية القديمة ، ولكنه موجود في اللغات السامية ، وبعبارة أدق في اللغة العربية ، حيث تطلق العرب اسم «حر» على الطائر المعروف باسم Faucon Pelerin . وقد نقل الدميرو عن «ابن سيده» أن «الحر طائر صغير أنمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكين والرأس ، وقيل انه يضرب الى الخضرة وهو يصيد» ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد من البزاة والشواهين ، ومازالت كلمة «حر» تستعمل حتى الان في كثير من بلاد

2) J. E. Quibell, Op. Cit., Pl. II; W. B. Emery, Op. Cit., P. 42.

العرب وشمال افريقية لهذا الطير (٣) *

ويرى بعض الباحثين أن الاله حور ، انما جاء مع أتباع حور الذين عبروا شبه جزيرة العرب الى الشاطئ الافريقى فى أرتيريا ، ثم صاروا مخترقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات ، وأن الاله الصقر حور ، قد أختلط مع الصقور التى كانت تعبد فى مصر ، وأن ذلك الشعب لابس الريشة الذى وقد الى مصر من الشرق قادمًا من بلاد العرب فى منتصف عصر حضارة نقادة الاولى ، ثم سرعان ما أستقر هذا الشعب فى المناطق الجبلية التى تحد وادى الحمامات ، وفى الوادى نفسه ، حيث تركوا رسومهم ، ويذهب «مرسر» الى أن كلمة «حر» المصرية لم تكن فى ذلك العصر المبكر تعنى «صقر» الا اذا كانت صيغة مصرية من كلمة «حر» العربية التى تعنى «صقر» وفى هذه الحالة فان الكلمة تدل على أصل عربى للاله حور ، وعلى أى حال ، ففى كل هذه الحالات ، فان أصل حور ليس من الدلتا ، وانما من بلاد العرب أولا ثم من الصعيد ثانيا ، وان ذهب «بترى» الى أنه جاء من عيلام عن طريق الخليج العربى ، ثم أستقر فى القرن الافريقى ، ثم اتجه الى الشمال ، ودخل مصر عن طريق القصير وقفط (٤) *

وأيا ما كان الامر ، فان مصر قبل قيام الاسرة الاولى كانت خاضعة لحكومتين ، الواحدة فى الصعيد ، والاخرى فى الدلتا ، وقد أطلق القوم على ملوك هاتين المملكتين «أتباع حور» أو «أنصاف الآلهة» ، كما كان

(٣) احمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ - ١٣٦ ، محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول - التاريخ ص ٣١٥ - ٣١٧ ، كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان ٤٣٢/١ ، ٩١/٢ ، وكذا

V. Loret, B.I.F.A.O., III, 1903, P. 15-16.

A. Gardiner, Onom., II, P. 5-7, 12-1, 27-29.

4) V. Loret, Op. Cit., P. 7-1; S. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, 1942, P. 87-90,

W. F. Petrie, The Making of Egypt, London, 1939, P. 77 F, 226.

يعبد في احدى المملكتين احدى الآلهات التي كانت تحمى المملكة «نخبت ووادجيت» ، فضلا عن الاله حور ، وان ذهب «نكيس» الى أنه ليس لدينا ما يؤكد أن مصر كانت قبل «ميناء» مقسمة الى مملكتين حوريتين ، سادهما اله واحد هو «حور» صحيح أن عبادة الصقر كانت منتشرة جدا في الصعيد والدلتا ، ولكن كان لكل «صقر» شخصيته الخاصة به ، فمثلا لقد أصبحت هيئة الصقر (رمز حور) علما على أرباب مدن كثيرة في الصعيد ، مثل البصيلية وادفو ، وأرمنت وقوص وقفت والهامية وبنى حسن والعطاولة ، ولو أنه ما من بأس أن نفترض أن بعض هذه المدن انما كانت ترمز الى أربابها بهيئة الصقر فعلا منذ زمن قديم ، دون أن تربط بين هذه الهيئة ، وبين رمز الاله حور (٥) .

وأيا ما كان الامر ، فقبيل بدايه التاريخ ، قام الصعيد بتكوين اتحاد من أقاليمه كانت عاصمته نخن ، حيث كان يعبد الاله حور ، وقد تجمع حكام الاقاليم الاخرى ، وكذا الالهة المحلية الاخرى ، حول ملك نخن (البصيلية) ، وحول اله مدينته حور ، وكونوا اتحادا ، وهؤلاء الذين يمكننا أن نطلق عليهم «أتباع حور» (٦) ، وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر آخر الامر ، وأصبح الاله حور الاله الاعظم في مصر ، والهامى لحكام الصعيد المنتصرين ، ومن ثم فقد أصبح اللقب الحورى أول الالقاب الملكية الخمسية التي حملها الملوك طوال العصور الفرعونية ، وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بماله من دخلات وخرجات ، يعلوه صقر حور ، اله الاسرات لكل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت ، وكان هذا اللقب الحورى بمثابة توكيد

5) H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F; ZAS, LXIV, P. 18, W.M.F. Petrie, the making of Egypt, London, 1939, P. 77.

(٦) انظر عن «أتباع حور» (محمد بيومى مهران) : المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧ (طبعة ١٩٨٨)

A. Weill, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Pharaonique, II, Cairo, 1961, P. 279.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 422.

H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, P. 90 F.

لأسماء حامله إلى عالم الآلهة ، إلى الإله حور ، ويجعل منه وريثا لحور
يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذلك لأن حور إنما قد ورث حكم مصر
عن أبيه أوزير ، ثم ورثه للملك الفرعون * .

هذا ويشير الصقر — فيما يرى بعض الباحثين — إلى أنه الاسم
الأبدي للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون إلى أن اللقب
الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير ، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس
على عرش مصر إنما هو ابن أوزير وخليفته ، على أن فريقا ثالثا إنما
يذهب إلى أن الصقر إنما هو إله مدينة نخن ، ومن ثم فهو يشير إلى
أن الملك إنما جاء من هذا الإقليم ، أى من مدينة الصقر عاصمة الصعيد ،
وصاحبة الفضل في توحيد البلاد ، وقيام أول ملكية في التاريخ ^(٧) .

هذا وقد أطلق القوم على حور المقابا كثيرة ، لعل من أهمها : «حور
سيد السماء» أو «نجم في السماء» وقد ظهر ذلك اللقب على مشط من
عصر الأسرة الأولى ، وقد مثل فيه حور ناشرا جناحيه التي تمثل
السماء ، كما عبد محليا بأسماء مختلفة ، منها «حور المتقدم على
العينين» (حرخنتى ارتى) و «حور المنتقم لأبيه» (حرنج أئف)
و «حور موحد الارضين» (حرسما تاوى) و «حور الأفقى» (حر أختى)
و «حور فى الأفق» (حرام أخت) ، وقد عرف منذ الأسرة الأولى باسم
«حور الأفق» ، وذلك لتمثيله في قارب فوق أجنحة مثل الشمس التي
تبحر عبر السماء * .

وعبر الفن بأكثر من طريقة عن ارتباط حور بالسماء والشمس ،
فكان قرص الشمس المجنح ، كما يظهر على مشط من الأسرة الأولى ،
وعندما يصور الإله «حر أختى» فإنه يظهر كصقر أو رجل برأس صقر
متوج بقرص الشمس ، وهناك كذلك حور الذى نال شهرة بين القوم ،
بصفته الابن الذى فقد أباه أوزير ، وهو «حور ابن إيزه» حر — سا —

7) P. E. Newberry, PSBA, 26, 1904, P. 295-297; W. B. Emery, Op.
Cit., P. 106, F. Petrie, The Royal Tombs I, P. 35-36.

است) ، وان كان «فرانكفورت» يذهب الى أن الصقر حور اله السماء ،
انما هو نفسه حور ابن أوزير وايزه ، وانه لمن الخطأ أن نفصل بين
«حور الاله الكبير سيد السماء» و «حور بن ايزه» ، أو أن نفسر حقيقة
هذا التوحيد على أنه يرجع الى التوفيق بين المذاهب في العصور
المتأخرة (٨) .

وعلى أى حال ، فان حور الكبير ، المحارب في مدينة ليتوبوليس
وغيرها ، يصبح في رأى البعض أبنا للاله أتوم ، وأوجب ، وهو حين يكون
أبنا للاله جب يصبح اخا لأوزير ، وليس هناك ما يشير الى أن حور
كان ابنا للاله رع في عصور ما قبل التاريخ ، وانما كانا صديقين
يتعاونان معا كالهين في السماء والضوء ، وهما على قدم المساواة في
متون الاهرام ، ومع ذلك فقد أصبح حور ادفو ابنا لرع في النصوص
المتأخرة ، هذا وليست هناك علاقة بين حور المسمى «كنتشتاوى» معبود
أثريب وبين حور «سبدو» ، وكلاهما عبد في شرق الدلتا في المنطقة التى
كان يخرقها الطريق الموصل الى فلسطين ، وان كان هناك من يرى أن
«سوبدو» من المقاطعة العربية ، كما سماها اليونان (الاقليم العشرون
من الدلتا) ، و «خمن» من أسفينييس ، و «عانتى» من أنتيوبوليس
(قاو الكبير) كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه في نفس
صورة المباشق (٩) .

هذا وهناك كذلك «حور الطفل» (حور باخرد) وقد كتبه اليونان
«حربو كراتس» (حور بوقراط) وقد مثل على هيئة طفل عار يضع
سبابته اليمنى في فمه ، وتتدلى خصلة من الشعر على جانب رأسه ،
ويمثل واقفا أو جالسا على ركبتى أمه ايزه ، وأخيرا فهناك «حور
الادفوى» أى المنتسب الى ادفو ، وهو هنا ليس حور بن ايزه وأوزير ،
كما في الثالوث المشهور ، ولكنه كان الاله الاب والاله الابن في صورتين
مختلفتين ، وهكذا نجد «حور — حتحور ، حور موحد الارضين» .

8) H. Frankfort Kingship and the Gods. Chicago, 1948, P. 38-41.

9) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 216.

وأما معابد حور فكثيرة ، لعل أقدمها في الصعيد معبد نخن (١٠) ، وأقدمها في الدلتا في دمنهور ، وإن كان أشهرها معبد حور في أدفو ، حيث صور هناك على شكل الشمس المجنحة ، وكما يبدو واضحا ، ليس هناك أى شبه بين صورة هذا الاله ، وصورة حور الحقيقية ، فلقد صور حور أدفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذى ألوان مختلفة وصفا بأنهما الجناحان ذو الريش المختلف الألوان التى تتمكن بهما الشمس من أن تطوف السماء ، وهذه الصورة (صورة حور أدفو) نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر ، لأنها كانت تعتبره حارسا يحول دون دخول الأشرار المعبد ، وما يزال معبده قائما في أدفو ، وهو معبد لا يضارعه معبد آخر في مصر في الاحتفاظ بمظهره العام ، وطوله ١٣٧ مترا ، وارتفاع المصح ٢٦ مترا ، وإلى جانب أهميته المعمارية فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية في العصور المتأخرة ، من حيث بنيانه ، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة ، وقد استمر بناؤه قرابة القرنين ، حيث بدئ في بنائه في عهد «بطليموس الثالث» الذى وضع أساسه في ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ ق.م ، إلا أن بناءه وزخرفته لم يتما إلا في عام ٥٧ ق.م ، في عهد بطليموس الثانى عشر (١١) .

٢ - ست

يذهب العلماء الى أن الموطن الاصلى لملأه «ست» (سوتخ) انما كان في الصعيد ، ربما في «شاس حوتب» ، وهى الشطب الحالية ، على

- (١٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٧٩ ،
J. Quibell, Op. Cit., I, Pl. II. وكذا
وانظر عن المعبد والمدينة (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٥٩ - ٧٤) .
11) E. A. W. Budge, the Gods of the Egyptians, I, N. Y. 1969, P. 466-499; E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, P. 186, 214.
H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F. وكذا
وانظر : أحمد فخري : الموسوعة المصرية ٨٧/١ - ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الاول ص ٣٢٢ .

مبعدة ٦ كيلا جنوبى أسيوط ، وربما فى أهم مركز لعبادته فى الصعيد ، فى مدينة «نوبت» أو «نبت» بمعنى الذهبية ، لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على أطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية ، فى منتصف المسافة بين نقادة والبلاص ، مركز نقادة بمحافظة قنا ، وليس هناك شىء مؤكد عن الاوضاع السياسية والدينية فى نوبت خلال عهود حضارتها الاولى ، وان أعطت الاساطير معبودها «ست» (سوتخ النوبتى) شهرة واسعة ، وأعتبرته ربا للصعيد .

وتعد كان معبده يقع الى الشمال الغربى قليلا من نوبت على مرتفع من الهضبة ، وان لم يمكن ارجاع أى أثر مادى اليه بصورة مؤكدة ، ولعل السبب فى ذلك عدم الاتفاق على نوع الحيوان الذى كان يمثله ، فبينما يرى البعض أن فرس النهر كان علامة ست فى عصور ما قبل التاريخ ، يرى آخرون أنه كان كلبا أو حمارا أو غزالا ، وعلى أى حال، ففى الأزمنة المبكرة كان أتباع ست يمثلون قطاعا قويا من سكان الوادى، ويقطنون منطقة واسعة فى الصعيد ، مركزها نوبت ، وقد كانوا من القوة بحيث أصبح معبودهم ست ندا للاله حور ، بل انه حل مكانه كمعبود ملكى فى بعض فترات الاسرة الثانية ، هذا وقد عبد ست كذلك فى البهنسا بمركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، على هيئة سمكة مدببة الانف، كما كان ائها له مكانته فى الصحراء الغربية وليبيا (١٣) .

هذا وقد قام ست بأدوار كثيرة فى الاساطير المصرية ، فكان واحدا من تاسوع أون ، كان ابنا لجب ونوت ، وزوجا لتفنيس ، كما مثل الشر فى أسطورة الصراع بين حور وست (١٣) ، حيث ذكر على أنه قاتل

12) E. J. Baumgartel, the Cultures of Prehistoric Egypt, II, P. 33; W. Emery, Op. Cit., P. 121; F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas P. 1-2, 65.

(١٣) أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ٣٣/١ - ٤٢ ، وكذا J. Wilson, ANET, P. 14-18. وكذا J. Capart, 8, 1933, P. 43-255.

أوزير ، ومغتصب عرش حور ، رأى الاغريق فيه الميهم «تيفون» ،
الذى كان مثل ست الها للرعد والعواصف ، وبما أن ست كان يمثل
المعواصف فهو اذن ذلك الذى يعلو صريخه فى السماء ، وصوته هو
الرعد ، وهو الذى يهز الارض هزا ، وهو الذى يسلب القمر ، أى
عين حور ، وهو أحمر اللون ، وعيناه حمراوتان ، وما كان يصنعه من
أعمال شريرة إنما كانت أشياء حمراء ، ومن المعروف أن المصريين
المقدمى كانوا يكرهون اللون الاحمر •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه لم تكن هناك فى أول الامر ،
منافسة كبيرة بين عبادة ست وعبادة أوزير وايزة ، وكما رأينا من قبل ،
فلقد كان القوم يعتقدون أنهم جميعا ينتسبون الى أسرة واحدة ، فقد
كان ست هو الابن الثالث للاله جب ونوت ، وأنه ولد فى اليوم الثالث
من أيام النسىء ، وتزوج من أخته نفتيس ، وفيما بعد قاوم أتباع
ست أتباع حور الجنوبيين الذين وحدوا البلاد تحت قيادة مينس ،
وأنعكس ذلك فى الديانة كصراع بين القوتين ، ومن ثم فقد لطخ أتباع
أوزير شخصية ست بالسواد منذ لحظة مولده ، وادعوا أنه لم يولد فى
الموقت السليم ، ولا فى المكان الصحيح ، فلقد القى بنفسه من رحم أمه ،
وأنفجر من جنبها •

وهناك روايات أخرى عن النزاع بين ست وأوزير ، غير رواية
بلوتارك، فتذهب واحدة منها الى أن جب قد قسم مملكته بين ولديه ست
وأوزير ، على أن يأخذ الاول الصعيد ، ويأخذ الثانى الدلتا ، غير أن
ست ادعى بعد ذلك أن المملكة كلها له ، وأنكر مشاركة أخيه له فيها ،
وتذهب رواية أخرى الى أن أوزير وست قد رضيا بحكم أبيهما ، وبدأ
كل منهما يحكم نصيبه غير أن «جب» عاد فقرر أن ست حاكم سبىء ومن
ثم فقد أعطى نصيبه لاوزير ، وبينما كان أوزير يغزو البلاد الاجنبية ،

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 214-223
A. Gardiner, LES, P. 37-60.

وكذا
وكذا

تاركا امرأته ايزة تصرف الامور في مصر ، بدأت عوامل الشر تتحرك في قلب ست ، بخاصة وأنه كاله للحرب ، كان يرى أوزير يستخدم الكثير من الوسائل السليمة ، ومن ثم فقد بدأ يفكر في الانتقام من أوزير ، وانتهاز مناسبة الاحتفال بعودة أخيه المنتصر الى منف ، وطبقا لرواية بلوتارك فقد وضعه في صندوق كان في الاصل تابوتا له .

وتذهب أساطير أخرى الى أن الاغتيال كان عند «ندية» على مقربة من ابيدوس ، ثم ألقاه في النيل ، وأن جسد أوزير المقتل انما تم تقطيعه الى أربعة عشر جزءا (وربما ستة عشر) ، وان امرأته ايزه وأخته نفتيس قد عثرتا على جسد أوزير عند شواطئ ندية، بينما تذهب رواية أخرى الى أن الاغتيال كان في منف ، وان ايزه ونفتيس قد دفنتاه هناك ، بينما تذهب رواية ثالثة الى أن الجسد قد حمله تيار النهر الى بيليس في مستنقعات الدلتا ، حيث تمكنت ايزه ونفتيس من العثور عليه هناك (وقد حرفت Byblos فما بعد الى بيلوس Bybilos التي في فينيقيا) ، وان اتفقت الروايات جميعا على ان ايزة قد اتخذت لها مأوى في الدلتا لتحمل وتضع ابنها حور ، وقد حاول ست مضايقتها كثيرا ، وهذه مرة أخرى ، ليست أمرا مثيرا ، فلقد جالت ايزة تحت جناح بوتو ، والتي لم تكن الهة محلية فحسب ، وانما كانت كذلك الهة مملكة مصر السفلى .

هذا ورغم أن القوم ظلوا ينظرون الى ست كاله ، يشار اليه بلقب «(جلالة ست)» ، وهو لقب لم يمنح لغير الاله رع ، ففي خلال المعركة الشرسة التي نشبت بين ست وحور (الكبير) وريث رع ، تمكن حور من خصى ست ، كما تمكن ست ، كخنزير أسود ، من خرق عين حور الضعيفة (القمر) ، هذا وتشير الاسطورة الى أن ست انما كان يوحد أحيانا مع كسوف الشمس وخسوف القمر ، حيث كان يقوم بمهاجمتهما كل شهر ، لانهما كانا يضمن روح أوزير ، ولكن حور سرعان ما استعاد عينه ، وحكمت له محكمة الالهة بملك مصر جميعا ، وعندما أصبحت أوزير وحور متشابكة انتقل العداء الى حور بن ايزة ، وأصبح ست

هو قاتل أوزير^(١٤) ، ورغم أن محكمة الالهة قد قضت بحق حور ، الا ان رئيسها رع سرعان ما بدأ يؤيد مزاعم ست ، ذلك لان حور ، ان كان يعتبر ابنا لرع ، فقد كان ست ابنه كذلك ، كما كان رع يعتمد على ست ، كاله للحرب ، وكواحد من الالهة الهامة التي تقف على القارب الشمسى لتحمى رع من أعدائه ، وبخاصة أولئك الصاقدين عليه ، وأخطروهم الحية أبيب أو أبو فيس ، وفي أثناء محاكمة ست وحور ، تفاخر ست بشجاعته اليومية ودوره فى حماية رع ، وزعم أنه سوف يكافأ بالمملكة •

ويشير كتاب الموتى الى أن ست لم يقنع بشرف الدفاع عن رئيس الالهة ، فذكر الكثير عن شجاعته ، وأنه ذبح أبيب Abeb ثم عاد الى رع ليعان خبر انتصاره ، بل وهدد رع بأنه لن يستطيع أن يظهر أبيب من المخبأ الذى ماتت فيه ، وأن يحضر معه كل رموز قوة رع المقدسة ، وأخيرا حذره بأنه ان لم يحسن معاملته فسوف يسلط عليه رعوده وعواصفه ، وعندئذ أمر رع طاقم بحارته بأن يطردوا ست منها وعندما فعلوا ذلك ، استدعت نوت ست ، وأمر رع فجره المقدس بالظهور ، هذا وقد تضمنت هذه الاسطورة مظهر ست الالهى كقاتل للحية أبيب ، وكان هذا شيئا أساسيا لحماية رع فى رحلته اليومية ، ويقابل ذلك فى الالهية أنه قد طرد من القارب قبل أن ينتقل الى الجزء المقدس ، ولعل هذا هو السبب فى ندرة تصوير ست فى القارب الشمسى ، حيث حل مكانه تحوت ، وبنفس الطريقة فى احدى روايات الاسطورة أن ست قد حكم عليه بأن يحمل أوزير على أكتافه أو أن يمدده بالنسيم العليل ليحمل قاربه ، وفى رواية أخرى ، فلقد نفى ست الى السماء كتعويض

(١٤) أنظر : عن أسطورة أوزير وست (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الجزء الاول ص ٢٠ - ٢٨ •

- J. Vandier, la religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 45-47. وكذا
H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41. وكذا
V. Lons, Op. Cit., P. 127-138. وكذا
J. Griffith, The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

له عن فقدته للعرش ، حيث دخل جسم الدب الأكبر ، يسمح له بعمل
الضوضاء المثيرة التي يرغب في القيام بها كاله للرياح والعواصف، وأن
كان قد فقد أكثر الأشياء شيوعا ، حتى صلته بأراضي المملكة الجنوبية،
وأصبح سلطانه مرتبطا بحدود الصحراء ، وكاله للجانب (١٥) .

وليس هناك من ريب في أن الأدلة الأثرية إنما تثبت وجود عبادة
ست منذ عصر التأسيس ، فمن بين الأعلام الموجودة على رأس مقمعة
الملك العقرب يوجد علمان يحملان حيوان الآله ست ، كما ظهر الآله
ست في عصر التأسيس في بعض ألقاب الملكات مثل لقب «تلك التي
تري حور وست» الذي عثر عليه في مقبرة الملك «جر» ، ولقب «ساق
حور وذراع ست» ، كما انتسب آخر ملكين من هذا العصر ، وهما خع
سخم وخع سخموى ، إلى الآله ست ، وهناك كثير من الاحتمال لما
يفترضه «جر دسلوف» من أن الملك «سخم ايب ان ماعت» هو في الواقع
«بر ايب سن» (١٦) ، قبل أن يتخلى عن ارتباطه بالآله حور ، ليصبح
المتعبد للآله ست ، باعتباره من أرباب الحروب ، وأن احتفظ لنفسه
بلقب «نيسو - بتي» ولقب «نبتى» أى أنه ما يزال محتفظا بانتسابه
إلى الصعيد والدلتا ، وإلى معبوديهما في نفس الوقت .

وهكذا يبدو أن هناك ألوانا من الاضطرابات الشديدة نشأت في
الأسرة الثانية ، وأن كان من المستحيل أن ننشخص طبيعتها ، لقد كان
حور يرتبط في الماضي بالدلتا ، بينما كانت عبادة ست محلية في أمبوس،
ويذهب البعض إلى أن كهنة ست شعروا أن نفوذهم القديم بدأ
يتضاءل ، بخاصة وقد بدأ الملوك ينتسبون إلى حور ، ويهتمون بالعاصمة
الشمالية منف ، وربما بدأوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون
الاهتمام بمعبوداتهم ، وهنا بدأ كهنة ست يخشون على نفوذهم القديم،

15) E. A. W. Budge, Op. Cit., II, P. 241-260; Veronical Lons, Egyptian Mythology, 1968, P. 63-66.

T. G. Allen, The Book of Dead, Chicago, 1974. وكذا

(١٦) أنظر عن «ثورة بر - ايب سن» (محمد بيومى مهران : مصر -
الجزء الثانى ص. ٤٧ - ٥٧) .

ومن ثم فقد أشعلوا نيران الثورة ضد الاتجاهات الجديدة ، مما جعل «بر أيب سن» يحذف رمز حور ، ويضع رمز ست في مكانه ، أى أنه أعلن صراحة انتسابه الى الاله ست ، وليس الى حور ، ولم تعد الامور الى وضعها الطبيعي الا في عهد آخر ملوك الاسرة الثانية « خع سخموى» (١٧) .

وتحدثنا بردية سالييه الاولى أن ملك الهكسوس أبو فيس قد اتخذ الاله «سوتخ» الها له ، ولم يحترم الها في الارض غيره ، وبنى له معبدا جميلا بجوار قصره ، وكان يقدم له الاضاحى كل صباح ، وكان موظفو الملك يحملون أكاليل الزهور ، كما يحدث تماما في معبد «حر أختي» ، وهذا يعنى أن الهكسوس عندما أرادوا اقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية ، اختاروا معبودا ذا مظهر غريب ليصبح الاله الرئيسى في المنطقة التى كانت الاساس الاول لعملياتهم ، وكان ذلك الاله هو «ست» (سوتخ) اله أفاريس ، عدو الاله الطيب أوزير وقتله، ومع ذلك ، فرغم أن ست كان في الاصل اله مصر العليا ، فان عبادته في شرق الدلتا انما ترجع الى أقدم العصور ، وبالذات الى عهد الدولة القديمة ، وربما قد بدأت هناك في مكان يقال له «سزرت» منذ أيام الاسرة الرابعة (١٨) .

وأما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة «ست» التى تكتب بالبابلية وكأنما تنطق «(سوتخ)» فكانت دون شك آسيوية في مظهرها ، أكثر منها وطنية الأصل ، وربما وجد الهكسوس في ست اله أفاريس ، صورة

17) B. Grdseloff, ASAE, XLIV, 1945, P. 295; A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 417; W. F. Petrie, the Royal Tombs, II, Pls. XXVII, 96, 129, XXII, 173-190.

18) D. B. Redford, the Hyksos Invasion, in History and Tradition, Orentalla, 39, 1970, P. 35-36; ASAE. XLIV, P. 295 F; B. Gun and A. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 40 F. J. Wilson, Op. Cit, P. 161-162, JEA, 37, 1951, P. 64-65, ZAS, 75, P. 77 F.

وأنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٥٢ - ١٥٥ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣٣ .

لواحد من معبوداتهم الاسيوية وأن مظهره ، كما حفظته جعارينهم ،
 انما يبدو بوضوح أنه آسيوى المظهر ، فهو يحمل فى ثنايا ملابسه ورداء
 رأسه تشابها مميزا للاله بعل السامى ، ومع هذا فتوحيد ه ببعل ، وكذا
 رشب أو تشوب الحيثى ، فتطور حدث فيما بعد ، ومع ذلك فهو كثير
 الشبه بالاله تشوب اله العاصفة والرعد والحرب عند الأناضوليين ،
 وخاصة الحيثيين والميتانيين ، والوثائق المكتوبة فى لغتين من عصر
 رعمسيس الثانى تؤكد هذا التشابه بين ست وتشوب ، وقد تحول ست
 عند هذه النقطة الى الاله العائلى لمغتصبى الدلتا الشرقية ، حتى أننا
 نجد لوحة فى تانيس مكرسة للاله ست المحارب المقدام ، وهناك أكثر من
 دليل على أن الهكسوس قد جاملوه أكثر من كل المعبودات المصرية ، أما
 صورة الانثى العارية التى تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس ،
 فيظن أنها تمثل الالهة عنات أو «عتر عشتارت» ، ويشير إليها فى نصوص
 متأخرة ، وكأنها زوجة للاله «ست — بعل» (١٩) .

وفى الاسرة التاسعة عشرة يظهر ست كصاحب مكانة ممتازة بصفته
 الاله المحلى لهذه الاسرة ، ومن ثم نرى الفراعين يقدرّون الاله ست ،
 حتى أن جيوش رعمسيس الثانى نظمت فى فيالق أربعة ، تحمل أسماء
 آلهة أربع : آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن
 منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ومن عين شمس والدلتا أتى فيلق
 رع ، ومن «بر رعمسيس» أتى فيلق ست ، وهكذا وضع ست فى مرتبة
 متساوية مع مرتبة هذه الالهة الثلاثة الكبرى ، بل أنه فى المدينة الكبيرة
 (بر — رعمسيس) كان هناك معبد للاله ست ، كما دخل اسمه فى
 تركيب اسمين من ملوك هذه الاسرة وهما : سيتى الاول وسيتى
 الثانى (٢٠) .

19) A. Gardiner, Op. Cit., P. 164-165, T. Save Soderbergh, J.E.A.,
 37, 1950, P. 64; W. C., Hayes, C.A.H., II, Part, I, 1970, P. 56.

20) H. Goedicke, JEA, 52, P. 72-79.

J. Wilson, ANET, P. 470.

وكذا

٣ - أوزير

كان أوزير أكثر الالهة شعبية في مصر بسبب مظهره السلمى وخلقه الرضى ونعمه الوفيرة على البشرية ، ثم ميثقه العنيفة وبعثه ، ومن ثم فلم يقدسه المصريون فحسب ، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب حوض البحر المتوسط ، وخاصة في بلاد الاغريق والرومان وهما في أوج حضارتهما ، هذا وهناك ما يشير الى أن أقدم رمز للاله أوزير انما وجد في الصعيد على مدخل معبد حور في نخن (البصيلية) من أخريات عصر بداية الاسرات ، كما أسفرت حفائر حلوان عن العثور على رمز للاله أوزير في احدى المقابر التى ترجع الى عصر الأسرة الاولى ، وكان يمثل على هيئة شجرة جذعها مستقيم وقد ربطت فروعها طبقات بعضها فوق بعض ، مما يدل على أن عبادة أوزير انما كانت قائمة في ذلك العصر .

على أن هناك من يرى أن وطن أوزير انما كان في الدلتا ، في اقليم «عنجه» ، والتي سميت فيما بعد «جدو» ، واتخذ اهلها من اوزير معبودا وأطلقوا على مدينتهم «جدو» اسم «بر - أوزير» الذى حرفه الاغريق الى «بوزيريس» ، وهى «أبو صيربنا» الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوبى غرب سمندود ، وهكذا حل أوزير محل المعبود «عنجتى» في بوزيريس ، وأخذ عنه بعض مظاهر شاراته كريشنتى التاج وعصا الراعى المعقوفة ، ثم انتشرت عبادته من هذه المدينة الى جميع أنحاء البلاد . وخاصة أبيدوس ، التى أصبحت المركز الرئيسى لعبادته (٢١) .

غير أن هذا الرأى الذى يذهب الى أن انتشار عبادة أوزير من «بوزيريس» الى الصعيد ، لا يستطيع أن يثبت أمام فرض عكسى يذهب الى أنها قد انتشرت من الصعيد الى الدلتا ، هذا فضلا عن أن ما قيل أن أوزير قد أخذه من «عنجتى» يمكن أن يكون من خواص الحكم أو

21) A. Moret Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris, 1926, P. 99-100.

J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 48; W. B. Emery, Op. Cit., P. 124.

شاراته ، ومن ثم فيمكن أن نفترض أن غازيا صعيديا كالمك العقرب قد أخضع جزءا من شرق الدلتا ، واكتسب لقب «عنجتى» ، أى المنتسب الى الاله عنجتى ، ولعل مما يدعم هذا الفرض ذلك الشريط الطويل المتدلى الى الخلف من رأس الاله عنجتى ، وهو من زينة الاله مين ، وكذا الاله آمون ، وهما الالهان للذان لا يشك أحد فى أصلهما الصعيدى وأخيرا فك رئيس عظيم فى عصور ما قبل التاريخ ، انما كان يعبد كأوزير .

هذا ويذهب «فرانكفورت» الى أن بعض المقاصير المقدسة لرؤساء ما قبل الاسرات ، انما قد بقيت بعد الاتحاد وقيام الاسرة الاولى ، وصارت مقاصير لأوزير — وليس للالهة المحلية — على اعتبار أن كل ملك انما كان أوزيريا ، ومن ثم فقد ارتبط أوزير بعدد من المقاصير، الامر الذى يفسر لنا ادعاء عدة مواقع فى مصر أنها كانت تمتلك جسد أوزير ، أو جزءا من هذا الجسد ، وأن قصة تقطيع ست لجسد أوزير ، لا يمكن أن تمثل الاعتقاد الأصيل ، الذى يرى حفظ الجسد كاملا ، وأن المؤلفين المتأخرين قد كتبوا هذا تحت تأثير قصة «ديونيسيوس» و «أودونيس» ثم يشير «فرانكفورت» بعد ذلك الى أن «بوزيريس» قد امتلكت واحدة من مقاصير ملك قديم وكان لها ارتباط بأوزير ، وأن أبيدوس قد امتلكت أهم أعضاء أوزير ، وهى «الرأس» التى دفنت ، طبقا للتقاليد، هناك ، وقد عرفت مقبرة الملك «جر» بمقبرة أوزير وأصبحت أبيدوس فى الدولة الوسطى المركز الرئيسى لعبادة أوزير ، ويخلص «فرانكفورت» من ذلك الى أن عبادة أوزير انما كانت من أبيدوس ، وأن الريشتين اللتين كانا يابسهما «عنجتى» انما كان أصلهما من الصعيد ، ومن ثم فقد شجبت النظرية التى تقول بأن أوزير من شرق الدلتا — من بوزيريس — وبأن الدلتا قد غزت الصعيد ، بعد أن اتحدت المملكتان تحت قيادة أوزير (٣٢) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك من يرى أن أوزير لم يكن

22) H. Frankfort, Op. Cit., P. 200 F.

في الاصل الها مصرياً ، ذلك لان هناك ما يشير الى وجود بيت أساسى لاوزير في مجاورات حدود مصر الشرقية ربما جاء اتباعه من سورية ووجدوا الهم مع معبود رعوى يقن له «عنجتى» وأستوطنوا مدينه «عنجت» في عصور ما قبل الأسرات ، وعرفت عبادتهم بعمود «جد» Djed ، وقيل أنها تمثل أربعة أعمدة يظهر كل منها وراء الآخر ، وعظام ظهر الانسان ، وربما كان أكثر احتمالاً انها تمثل شجرة الأرز السورى ، مع فروعها الموجودة عليه ، وقد أحضروه معهم من سورية ، ثم أطلقوا على مدينتهم بعد ذلك اسم «جدو» ، ثم ما لبثت المدينة أن اطلق عليها «بسر - أوزير» أو «نوزيريس» نسبة الى «أوزير» ، وأما معنى الاسم فغير مؤكد ، وأن كان يمكن تفسيره بمعنى «يخلق العرش» أو بمعنى «بؤرة أو قوة العين» ، هذا بينما يذهب آخرون الى أنه انما كان الها ليبيا ، وليس آسيويا (٢٣) .

وهناك من الروايات ما يشير الى أن نوت قد ولدت أوزير في طيبة في أول أيام النسيء الخمسة (٢٤) ، وأن أوزير قد سمع صوتاً في المعبد ينادى بانه قد ولد اليوم الاله الملكى العظيم ، سيد كل الذين يدخلون الى الخوء ، واعترف رع بأوزير وريثاً له ، وقيل أيضاً أن أوزير وايزة قد أحبا بعضهما ، وهما ما يزالان في الرحم ، وقد أثمر هذا الحب ولدهما حور الاكبر ، وأن أوزير قد نجح في اعتلاء عرش أبيه جب ، وطبقاً للأساطير المتصلة بأوزير ، فان الناس في ذلك العصر المبكر كانوا ما يزالون في بربرية يأكلون لحم البشر ، وأن أوزير قد علمهم الحضارة ، وما يجب أن يؤكل وما لا يؤكل ، وأوضح لهم كيفية زراعة الحبوب كالقمح وكروم العنب ، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الالهة ، وكتب القانون من أجلهم ، بعون من كاتبه تحوت ، الذى خلق الفنون والعلوم وأعطى الاشياء اسماءها ، وأنه قد حكم بالمنطق ، وليس بالقوة ، ثم

23) Egyptian Mythology, P. 50, O. Bates, The Nome of Osiris, JEA, II, 1915, P. 208.

(٢٤) أنظر عن أيام النسيء (محمد بيومى مهران - مصر - ج ١ ص ١٨٠) .

بدأ ينشر علمه في بقية العالم ، تاركا ايزة نائبة في تصريف الأمور في مصر ، وقد اصطحب معه في مهمته كثيرا من الموسيقيين ، فضلا عن الالهة المتوسطة ، واستطاع ، عن طريق المناقشة وأغاني الاناشيد ، أن يقنع الناس هناك باتباع وسائله ، وهكذا كتب له نجحا غير قليل في تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب ، وكذا بناء المدن ، وفي أثيوبيا علمهم كيفية تنظيم الفيضان عن طريق قنوات الري والسدود •

وفي أثناء غيابه ، قامت ايزة ، بعون من تحوت ، بإدارة المملكة ولكنها جوبهت بدسائس «ست» الذي لم يكن طامعا في العرش فحسب ، ولكنه كان مفتونا بها كذلك ، فضلا عن الرغبة في تغيير النظام المقرر ، وبعد عودة أوزير بفترة قصيرة ، قرر ست ، بعون من ملكة أثيوبيا «آسو» واثنين وسبعين متأما - ابعاد أوزير ، وذلك في اليوم السابع عشر من شهر حتحور (سبتمبر أو نوفمبر فيما بعد) من العام الثامن والعشرين من حكمه ، وسقط أوزير ضحية التآمر ، وألقى ست بجسده في النيل ، وتمكنت ايزه بعد ذلك من العثور على الجسد ، وإعادة الحياة اليه بقوة سحرها ، وبمساعدة تحوت ونفتيس وأنوبيس وحور ، لكن أوزير كان قد انتسب الى عالم الموتى ، وفضل أن تكون مملكته هناك في أرض الموتى ، تاركا مهمة الدفاع عنه في هذه الأرض لولده حور (٢٥) •

هذا وقد ربط المصريون بين أوزير (أوسيري بالقبطية) وكل التطورات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام ، وتؤثر في انتاجهم الزراعى ، فعندما يجيء الفيضان يكون أوزير هو الماء الجديد الذى يكسب الحقول خضرة ، ومع أن أوزير صار مع الماء ، بل مع ينايع الماء العظيمة ، نفسا واحدة ، فانه من الواضح ، أن وظيفة خاصة للماء هى التى أمتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا للخصب ، ومانحا

(٢٥) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ ، وكذا
Egyptian Mythology, P. 50-54.

للحياة ، هو الذى وحد به أوزير ، وهو الذى يسبغ الحياة على التربة ، ومن ثم فإن أوزير كان يتصل بالتربة اتصالاً وثيقاً ، وإذا ما جف النبات وفنى ، فإن هذا يعنى أن أوزير قد مات ، غير أن موته هذا ليس أبدياً إذا اعتقد القوم أن الحياة تعود اليه كل عام ، وبعودتها تنبت المزروعات التى يعيش عليها الحيوان والإنسان ، ومن ثم فإن الاشارات المعروفة لنا عن أوزير انما تقرنه بحياة النبات أو توحيده معها ، كما تربط متون الاهرام بين أوزير والحياة النباتية ، ويرتبط بذلك تصوير أوزير مستلقياً على الأرض وينبت القمح من جسده أو تمثل شجرة نابئة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيل الاله المصورة على هيئة مومياء فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولاً موفوراً من أرضه .

هذا فضلاً عن أن أوزير انما قد وحد فى أقدم نسخة من كتاب الموتى مع الحنطة ، اذ يقول المتوفى معبراً عن نفسه «انى أوزير ، وانى أعيش كحبة حنطة وأنمو كحبة حنطة ، وانى شعير» ، وهكذا ، ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزير بعد ذلك الها للموتى وسيدا لهم ، وكانت تلك الصفة من أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن ثم فقد أصبح فى العصور التاريخية الها للموتى ، وأما فى العصور المتأخرة فقد اعتبر الها للقمح ، لانه كان يختفى ثم يعود مرة ثانية الى الحياة ، كما مثل كذلك الشمس الغاربة والمشرقة ، هذا وقد أدت كثرة وظائف أوزير الى أن يصبح ينبوعاً لا ينضب لموضع الاساطير .

وربما كانت أسطورته صدى لاجداث طواها الدهر منذ أمد بعيد ، وربما كانت هذه الاحداث غير مرتبطة فى الاصل ، فضلاً عن انتمائها الى عصور مختلفة ، ثم ادمجت فيما بعد فى قصة أخلاقية عن الكفاح بين الخير والشر ، وتتخلص فى أن ملكاً طيباً قتله أخوه الشرير ، فأحضرت زوجه جثته ونجحت فى أن تعيد اليها الحياة ، ثم عكفت على تربية ولدها منه فى كتمان شديد ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الشباب انتصر على قاتل أبيه وجلس على عرشه ، ولا ريب فى أن ما اكسب هذه

الاسطورة تلك القوة ، انما كان بسبب الاعتقاد بأن الاستبداد والظلم ليسا هما القوتان اللتان تسودان العالم ، وانما الحق والاخلاص ، هذا فضلا عن الاعتقاد بانتصار الاله المقتول على الميت ، فقد أسترجع الحياة ، وأصبح سيدا للموتى ، بعد أن تنازل عن حقه في سيادة الاحياء لولده حور ، وهن الواضح أن القوم انما قد تمسكوا بهذه الافكار منذ أول عصورهم ، وأن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذى تبلورت حوله هذه الافكار (٢٦) .

هذا وتصف النصوص كذلك وفاء الزوجة ايزة لزوجها أوزير ، فقد أخذت تبحث عنه دونما كلل أو ملل فى كل أنحاء البلاد ، بعون من أختها نفتيس (نبت حت) ، حتى قدر لها أن تعثر عليه فى « ندية » ، ثم استعانت بكل الالهة وبكل القوى السحرية ، حتى تمكنت آخر الامر من أن تعيد اليه الحياة حينما من الدهر ، حملت فيه من زوجها حملا المهيا ، وأنجبت ولدهما حور ، الذى قدر له أن يستعيد حق أبيه وعرشه المعتصب ، ويذهب «أوتو» الى أن التفسيرات المتأخرة قد أوضحت لنا أنها قد اسدلت الستار على جسدها ، واستقبلت مولودها ، وان هذا القصور يعنى عند القوم أن الموتى انما كان فى استطاعتهم أن يهبوا الاحياء الخصوبة ، ومن ثم فان أوزير انما قد جسد الخصوبة الارضية، وحين تتجسد هذه الفكرة فى شكل اله ميت ، فان هذا يعنى منح الحياة الجديدة للابن من الاب المتوفى .

وعلى أى حال ، فلقد عكفت ايزة على تربية ولدها حور ، وعندما بلغ مبلغ الرجال ، عقد له أتباع أوزير لواء الزعامة لاستعادة نفوذهم القديم ، تحت شعار «بوتو» احدى مراكز عبادة حور ، وقد كتب له فى

(٢٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤٢ .
جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ١١ - ١١٣ ، أدولف أرماني : ديانة مصر القديمة ص ٤٨ - ٤٩ ، ٨٠ - ٨١ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الآداب والعلوم - الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٥ - ٢٧ .

ذلك نجما بعيد المدى ، وهكذا كان المصرى يرمز لكل ملك حى بأنه «لحور» ولكل ملك ميت بأنه «أوزير» ، ثم سرعان ما تصبح للعقيدة الاوزيرية علاقة وثيقة بالملك ، ومن ثم فقد اتخذ الملك زى وشارات أوزير ، وكان الهدف منه ربط فرعون بهذا الحادث الميمون ، وفى النهاية أصبح فرعون المتوفى أوزير (٢٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ما تعبر عنه الاسطورة من قيم فاضلة ، غير ما ذكرنا من قبل ، فإخلاص الزوجة لزوجها ، وبر الابن بأبيه ، والحنان وحب الوالدين الخالص من الأبنانية نحو الابناء ، ونصرة الابناء لموالديهم ، كلها أدلة على أهمية السلوك الفاضل داخل الاسرة ، باعتبارها العامل الاول فى ظهور الافكار الخلقية ، هذا فضلا عن أن الحكم الذى صدر لصالح أوزير واعتباره «ماع خرو» أى مبرا أو صادق الصوت ، واحتفال الالهة فى كل أنحاء البلاد ، وفى الجهات الاربع وفى السموات والارض بذلك ، انما يعد انتصار للحق ممثلا فى أوزير ، ويدل على معنى خلق كان له صداه فى عصر الدولة القديمة والوسطى ، أضف الى ذلك أن سلوك الانسان وأفعاله انما قد خرجت من نطاق الاسرة الضيق ، وأصبح الحكم عليه ، صوابا أو خطأ ، من المجتمع نفسه ، ذلك لأن قيم الانسان وأفكاره انما أصبحت ترتبط بحياته العملية وبسلوكه داخل المجتمع .

هذا وكان من نتائج ازدياد أهمية أوزير وأسطورته ذات المغزى الطيب ، وانتشارها التدريجى بين طبقات المجتمع المصرى ، وبخاصة الدنيا منها، أن انعكس ذلك فى الخلود ، عن طريق اسم أوزير ومحاكاته، على أساس أنه ملك مؤله ، ورث حكم مصر عن أبيه جب ، فإقام فيها العدل ، وهدى الناس الى الخير ، ونشر بينهم العدل ، ثم تعرض لغدر أخيه ست ، فمات وبعث حيا ، فظلت ذكراه فى قلوب الناس تحمل معانى

27) H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

J. Vandier, le Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 96-97. وكذا

التقديس والاحلال ، ومن ثم فقد مزج كهنة رع عودته للحياة لكى يضيفوا الى ملوكهم نفس صفات أوزير ، بغية أن يعيشوا الحياة الدائمة ، ، كما عاش أوزير *

غير أن هذا التصور الاوزيرى لم يكن مقصورا على الملوك وحدهم ، وانما تعداه الى فئات أخرى من المجتمع ، وان بدت ظواهره خفية فى البداية ، ثم سرعان ما أصبحت واضحة بعد عصر الثورة الاجتماعية التى اتجهت فيها البلاد نحو الديمقراطية ، والتى لم تكن وقفنا على الحياة الدنيا ، بل تعدتها الى الحياة الثانية ، ولهذا نجد العامة من القوم يشاركون الفرعون مصيره الأخرى ، فكما أن الفرعون سيكون أوزير فى الآخرة ، فلقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك أوزير ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرعى جسده حارس الموتى أنوبيس،وتحنو عليه ربة السماء نوت ، أم أوزير ، وتبكيه أختاه ايزة ونفتيسويقوم الى جواره ولده حور ليدفع عنه شر المعتدين ثم يقوده فى هوكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما كاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى ، ويصبح الناس متساوين فى عالم القبور (٢٨) *

وهكذا أخذ نفوذ أوزير ومصيره فى العام الآخر ينتشر بين كل طبقات المجتمع الذين اعتقدوا أن قبر أوزير الاصلى ، انما كان فى الصحراء خلف أبيدوس ، فى مكان مقبرة جر ، ومن ثم فقد أصبحت مكانا مقدسا ، بل أكثر قداسة من أى مكان آخر فى مصر ، وبالتالي فقد عملت فئات كثيرة من كل الطبقات والبلاد على أن تدفن هناك بجوار قبر أوزير ، ومن تعذر عليه ذلك جهد على أن يقيم لنفسه قبرا رمزيا أو لوحا تذكاريًا ، نقش عليه اسمه وأسماء أقاربه ، فضلا عن الدعوات

(٢٨) أحمد بدوى : فى مركب الشمس - الجزء الثانى ص ٧٠ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٢١٤ - ٢١٧ وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 122-129.

والصلوات للاله العظيم ، كما حرص بعض حكام الاقاليم ممن كتب عليهم أن يدفنوا في أقاليمهم ، أن يحمل جثمانهم الى مقر اله الموتى في أبيدوس ثم العودة ببعض الاثسياء لتودع معهم في قبورهم في مواطنهم الاصله ، ولعل السبب في ذلك أن القوم انما كانوا يعتقدون أن بعث أوزير انما تم في أبيدوس على يد تحوت ، سيد الكلم المقدس ، وايزة التي انتفعت بما زودها به تحوت من كلام ، ثم حور الذي قام بالاحتفالات الرمزية ، كما يقال أن رع قد أرسل أنوبيس ليعاون ايزة ونفتيس وتحوت وحور ، فضلا عن أن يخطط الاوصال المقطعة .

وهكذا عادت الحياة الى أوزير ، وبدأ حكمه كملك على الموتى في العالم السفلى ، وسيدا للابدية ، وكان يظن أن بعثه كان بعثا جسمانيا بفضل السحر ، كما كان يحتفل به سنويا في ابيدوس ، وهكذا أصبحت أبيدوس بعد نهاية الدولة القديمة مكانا مقدسا ، وأصبحت الرحلة اليها عند القوم رحلة حج الى مقر أوزير ، وبالتدريج حلت محل ما يسمى «بالحق القديم الذي كان يقام في أون» ، الأمر الذي يفسر لنا كذلك اللوحات الجنائزية الموجودة في «أم العقاب» ، والتي أقامها أصحابها القادمون من جميع أنحاء البلاد لزيارة قبر أوزير ، ومن هنا كان أهم ألقاب أوزير «خنثى أمنتى سيد ابجو» ، بجانب ألقابه الاخرى ، مثل ملك الالهة ووريث جب وسيد الابدية والكائن الطيب ، واله الخصب والنماء .

هذا وقد عبد أوزير في كل أنحاء البلاد في ثالوث يتكون منه ومن ايزة وحور ، وكانت مراكزه الرئيسية في «بوزيريس» (أبو صيربنا) وفي أبيدوس (ابجو) وفي «نديت» على مقربة من أبيدوس ، حيث قتل هناك أو عثرت ايزه على جسده ، وعرف هناك بصفته «أول الغربين» وهو اللقب الذي أخذه من معبود أبيدوس الاصلى «خنثى أمنتى» ويعنى ملك الموتى ، وربما كان هناك لاوزير معبد في كل بلد في مصر ، غير أن «أبيدوس» انما كانت أشهر مراكز عبادته في مصر ، ومن هنا اهتم الملوك بها منذ عصر التأسيس ، حيث اكتسبت نصيبا من القداسة

لوجود معبد «خنثى امنثى» أمام الغربيين على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وزادت قداستها بعد بداية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح أوزير ، منذ أن نسبوا اليه الملك «جر» من الاسرة الاولى ، ثم تضخمت قداستها بمرور الاجيال حتى اعتبرت فى الدولة القديمة دارا للحج والزيارة (٢٩) .

هذا وقد أثبتت الحفريات أن كثيرا من ملوك الدولة القديمة قد أسهموا فى توسيع المعبد الكبير داخل أسوار أوزير ، وقد أصدر الملك «نفر كارع» من الاسرة الخامسة مرسوما يعفى كهنة هذا المكان من الاعمال التى يقوم بها غيرهم ، كما أضاف الكثير من ملوك الاسرة السادسة ، من أمثال بى الاول ومرى ان رع وببى الثانى ، كثيرا من المباني والتحسينات للمباني القائمة ، وهناك من عصر الثورة الاجتماعية ما يشير الى قداسة أبيدوس ، حيث يحدثنا الملك اهناسى عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة واهناسيا على الارض المقدسة فى ابجو ، ويحاول أن يبرر موقفه بأن انتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه وأنه لم يعلم بها الا بعد وقوعها ، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الالهة (٣٠) .

وفى الاسرة الثانية عشرة يقوم ملوكها بواجبهم نحو المدينة المقدسة، فمن عهد سنوسرت الاول يحدثنا وزيره «منتوحتب» بقوله : « لقد قمت بأعمال فى المعبد ، فبنيت بيته وحفرت البركة المقدسة وأقمت البئر ، بأمر جلالة حور» ، كما ذكر كذلك أنه بنى مركبا مقدسا لاوزير، وأمده ومعبده بكل وأفضل ما يقدم لاله فى مواكبه ويحدثنا موظف

(٢٩) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٨١ ، فرانسو دوما : المرجع السابق ص ٥٩ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٧٦ - ٧٧ ، وكذا

C. De. Buck, Coffin Texts, I, P. 225.

30) J. Wilson, The Instruction of King Meri-Ka-Re, ANET, 1966, P. 414.

يدعى «خننتى أم ستى» أرسل فى عهد أمنمحات الثانى للتفتيش على معابد البلاد بقوله «لقد رسوت فى ابجو ، وأثبت اسمى فى المكان الذى وجدت فيه الاله أوزير ، أول سكان الغرب ، وسيد الابدية وحاكم الغرب ، الذى يهرع اليه الجميع طمعا فى نفعه ، حتى أكل خبزه ، وانطلق خارجا أثناء النهار» ، هذا وقد أقام سنوسرت الثالث معبدا فى أبيدوس مقر أوزير ، كما اهتم بهذه المدينة المقدسة ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها وتنظيم أعيادها ، كما عثر له على تماثيل بين أطلالها ، ومعبد جنزى صغير ، هذا فضلا عن قبر له هناك ، لا يدرى الاثريون ، ان كان قبرا أصليا أو رمزيا ، وهو الأرجح ، وجد منهوبا تماما ، كما استغلت الطبقة الوسطى فى عهده ثرواتها فى إقامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة ، أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس (٣١) .

وهناك من الاسرة الثالثة عشرة ما يشير الى أن الملك «نفرت حوتب الاول» انما يصور على أثر له من أبيدوس ، وهو يستشير حاشيته منبئًا اياهم أنه يود أن يصوغ مثالا للاله أوزير وتأسوعه فى أشكالهم الحقيقية ، ثم يقوم بزيارة لمكتبة الاله أتوم فى أون ، لكى يفتش فى الكتب القديمة بحثا عن ضالته ، وبعد أن يتم لفرعون ما أراد يرسل موظفا الى ابجو لكى يقوم بعمل الترتيبات كى يظهر أوزير فى الموكب فى قاربه المقدس ، ثم يصل الملك بشخصه ويشرف بنفسه على صناعة الصور ، ويسهم فى الابادة التقليدية لاعداء الاله ، وأما بقية النص فخصص للملك الذى يتسم بالتقوى للمعبود ، ولتهديد من تسول له نفسه مستقبلا أن يحول دون تذكر مثل هذا الملك الخير العظيم .

(٣١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٣٦٦ ، وكذا
W. M. F. Petrie, Abydos, II, London, 1903, Pl. XVII.
W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953.
J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

هذا وقد ترك فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ما يشير الى اهتمامهم بمعبد أوزير في أبيدوس ، فقام تحوتمس الثالث بترميمه ، كما أوقف تحوتمس الرابع أرضين واسعة على المعبد وخصص لمذبحه دخلا ثابتا من ذبائح الحيوان والطيور ، على أن أبيدوس انما بلغت الذروة في القوة والثراء على أيام الاسرة التاسعة عشرة فلقد عمل رعمسيس الاول وسيتي الاول ورعمسيس الثانى على اعلاء شأن أوزير في معبده العظيم ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت اسطورة أوزير شائعة تماما كأحد مظاهر الديانة المصرية ، وأصبح هذا المظهر هو الذى يروق للعالم بوجه عام على أنه الشئ المميز في المجموع العام في العقيدة المصرية، وأصبح «(وب واوات)» و «خنتي امنتيو» و «(ون نفر)» ، وجميع آلهة الموتى والعالم الاخر الاخرى موحدة في أوزير ، أو من اتباعه المتواضعين ، ومنذ هذا الوقت وحتى نهاية الدين المصرى كعقيدة حية، كانت سيادة أوزير لا مجال للتساؤل فيها لدرجة أن أصبح من المعتاد أن يعرف به كل ميت ، وأصبح الحديث عن أوزير (فلان) ، كما نتحدث اليوم عن المرحوم (فلان) .

وهكذا فان الملك سيتى الاول عندما أراد أن يكسب شعبية بين المصريين فانه قد شيد معبد للاله أوزير ، ينافس في فخامته أعظم هياكل ومصليات المدن الكبرى في مصر ، ذلك أن أبيدوس رغم أنها المقر المشهور لأوزير ، وأنها ظلت المركز المفضل للنشاط المعمارى عند الفراعين ، فلم يحدث أن واحدا من أسلاف سيتى الاول استطاع أن يمجّد المنطقة بالقدر الذى فعله هذا الفرعون ، وذلك عندما أقام معبده المعروف باسم «(بيت من ماعت رع)» ، وقد دفعه حبه لأوزير الى أن يصدر مرسوم نورى المشهور لحماية مخصصات أوزير في أبيدوس ، والحفاظ على ممتلكات المعبد ، وعدم التدخل في شئونه ، ونصرة العاملين فيه ضد أى حيف يتعرضون له ، وأن كل العاملين فيه مصانون ومحميون مثل الاوز على شاطئ النهر ، وأن كل أعمالهم مكرسة لروح أوزير في الاقليم العظيم الذى يحبه (أى في أبيدوس) وأن خطأ لن يرتكب ضدهم ، وأنهم سوف يثبتون في ممتلكاتهم ابنا بعد ابن حتى

حدود فترة الابدية ، وأن كل من يتعرض لهم سوف يعاقب بشدة ، وأن
الفراعين الذين سوف لا يعملون بما جاء في هذا المرسوم سوف يكونون
مسؤولين عن ذلك أمام الالهة ، الذين سوف يشتعلون غضبا ، كشعلة
نار ، وسوف يحرقون جسد أولئك الذين لا يستمعون الى كلماتى هذه .

وليس من شك في أن الغرض من هذا المرسوم — بجانب اظهار
تقوى سيتى الاول وتكريمه لأوزير — أن اسم الفرعون «سيتى»
(بمعنى المنتسب الى الاله ست) انما يشير الى ولاء للاله ست قاتل
أوزير ، ومن ثم فقد أراد فرعون أن يترضى أوزير ، أو بمعنى أصح
كهنته القوية ومن ثم فرغم كثرة ما أنفق على هذا الاثر ، فان
المعماريين لم يعنوا بتخصيص مكان للاله ست بين شاغليه المقدسين ،
بل انهم خلال كتابتهم للقب الحاكم فقد استخدموا صورة أوزير في
مكان الصورة الحيوانية لخصمه اللدود ست ، ومع ذلك لم يسمح
لأوزير أن يعبد هنا بنوع خاص على حساب ست ، ذلك أن المعبد انما
كان يعتبر مصلى وطنيا ، فقد أقيمت الى جانب أوزير مصليات لزوجته
ايزه ولابنه حور ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يكونون ثالوث أبيدوس
المقديم ، ولكن كان هناك كذلك مصليات أخرى من نفس الحجم بنفس
الاهمية كرست لآمون اله طيبة ولبتاح اله منف ثم لرع حر أختى اله
هليوبوليس ، ولم يكن سيتى الاول بالرجل الذى يفصل ما بينه وبين
هذه الصحبة الفخمة ، ومن ثم فقد أمر أن يكرس لعبادته الهيكل
السابع في أقصى الجنوب .

وعلى أى حال ، فان سيتى الاول توفي قبل أن يتم بناء المعبد فأتته
رعمسيس الثانى ليكمل لابيه حياة مبررة في الآخرة ، ولكى يحظى هو
برضاء الالهة ، والمعبد حقيقة أحد مفاخر العمارة المصرية ، ويعد أعظم
ما أخرجه الفنان المصرى في ذلك العهد ، ويمتاز عن غيره من دور
العبادة المصرية بتصميمه الفريد في نوعه ، اذ صمم على هيئة حرف
(٦) الرومانى مقلوبا ، هذا وقد أقام رعمسيس الثانى كذلك معبدا في

أبيدوس يقف على قدم المساواة مع معبد أبيه ، ولكنه الآن مخرباً (٣٢) .

٤ - رع

يمثل الاله رع الشمس في قوتها ، ويعنى اسمه ببساطة «الشمس» ، وقد وحد منذ وقت مبكر جدا مع أتوم ، الاله الخالق في أون ، مركز عبادة رع الرئيسي منذ أقدم العصور وحتى ظهور المسيحية ، ومن ثم فقد روت الاساطير أحيانا أن أتوم انما قد خلق رع ، وان كان في الغالب ، أن رع انما قد بزغ من نون بارادته وحده ، وأن هناك اعتقادا أنه قد نشأ من المياه الازلية المحاطة بأوراق زهرة اللوتس التي طوقته أكثر من مرة عندما كان يعود إليها كل مساء ، أو أنه قد نشأ في شكل طائر الفينكس (العنقاء Phoenix) ، طائر البنو ، وأضاء على القمة الهرمية للمسلة ، حجر ال «بن بن» ، الذي يمثل أشعة الشمس ، وأن أكثر الأشياء قدسية في معبد رع في أون انما هو حجر «بن بن» (Benben) الذي تعكس أسطحه المذهبة أشعة الشمس في الصباح ، وأن موقع المعبد انما هو التل الاصلى نفسه ، وأن بيت ال «بن بن» انما كان في وسطه ، هذا وقد قيل أحيانا أن رع انما قد اتخذ له زوجة هي «رعت» (رعة Rat) أو (Ius-as) أو (Urt-Hikiu) (عظيمة السحر) ، وأحيانا تحتور (وهي ابنته في أحيان أخرى) *

وطبقا لنظرية الكهنوت الهليوبوليتانى (٣٣) كان رع هو الاله المبدئى

(٣٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى رعمسيس الثالث ص ٦٦ - ٧٠ ، مصر - الكتاب الثالث - التاريخ ص ٢٧٢ - ٢٧٤ (ط. ١٩٨٨) جيمس بيكى الاثار المصرية فى وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٥٧ - ١٨٥ .

F. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-202; E. A. Budge, Op. Cit., P. 113-194; Egyptian mythology, P. 50-58; A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 250-251; J. Spiegel, Die Welt des Orients, II, 1959, P. 397-403.

E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, 1962, P. 315.

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 350, A. Gradiner, JEA, 38, 1947, P. 32.

J. H. Breasted, ARE, P. 84-85, W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

(٣٣) أنظر عن نظرية الكهنوت الهليوبوليتانى (نظرية عين شمس)

أعلاه ص ٣٠٣ - ٣٠٩ .

أتوم ، وقد أوجد نفسه من نفسه ، أو أن ذلك تم عندما خلق من نفسه أول زوجين مقدسين ، هما شو وتفنوت ، وقد أنجبا بدورهما جب ونوت اللذين أنجبا أوزير وايزه وست ونفتيس ، وان قيه كذلك أن رع نفسه انما هو ابن جب ونوت في صورة بقرة ، وان كان يولد كل صباح كعجل ثم يكبر حتى يصبح ثورا في وسط النهار عندما يقوم باخصاب أمه ، مثل كان منفيس (ثور أمه) ، ثم يموت في المساء ليولد في صباح اليوم التالي ، بل ان القوم انما اعتقدوا كذلك أنه خرج من بيضة شكلها بتاح من صلصال ، أو أن جب قد خلقه في صورة أوزير ، هذا وقد مثل رع أحيانا كقرص بسيط يولد على قارب ، وان صور غالبا على هيئة رجل برأس صقر ، وذلك بسبب توحيده مع حور ، وقد توج الرأس بقرص الشمس التي طوقت بالحياة التي تنثر النيران على أعداء رع ، وكان الاله في هذه الهيئة يعرف على أنه «رع حور أختي» ، حاملا علامة «عنخ» (الحياة) و «واس» (الصولجان) ، وكانت الاولى في يده اليمنى ، والاخرى في يده اليسرى ، ومثل كذلك كطفل في زهرة اللوتس ، مثل طائر البنو ، الذي يشرق عند الفجر من حجر بنين ، ولكنه لم يصور على شكل تمثال الا في حالته كأمون رع ، هذا وقد ارتبط رع ارتباطا وثيقا بالملوك فقد كان الهمم الحامى ، وقد اعتقد الفرعون أنه حور بن رع ، وأنه سوف يصبح رع بعد موته ، وفي أول الامر ، كان الفرعون وحده هو الذى يسمح له بعبادة رع ، ولكنه أصبح بعد ذلك الها للدولة أكثر منه الها للفرعون ، وأصبح الفرعون حور بن أوزير ، أكثر منه حورس الشمس (٣٤) .

هذا وقد عرفت مصر عبادة الشمس منذ الازل ، وكان للشمس مظاهر متعددة ، كان كل منها الها مستقلا ، وأحد مظاهر اله الشمس نفسه ، وأصبح رع اله أون هو اله الشمس ، الذى غطى على ما عداه ، فاستحوذ على السلطة فى أون من أتوم ، الاله الخالق ، الذى وحد نفسه مع الاله الجديد ، وصار يسمى «رع أتوم» وجمع رع بينه وبين

34) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 322-335 Egyptian mythology, P. 40-41.

بعض مظاهر الشمس ، مثل اله الافق «رع حر أختي» ، وضمو اسم رع بصفته الاله الاعظم الى بعض الالهة الهامة فصارت أسماؤها «رع حر أختي» أو «سوبك رع» أو «خنوم رع» وهكذا ، ومنذ الاسرة الثانية عشرة مزج الاله آمون بالاله رع ، تحت اسم «آمون رع» بغية أن يكتسب آمون صفا ترفع ونفوذه القوى بين الناس ، حتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، ومع ذلك فقد ظل كل من آمون ورع اله مستقل ، أحدهما للهواء ، والاخر للشمس ، بالرغم من أنهما قد اتحدا تحت اسم «آمون رع» ، الذي أصبح الاله الاعظم للامة ، ولم تسمح ثروة آمون رع أو نفوذه السياسى ، أو أنه أصبح ملك الالهة بأن يضم الى معبده فى الكرنك ، معبد اله الشمس فى هليوبوليس ، هذا وقد كان رع ، فيما يعتقد القوم ، أعظم الالهة طرا وسيدهم ، بل هو أبو الالهة ، فضلا عن الجنس البشرى ، وكل الكائنات الحية ، وكان مركز رع فى مدينة أون (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) ، والتي ربما كان اسمها يدل على ارتباط بعبادة رع ، فقد كان اسمها فى المصرية «ايونو» بمعنى العمود ، وكان قومها هم «الايونيتو» أصحاب العمود ، وهو فى الميروغليفيه المصرية عبارة عن عمود على صورة المسلة تقريبا ، وقد استعملت نفس الكلمة لقمة الهرم أو للهرم كله حين اتخذ نفس الشكل ، وكما أشرنا من قبل ، فقد كانت القمة الهرمية تدعى «بنبن» (بن بن) وقد صارت أكثر رموز رع قداسة ، ربما لان أسطحها المذهبة تستطيع أن تتلقى وتشتع أشعة الشمس وتعكسها ، ومن ثم فقد كانت ال «بنبن» وليست المسلة كلها أو الهرم كله ، هو ما كان مقدسا لرع ورمزه الاكبر ، ومن ثم فقد أقام القوم للاله رع معبدا ذا طابع خاص . لم يكن به صورة لهذا الاله ، وانما حوى قطعة مقدسة من حجر دعيت بنبن كانت توضع فى فناء مكشوف ، واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر ، ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختلفت جميعها ، وان كنا نستطيع أن نتصورها اذا ما قارناها بمعابد

الشمس التي شيدها ملوك الاسرة الخامسة على نمطها (٣٥) .

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى أن عبادة الشمس قد وجدت في عصر التأسيس (الاسرتان الاولى والثانية) دون شك ، وقد انتسب الملك «رع نب» من الاسرة الثانية الى الاله رع ، كما حمل ملك آخر اسم «ونج» وهو اسم اله قديم ذكرته نصوص الاله-رام على أنه «ابن رع» ، هذا فضلا عن ارتباط رمز الاله رع ، والمصور على هيئة قرص الشمس ، مع حيوان الاله ست المصور فوق اسم الملك «بر ايي سن» كما أن المراكب الجنائزية الملحقة ببعض مقابر سقارة وحلوان انما تدل على أن الميت ، فيما يعتقد القوم ، يجب أن يلحق بصحبة الالهة في رحلتها عبر السماء ، وأن هذا الاعتقاد انما كان مقبولا منذ بداية الاسرة الاولى ، هذا وينسب الاثريون الى الملك زوسر بناء معبد صغير في مدينة أون ، صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس (٣٦) .

وفي الاسرة الخامسة نرى أنصارها يرجعون حقها في عرش الفراعين الى ارادة ربانية قديمة ، والى أصل مقدس ، فيخرجون على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء لاله رع من صلبه ، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، كما أصبح لقب «ابن رع» (سارع) من ألقاب ملوك مصر الرسمية حتى نهاية العصور الفرعونية ، ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل أنه كان تصريحاً من الملك الفرعون ببنوته لاله رع ، تلك البنوة التي أعلنها الفراعين منذ الاسرة الرابعة بصفة متقطعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع قد دخل في ألقاب الملوك كما أشرنا آنفاً ، منذ الاسرة الثانية ، مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبي .

(٣٥) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣١ ، وكذا

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 209.

36) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, Boston, 1946, Fig. 48-53.

وهكذا كانت الاسرة الخامسة بالذات بداية تأكيد بنوة الملك للاله في ذلك اللقب الرسمي (سارع)، والذي كان يسبق اسم الملك الشخصي الذى أطلق عليه عند ولادته ، للتأكيد الواضح أن الملك ولد حقيقى للاله رع ، وبذا يصبح صاحب حق شرعى فى حكم مصر ، وكان من المنتظر أن يزيد ذلك فى قدسية ملوك الاسرة الخامسة ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، ولعل السبب أن هذه الاسرة انما قامت أصلا بدافع من كهانة رع فى عين شمس ونفوذها ، ومن هنا كان ملوكها يدينون بالولاء للاله رع نفسه ، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة ، ثم لكهنته الذين ساندوهم وعضدوهم فى حكمهم ، وقد كان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ، ونجاح رع فى تحدى السلطة الفعلية المطلقة التى كان يتمتع بها الثراعين⁽³⁷⁾ .

ولقد أدرك ملوك الاسرة الخامسة منذ أول أمرهم ، أن أول واجب عليهم هو اقامة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس بجانب مقر اقامتهم ، وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، وقد كشف (بورخاردت) فيما بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١م ، فى منطقة أبو غراب ، شمالي أبو صير عن معبد كبير للشمس ، يفترض عقلا أنه صورة من معبد «رع أتوم» فى هليوبوليس ، والمنظر الخارجى العام يشبه منظر المجموعة الهرمية العادية ، وله مبنى كمداخل عند الوادى ، ثم ممر صاعد ، يؤدى الى مستوى أعلى ، وعند القمة ما يمثل الهرم ومعبد الجنازى ، وأما الفارق الرئيسى ، ففى استبدال هذين الاخيرين بمسلة مقامة فوق قاعدة مربعة ، مثل الهرم المبتور القمة ، وتذكرنا المسلة بالحجر القديم جدا فى هليوبوليس ، والمشار اليه من قبل ، ويعرف باسم «بن بن» ، وربما كان اشتقاقه من «الواحد المشع» والذي كان يرمز ، دون شك ، الى شعاع أو أشعة الشمس ، ومن المعروف أن ستة من ملوك الاسرة الخامسة قاموا ببناء معابد للشمس من هذا

37) J. Wilson, Op. Cit., P. 120, I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, P. 13-54.

النوع ، ولكل منها اسمه،مثل «امتعة رع» و «أفق رع» و «حقل رع»، وقد أمكن تحديد مكان اثنين منهما فقط ، الواحد ينسب الى «وسر كاف»، والاخر قام ببنائه «نى وسر رع» .

وكان اله الشمس يعبد هنا تحت قبة السماء ، وتوجد عند قاعدة المسلة ، شرفة فى وسطها مذبح كبير من المرمر ، والى شمال المذبح مساحة شاسعة كانت تقاد اليها الثيران حيث تذبح ، وهناك الى شمال هذه الساحة صف من المخازن ، وأما المرتفع الذى تقوم فوقه المسلة فكان يوصل اليه ممر طويل مغطى ، تزينه مناظر منحوتة ومنقوشة بصورة رائعة ، بعضها تمثل فصول السفنة بنباتها وحيواناتها التى خلقها اله الشمس ، بينما تصف الاخرى «عيد سد» الذى كان تجديدا دوريا للملكية ، حيث كان يجتمع آلهة نصفى الدولة ليمجدوا الملك ، ولا بد أنها كانت لحظة مثيرة للعواطف ، حين كان يبرز الكهنة فى خلال الاحتفالات من الممر المظلم نسبيا الى ضوء الشمس الساطع الذى ينشره الهمم فى الخارج^(٣٨) .

٥ - بتاح

ليس هناك من الادلة ما يشير الى أن الاله «بتاح» كان واحدا من أقدم آلهة مصر ، ومع ذلك فإن صلته بأوزير بعد موته وبعثه فى أبيدوس تشير الى أنه أقدم هناك منه فى منف التى أصبح الاله الرئيسى فيها ، هذا وقد نسب القوم مدينتهم منف هذه الى معبودها بتاح ، وكان من أوائل الالهة التى ظهرت فى هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الاسرات ، وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، كما ظلت عقيدته ، وخاصة بين الطبقات المثقفة ، قوية ، اذ كانت تسودها الروحانية ، بخلاف العقائد الاخرى التى سادتها المادية ، وربما كان

38) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 85-86.

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة ص ٣٨ ، مصر - الجزء الثانى ص ١٥٦ - ١٦٣ .

أصل هذا الاله رجالا عبقريا ، طسواه النسيان لزمن بعيد ، ذلك لانه بخلاف مجموعة الالهة المصرية لم يأخذ صورة حيوان ، ولم تكن له صلة بواحد من هذه الحيوانات ، وقد مثل في شكل رجل في لفائف مومياء ، لا يغطى رأسه سوى قلنسوة ضيقة ملاصقة لعظام الرأس ، ويلتف برداء يصل الى القدمين ، ولا تبرز منه سوى اليدين ، يقبض بها على رمزى «جد» (الدوام) و «واس» (الصولجان) ، ويزين رقبتة بقلادة عريضة تغطى كتفيه وجزءا من صدره .

وقد رفعه كهان منف الى مرتبة الاله الخالق ، وقالوا عنه ، فيما تروى نظرية الخلق المنفية ، والتي ربما ترجع الى أوائل عهد الدولة القديمة وربما الى بداية العصور التاريخية ، أنه كان قبل كل شيء وأنه خلق العالم ، على أساس أنه القلب (أى الفكرة) فى كل شيء ، وأنه اللسان (أى الكلم) فى كل فم ، يوحى القلب بالفكرة الى اللسان ، فاذا نطق اللسان ، كان هذا النطق هو الخلق ، بمعنى أن كل الاشياء تاتى الى الوجود ، وتؤدى كل الاعمال ، بعد أن يتصورها بتاح فى قلبه كفكر ، ثم يصدر بها الامر عن طريق اللسان ، فتخرج الى حيز التنفيذ عن طريق أعضاء الجسم الاخرى وهكذا كانت وسائل بتاح فى الخلق غير وسائل آلهة الخلق الاخرى ، فقد كانت روحانية أكثر منها جسدية ، مما أدى الى عدم شيوعها بين الشعب ، رغم بقاء أهمية بتاح طوال العصور الفرعونية .

هذا وقد اكتسب بتاح شهرة واسعة منذ أن أصبحت منف عاصمة البلاد ، ذلك لان تفوقها السياسى انما كان سببا فى أن يحظى معبودها بتاح بمكانة مرموقة بين الالهة المصرية بل وان يعتبر الها للارض كلها ، أسوة بالاله جب ، وأن يكون سيدا للفنون ، حاميا للفنانين ، ومن ثم فقد كان أهم لقب يعتز به كبير كهانه لقب «عظيم الفنانين» (ور — خريو حمت) ، وربما اعتبر كذلك اله القوة التى فى الارض ، الخشب والحجر وباقى المواد التى تصنع منها التماثيل ، كما كان يطلق عليه سيد العدالة ، وملك الارضين ، وخالق الفن ، ورافع السموات وخالق الالهة ، الاله

العظيم ، صاحب البداية الاولى ، أول من كان وأول اله في المخلقة ، وبذا كان بتاح بمثابة الاله الذى عاش عصورا لا حد لها ، أو كما يقول المصرى القديم ، احتفل بعدد لا يحصى من الاعياد الفضية ، ومن ثم فقد أصبح مثلا يشبه به كل ملوك مصر الذين حكموها مددا طويلة .

هذا وقد وجد الاغريق الشبه كبيرا بينه وبين معبودهم «هيفايستوس» (المثال) فأطلقوا عليه هذا الاسم ، وهكذا اقترن بتاح في العصر اليونانى بالاله «هيفايستوس» وفى العصر الرومانى بالمعبود «فولكان» ، أما فى مصر فقد اقترن بتاح بسوكر الذى شارك بتاح شهرته فى منطقة منف ، وقد صور على هيئة صقر محفف ، وبشكل آدمى برأس صقر ، واعتبر. الها لسقارة ، جبانة منف ، التى سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل منف نفسها ، وكان القوم يعتقدون فى هذا المنظر. الجامع للمعبودين أنه يحمى الجبانة ومن يدفن فيها ، وفى وقت لاحق أضافوا اليهما معبودا ثالثا ، هو الاله أوزير ، فأصبح اسم المعبود. الجديد الذى يجمع قوى وخصائص المعبودات الثلاثة (بتاح - سوكر - أوزير) وقد مثلوه على هيئة رجل قمى رأسه جعران ، وأحيانا كان كصورة مومياء ملتحية تعلوها الريشتان وقرص الشمس وقرون الخروف، وكان الها جنزيا ، وفى الواقع فلقد ارتبط بتاح بكثير من الالهة ، بما فيها نون ، الماء الازلى الذى بزغ منه العالم ، وحعبى اله النيل ومصدر الخصب ، وجب اله الارض ، وتاثن اله الارض القديم والذى يمثل التل الازلى ، وثو الذى يصعد الى السماء ، وحتى أتون ، وأما ثالوثه المقدس فكان يتكون من بتاح كآب ، وسخمت كزوجة ، ونفر توم كابن ، ثم فيما بعد (بتاح - سخمت - ايمحوتب) .

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى وجود ديانة بتاح منذ عصر الاسرة الاولى ، فقد عثر فى طرخان على آنية من الالبستر عليها شكل بتاح فى مقصورته وقد كتب عليها اسمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى منف ، حيث شاد القوم معبد بتاح فى الناحية الجنوبية المفتوحة من المسور ، واعتادوا أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب «الكائن جنوبى

جداره» أو «جنوبى سوره» وربما شادوا الى الجنوب من الباب القبلى لمعبده بناية صغيرة خصصت للمعبود «حاب» الذى رمزوا له بالفحل ، وربما للفحل نفسه •

وفى عهد الاسرة السادسة والعشرين زاد بسماتيك الاول من حجم المعبد ، حيث عبد بتاح على هيئة العجل أبيس الذى بنى له سراييوم منف أو مدفن العجول المقدسة فى أقصى الغرب من منطقة سقارة الشمالية ، وكان العجل أبيس فى ذلك العصر بمثابة الرمز الحى للاله بتاح وكان يحفظ بعد موته ويدفن فى احتفال مهيب ، وتوضع معه الاوانى والمحلّى وغيرها ، ويذهب البعض الى أن عبادة الثور انما كانت قائمة منذ عهد الاسرة الاولى ، اعتمادا على تصوير ملوك هذه الاسرة على هيئة ثيران ، وأن الثور انما كان فى نظر القوم رمزا للقوة فى الحرب وفى الاخصاب ، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور حبى» (منفيس وأبيس فى تصنيف اليونان) ، حيث عبد الاول فى عين شمس ، رمزا لاله الشمس ، وعبد الثانى فى منف رمزا لبتاح ، وقد احتفظ القوم فى معبد بتاح بالعجل المقدس أبيس ، دون أن تكون هناك علاقة ما ، على الاقل فى العصور المبكرة ، بين المعبودين ، كما أن بتاح لم يصور أبدا على هيئة ثور ولم يعتقد القوم أنه تجسد فى ثور ، ولم يعتبر أبيس كروح لبتاح ، الا على أيام الدولة الحديثة ، وان كان هناك اعتقاد يجعل من أبيس ، وكذا من منفيس عجل هليوبوليس ، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل الى معبوديهما،وهو اعتقاد يرجع الى عهد الدولة الحديثة •

وعلى أى حال ، فلقد تمتع بتاح على أيام الاسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الاسرة ، من أمثال مرنبتاح الذى خلف أباه رعمسيس الثانى على عرش الكنانة ، على تولى منصب الكاهن الاكبر للعجل حبى (أبيس) ومن قبل كان أخوه «خع ام واس» كاهنه الاكبر كذلك ، هذا فضلا عن مرنبتاح نفسه (محبوب بتاح) انما كان ينتسب الى الاله بتاح ، كما كرس له محراب

في معبد أوزير الذي بناه سيتي الاول في أبيدوس ، وحمل فيلق من جيش رع مسيس الثاني اسم بتاح (بجانب فيالق آمون ورع وست) وهو الفيلق الذي جاء من منف ومصر الوسطى (٣٩) .

٦ - آمون

لعل أول الأدلة الاثرية التي ورد فيها اسم الاله آمون ، انما هي عدة فقرات من نصوص الاهرام من عهد الدولة القديمة ، ويذهب «دوما» الى أن آمون انما قد ذكر ، للمرة الاولى ، على أثر من طيبة يرجع الى أيام «ببى الاول» من الاسرة السادسة ، وكان سيد طيبة وقت ذاك ، ومع ذلك ، فالاسلم أن نعتبه في عهد الدولة القديمة لها مغمورا لقرية صغيرة في الصعيد ، ولم يكن هناك ما يشير الى أنه سوف يكسب ما ناله من شهرة فيما بعد ، كما أن جاره الاله «مونتو» معبود أرمنت كان أشهر منه ، ويذهب البعض الى أنه ظل كذلك حتى عهد الاسرة الحادية عشرة حيث أصبح معبود الاقليم ، كما أصبح معبودا للاسرة الحاكمة .

على أن هناك من يرى أن الاله آمون هذا ، انما يمثل الاله «مين» ، وأنه قد تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، وقد ذكر على أثر صغير يشبه «الزر» منذ أيام الاسرة السادسة ، كما ذكر كذلك في الاسرة الثامنة على «الزر» و «جعل» ، هذا فضلا عن أن الاله مين انما كان قد صور في طيبة على هيئة آمون ، عندما عين «ايدى بن شماى» أمير مدينة قفط ، حاكما على المنطقة ما بين «هو» بمركز نجع حمادى ، واليفانتين (جزيرة

(٣٩) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية ص ٢١١ - ٢١٣ ، فرانسو دوما : الالهة مصر ص ٨٦ - ٩١ وكذا E. A. Budge, Op. Cit., P. 500-504; Egyptian Mythology, P. 105-106; W. Emery, Op. Cit., P. 122-124; H. Kees, Das alte Agypten, P. 88; T. Frankfort, Op. Cit., P. 10; I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 52-53; H. Frankfort, Ancient Egyptian Religion, N. Y. 1961, P. 24.

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن الموطن الاصلى للاله آمون انما كان في مدينة الاشمونين ، وأن ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة ، هم الذين أتوا به الى طيبة ، ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الالهة المصرية غير أننا لا نملك ، فيما يرى البعض ، دليلا على وجود آمون في خمنو (الاشمونين) الا على أيام الاسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين ، بينما هناك ما يؤيد وجوده في الحادية عشرة في طيبة ، حيث يرد اسمه على أثرين من عهد هذه الاسرة ، أحدهما من القرنة ، والآخر من وادي الحمامات ، وعلى أى حال ، فلقد تمكن آمون من أن يتبوأ مكانة ممتازة في الدولة ، عندما نجح أمهات الاول (آمون في المقدمة) من تأسيس الاسرة الثانية عشرة ، بعد أن كان الها يكاد يكون مجهولا ، أو على الأقل لم يكن له نفوذ سياسى في مصر ، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر ، الاله الرسمي للدولة (٤١) *

هذا وقد مزج الاله آمون والاله رع تحت اسم «آمون رع» منذ بداية الاسرة الثانية عشرة ، بغية أن يكتسب آمون صفات رع ونفوذه القوى بين الناس ، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، وإذا كان من المعسير على الناس تفهم معنى الخفاء والغموض التى يقدمها اسمه ، وللم يكن المزج بالاله رع ، فيما يرى «هنرى فرانكفورت» ، يرجع الى طبيعة آمون كاله للهواء ، وأن القوة الخلاقة فى الهواء ومثيلتها فى

40) F. Daumas, La Civilisation de L'Egypt Pharaonique Paris, 1965, P. 300; S. Mercer, Op. Cit., P. 100, 189; E. Driotin et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 66; W. Hayes, JEA, 32, 1946, P. 16.

(٤١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٩٣ - ٩٤ ، محمد عبد اللطيف : آمون فى الدولة الحديثة ص ١٤ .

J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 150-151.

W. F. Petrie, Qurnah, London, Pl. X, W. Edgerton, JNES, I, 1941, P. 307 F, R. A. Parker, The Calendars of Ancient Egypt, P. 69.

الشمس واحدة ، وأن رفعه الى مرتبة الاله الاعظم كان على أساس أنه لا توجد قوة في الكون تبارى مزج الشمس والهواء ، ذلك لان صفة آمون كاله للهواء لم تظهر الا متأخرا عند مزجه برع ، وذلك منذ بداية الاسرة الثانية عشرة .

وقد يقال ان الريشتين المستقيمتين العاليتين فوق رأس آمون تشير الى طبيعته كاله للهواء ، ولكن هذا الامر غير مسلم به ، اذ لم تنفرد به آلهة الهواء ، والتي تحلق في الهواء كصقور ، مثل شو وأنحور وهور ومونتو ، بل شاركهم في ذلك آلهة أخرى مثل مين وأوزير ، ولم يكن أى منها الها للهواء ، فالاله مين اله للاخصاب في المقام الاول ، وأوزير اله بعث ، وان لم تخل صفاته من الخصب أبدا ، هذا فضلا عن الاله آمون انما كان منذ عهد الاسرة الثانية عشرة يمارس وظيفة منح الفرعون الحياة عن طريق علامة الحياة (عنخ) الى أنف الفرعون ، فضلا عن تقديمه (واس) أى السعادة ، و «جد» (الثبات) ، وان كان هذا الاختصاص لم يكن مقصورا على آمون وحده ، وانما شاركه فيه آخرون ، ومن ثم فلا يكاد يخلو نص دون الإشارة فيه الى أن آمون هو الذى يمنح الفرعون الحياة والدوام والسعادة والصحة (٤٢) .

وبدأ آمون منذ حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الهكسوس (٤٣) يصبح واهب النصر والبلاد الاجنبية لابنه الفرعون ، ذلك لان القوم انما قد كتب لهم نجحا بعيد المدى في طرد الهكسوس من مصر ، وكذا مطاردتهم حتى زاهى في لبنان ، وكان ذلك كله تحت لواء آمون ، ونقرأ من هذه الفترة ، على لسان كاموزا « لقد أبجرت شمالا في عزم وقوة لأغلب الاسيويين بأمر آمون، أعدل الناصحين» (٤٤) ،

(٤٢) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٧ - ١٨ ، ١٦٦ -

١٧٤ .

H. Frankfort Ancient Egyptian Religion, P. 226.

(٤٣) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة

- القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦١ - ٢٢٣ .

44) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

ثم سرعان ما تمكنت مصر ، تحت لواء آمون ، من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، والتي امتدت من أعلى الفرات ودجلة شمالا ، وحتى النجعة جنوبى شندى ، التى تبعد عن الخرطوم بأقل من سبعين ميلا الى الشمال ، وهكذا اعتقد القوم أن الفضل في انتصاراتهم ثم في تكوين الامبراطورية الشاسعة ، انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش ، والى الاله آمون الذى بارك تلك الحروب ، وذلك عندما تعطف وأذن بالحملة الحربية وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الفرعون لى يقود الجيوش ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه راعاها وحماها من الخطر (٤٥) .

وقد أدى ذلك ، مع مرور الايام ، الى زيادة ثروة آمون زيادة كبيرة ، اذ كان كل نصر للجيش معناه زيادة في ثروة آمون ، ولا نظن أن القوم كانوا يأخذون من ربههم شيئا ، اذا ما أصابتهم هزيمة،وهكذا كانت العلاقة السائدة بين اله الامبراطورية وبين الامة ، لم تكن علاقة من يزهّد في الحصول على المغنم ، ولكنها كانت اشتراكا الهيا في أمور دولة مقدسة ، ونقرأ كثيرا في النصوص المصرية أن جزية البلاد الاجنبية وثرواتها انما هى لآمون ، وأن الاسرى الاجانب عبيد له ، يعملون في خدمة معبده ، ومن ثم فقد فاخر الفراعين باغداق الثروات على آمون حتى تضخمتم أملاكه وازدادت ثروته بدرجة عظيمة ، وبمرور الزمن تكونت في البلاد ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام الحكومة، فكان لها خزائنها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، وكانت منفصلة عن أملاك بيت الفرعون ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى تتسع هذه الاملاك بدرجة كبيرة ، فلا تقتصر على أرض الكنانة وحدها ، وانما تشمل مناطق خارج مصر ، وخاصة في النوبة التى اتسع نفوذ آمون فيها ، وأصبح ذهبها وقفا عليه .

45) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 185.

وهكذا فقد تمتع آمون بمكانة ممتازة في هذه الامبراطورية المشاسعة، وأقيمت له فيها المعابد الضخمة بأموال الجزى التى تدفقت على مصر، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك مجموعة معابد الكرنك الهامة ، ومعبد آمون في الاقصر ، وما تلقاه آمون من ولده تحوتمس الثالث من هدايا، كان منها ، على سبيل المثال ، في العام الرابع والثلاثين من الحكم ما يزيد على سبعمائة رطل من الذهب ، ومثلها في العام الثامن والثلاثين، فضلا عن ثمانمائة رطل من الذهب في العام الواحد والاربعين ، هذا فضلا عن تلك الكشوف الطويلة بأسماء الممالك والدويلات التى نقشت على معبد آمون ، والتى قال الفرعون أنه استولى عليها بفضل أبيه آمون (٤٦) .

وسرعان ما بدأ آمون يحمل صفات الاله مين ورع ، فهو مثل مين يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر، وهكذا بدأوا يقولون عن آمون ، ان الالهة تشم رائحته عندما يأتي من بونت (بلاد البخور) ، وهو غنى بالعطور حينما ينزل من بلاد المازوى، وهو حور الشرق ، الذى تجلب له الصحراء الفضة والذهب واللازورد حبا فيه ، كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المازوى ، والمر الطازج لأنفه ، وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيذا لجاره مين ، ثم بدأ آمون يصبح بعد ذلك وكأنه الاله رع ، خالق كل شيء ، والوحيد صاحب الايدي البيضاء ، هو أب الالهة الذى خلق الناس حسب ألوانهم ، وقد خرج الناس من عينييه ، والالهة من فيه ، عائل كل الكائنات الحية ، انه يسهر في الليل حين ينام الناس ، وهو كالراعى الصالح يبحث عن الافضل لقطيعه (٤٧) .

هذا وقد كان آمون في عقائده الاولى ربا للماء ، كما ادعى بعض

46) J. A. Wilson, Op. Cit., 184-185; T.G.H. James, CAH, II, Part, 2, 1973, P. 289-296; J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 205-214.
(٤٧) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٢١-١٢٢ .

أصحابه ، وربما للهواء ، كما ادعى بعض آخر ، وكان اسمه يعنى «الخفى» ، خفاء الاسم ، وخفاء الصورة ، لدى بعض أنصاره، ويعنى «الحفيظ» لدى بعض آخر ، وأضاف اليه عبدته ربوبية الاخصاب على احتمالين ، هما فطنة الكهنة لما يحمله الماء والهواء من عناصر الاخصاب، وميل العوام الى الربط بينه وبين اله آخر قديم ، عبدوه باسم «مين» وتصوروه متكفلا بربوبية الاخصاب فى كل صورة ، ومن ثم فقد صوروه على شكل الاله مين ، واقفا فى شكل مومياء ، وبالقضيب المنتصب ، والذراع المرفوعة التى يعلوها السوط ذو الثلاثة جدائل ولباس الرأس المكون من القلنسوة التى تصلوها الريشتان المستقيمتان العاليتان ، والتى يتدلى من مؤخرتها الشريط النازل الى أسفل حتى القاعدة ، التى يقف عليها الاله أو قريبا منها *

هذا فضلا عن أن القوم انما تمثلوا آمون كذلك على هيئة بشرية، كان فيها محتشما طليق الحركة ، وتتدلى إحدى ذراعيه الى جانب ، وتمسك يده بعلامة الحياة «عنخ» ، بينما تمتد ذراعه الاخرى قليلا الى الامام وتمسك بصولجان «واس» ، ويرتدى فوق رأسه لباس الرأس المميز ، والذي سبق وصفه فى الشكل الاخصابى ، ولكن يقتصر تدلى الشريط النازل من مؤخرة القلنسوة فى هذا التمثيل حتى الوسط فقط ، ويرجح أن يكون انفراج الساقين ، نتيجة الحركة الطليقة للتمثيل ، قد عاق اظهار باقيه ، ورغم أن الشكل الاخصابى هو الذى يغلب وروده فى الادلة الاثرية من معبد سنوسرت الاول فى الكرنك ، الا أنه يصعب تحديد أولوية أى من هذه الكباش المخصبة الطليق ، التى توهم أصحابها أنها آية من آيات ربهم على الارض ، هذا وتتميز كباش آمون عن غيرها بالقرون الملتوية حول الاذنين، بينما كانت قرون غيره مستعرضة، وقد سبقته الكباش الاخرى فى الظهور ، أما كبش آمون فيرجع الى عصر الهكسوس ، وأخيرا فلقد مثل آمون أيام الدولة الحديثة فى شكل الاوزة ، والتى ربما تمثل الاله نفسه أو حيوانه المقدس ، كما يتضح من الادلة الاثرية وجود بعض التمثيلات النادرة للاله نفسه فى أيام

الدولة الحديثة تأثر فيها بالاله رع ، وغيره من الالهة مثل أتوم وهور
أختى وأوزير (٤٨) .

وعلى أى حال ، فلقد بدأ أيضا أنصار آمون ينسبون اليه كل مايليق
بربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة العالمية،
وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة،
واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لتعاليم
طيبة ، التى تأثرت بمدرسة الاشمونين هو الاله الذى خلق بقية التاسوع
مع أنه أحد الالهة الثمانية فى الاصل ، وعلى ذلك فقد تخيلوه لها فى
هيئة شعبان ، أطلقوا عليه اسم «كم ان اف» أى «ذلك الذى أكمل زمانه»
أو بمعنى آخر ، هو الذى انتهى أمره ، وقد أنجب هذا الاله لها آخر
«اير — تا» أى خالق الارض ، وهذا بدوره خلق الثمانية الاخرى، التى
منها نشأت الخليقة ، ومع كل فقد كان «كم ان اف» فى نظرهم هو
«آمون» العظيم ، معبود الاقصر ، وخالق الارض ، واله التناسل .

ولما ابتغى شعراؤهم أن يمجدوه نسبوا اليه صفات الاله مونتو ،
اله الحرب القديم ، ونعوت الاله حور ، رب الدولة وجامي عرشها
القديم ، ونسبوا اليه سيطرة وهيمنة على ما امتدت اليه آفاقهم
السياسية والحضارية فى أقطار العالم القديم ، فهو «سيد بلاد المدينا
حاكم بونت ، أتوم الذى خلق البشر ، ونوع هيئاتهم وخلق ألوانهم،
جميل الوجه الذى جاء من أرض الاله فى الشرق . لك ابتهالات كل
بلاد أجنبي حتى عنان السماء ، والى آخر الارض والى أعماق البحر
الاخضر الكبير ، الواحد المنفرد ، الذى لم يكن له كفؤا أحد ، الذى
يعيش على الحق كل يوم» ، وهكذا أصبح آمون خالق ما هو كائن ،
صانع الرجال ، وأب الالهة ، وسيد الملوك ، وسيد السماء وثور أمه،
وسيد عرش الارضين فى طيبة ، وسيد الكرنك ، وأما ثالوثه فيتكون

(٤٨) عبد العزيز صالح : الوجدانية فى مصر القديمة ص ١٣-١٤ ،
محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

منه بصفته الاله الاب ، ومن موت الالهة الام ، ومن خونسو الاله الابن (٤٩) .

٧ - تحوت

كان تحوت (تحتوتى أو جحتوتى كما ينطق فى المصرية) هو المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء ، كما اعتبروه كاتباً أعلى ووزيراً ، ونائباً لمعبودهم الأكبر رع ، فهو الاله الذى يقسم الزمن الى شهور ، وهو الذى ينظمها ، أى ينظم شئون العالم ، واذا كان اله الشمس هو حاكم العالم ، فإن تحوت هو أعظم الموظفين شأنًا ، هو الوزير الذى يقف بجانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شئون الدولة ، وهو القاضى الذى يحكم فى السماء ، ويقضى فى منازعات الالهة ، ويتنبأ للالهة والبشر بما سيحدث لهم ، وهو الذى يشيد المدن ويضع حدودها ، ثم هو المعالم سيد الكتب ورب كلمات الالهة ، أى الكتابة المقدسة .

وهو الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة وعلم الكتاب والحساب الصحيح ، ولما كانت الرياضة والفلك مرتبطة عند القوم بالسحر والكهانة ، فقد كان تحوت سية السحر الكبير ، وعندما كان وزيراً لأوزير ، فقد علمه فنون الحضارة ، كما علم ايزة التعاويذ التى جعلتها جديراً بقلب «الساحرة الكبيرة» ، كما مكنتها من اعادة الحياة لأوزير ، فضلاً عن شفاء جميع الامراض التى عانى منها طفلها حور ، كما تمكن تحوت نفسه ، بعون من رع ، من طرد السم القاتل الذى وضعه ست للطفل حور ، وكاد أن يقتله ، وقد تمكن كذلك ، بصفته اله للطب ، من اعادة عين حور التى استطاع ست أن ينتزعها ، وهو فى هيئة خنزير أسود . هذا وقد عرف تحوت على أنه كاتب الالهة ومعلن قراراتهم ، ومن

(٤٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٠٧ - ٣١١ ، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ١٤ وكذا .

A. Erman, LAE, 1927, P. 283, J. Wilson, Op. Cit., P. 130-131, 211.

ثم فقد اعتبر رسول الالهة ، ولهذا فقد وحد مع «هرمس» في العصر اليونانى ونظرا لكونه كان كاتباً لرع فقد عبده الكتبة وكل المثقفين في مصر ، بما فيهم الكهنة ، واتجهوا في بعض الاحايين الى تضخيم دوره ، ومن ثم فقد ادعوا بأن الفرعون المتوفى يتحد مع رع خلال النهار، ويتحد مع تحوت (القمر) خلال الليل ، ومع ذلك ففى أثناء العهود التى ساد فيها آمون رع أصبح تحوت الها للحكمة وكاتباً ، وغدت وظيفته كاله للقمر عديمة الاهمية (٥٠) .

هذا. وقد رمز القوم الى تحوت بثلاث كائنات حسسية ، رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قرداً ، أو أن يبرز نفسه كقمر ، ثم سرعان ما خرج القوم بتأويلات عدة عن روابط تحوت بهذه الرموز ، ففسرها بعضهم على أساس التشابه الوظيفى بين تحوت رب الحساب ، وبين القمر الذى اتخذت منازلها أساساً لحساب الشهور والليالى ، ثم على أساس التشابه الوظيفى كذلك بين تحوت نائب رع وبديله ووزيره في مجمع الالهة وبين القمر نائب الشمس وبديلها في ليالى السماء ، بينما فسرها بعض آخر، على أساس التشابه المظهرى في التقوس اليسير الذى يظهر به كل من عرجون القمر أو هلاله ومنقار أبى منجل ، وريشة الكتابة التى يستخدمها تحوت رب الكتابة والميزان .

هذا وقد فسرها فريق ثالث على أساس تشابه الخصال بين تحوت رب الحكمة وما يستتبعها من الرصانة والوقار ، وبين ما يتبدى من حكمة القرد العجوز ، الفطن بين الحيوانات ، ورصانة أبى منجل بين الطيور ، حين يتهدى في تؤدة وتناقل ، ويطيل بحثه عن ديدان الارض ، وكأنه الرمز الحى للرصانة والصبر ، ويكون فيما يفعله خير للفلاح وأرضه ، وتقبلها فريق رابع ، على أساس التنويه بكرامة تحوت حين يرسل طيوره (أبو منجل) الى مشارف الدلتا في أسراب كثيرة خلال

(٥٠) ادولف ارمان : المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F.

مواسم تهب فيها العواصف عليها من الصحراء محملة بديدان وحشرات، فتتلقفها تلك الطيور ، وتتقى الناس والزرع أضرارها بأمر ربها (٥١) .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن عبادة تحوت انما نشأت أولا في الدلتا ، في الاقليم الخامس عشر ، ربما في «هرموبوليس بارفا» ، ثم وجد له موطنها جديدا بعد ذلك في الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) ، على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى ، حيث أصبحت بعد ذلك المركز الرئيسى لعبادته في مصر كلها ، هذا وقد ظهرت عبادة تحوت منذ عصور ما قبل الاسرات ، حيث صوره القوم على رؤوس المصولجانات واللوحات ، كما ظهر رمزه على هيئة طائر الابيس على بعض بطاقات الاسرة الاولى ، وان نسب اليه كهنته في الاشمونين فضل خلق العالم، بعد أن خلق نفسه بنفسه ، فهو اذن الموحد الاول والخالق الاول ، الذى خرجت منه الالهة جميعا ، وقد اعتبر كذلك الاله الصديق الوفي للالهة وبنى الانسان (٥٢) .

٨ - خنوم

كان خنوم (بمعنى الخالق) الها قديما لمنطقة الشلال الاول ، حيث ينبع النيل ، فيما يرى القوم ، عند جزيرة آبو ، من العالم السفلى أو المحيط السفلى لنون من خلال كهفيه ، ومن ثم فان خنوم هو الذى يتحكم في مصدر الرخاء في مصر ، فكان يرسل نصف المياه الى الجنوب، ونصفها الاخر الى الشمال ، وكان مركز عبادته الرئيسى في جزيرتى اليفانتين وشفيلة ، وان عبد بصفة خاصة في آبو (اليفانتين) حيث كان يمثل دور الاب في ثالوث آبو ، بينما تمثل كل من ساتت وعنقت دور

(٥١) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ٣٠٣/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٤ - ٦٧ .

52) I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. X, 2.

وأنظر عن « هرموبوليس بارفا » (محمد بيومى مهران - الحضارة المصرية - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٦ ، وكذا

J. De Rouge, Geographie Ancienne de la Basse Egypt, P. 8.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographie, II, P. 16, VI, P. 131.

الزوجة، وكان ذلك بصفة خاصة بعد سنوات المجاعة السبع التي حدثت على أيام زوسر من الأسرة الثالثة ، وأصبح يطلق عليه «أرب المياه الباردة» وأنه «نون العظيم الموجود منذ الازل ، وأنه الفيضان الذي يرتفع حيثما يشاء ، ومن ثم فقد منحه زوسر الاراضى الواقعة على ضفتى النهر ، فيما بين جزيرة سهيل جنوبى أسوان وجزيرة ضرار (المحرقة) الواقعة أمام قرته ، الى الجنوب قليلا من الدكة^(٥٣) ، كما عيّد خنوم كذلك فى كوم أمبو وادفو واسنا وطيبة ودندرة والشطب جنوبى أسيوط ، وفى أسيوط ، وفى الشيخ عبادة واهناسيا ، كما انتشرت عبادته على نطاق واسع لارتباطها بالنيل ، وأما المقاصر الرئيسية لعبادة خنوم ، فكانت فى «سنو» (أسوان) وفى جزيرة اليفانتين وبيجه ، وقد ظهر خنوم فى هذه الاماكن كرب لكل جنوب مصر ، بالاشتراك مع ايزه ربة الجنوب ، فى مقابل بتاح وتاتن ونفتيس فى الشمال .

وكان خنوم الها خالقا ، اشتق اسمه من فعل «خنم» بمعنى يخلق ، مما يشير الى أنه كان الها خالقا منذ البداية ، ولم تسبغ عليه صفة المخلوق كغيره من الالهة ، خلق نفسه من نفسه ، كما خلق الارض ورفع السموات على عمدتها الاربعة ، وخلق العالم السفلى والمياه ، وخلق الكائنات الموجودة والتي ستوجد والد الاباء ، وأم الامهات ، وخالق الالهة والبشر الذين شكلهم من المصلصال على عجلة الفخار ، سيد فيله ، والكبش المقدس لرع ، وقد شكل خنوم ، طبقا لاوامر آمون رع ، جسد حتشبسوت التى حملت بها أمها من آمون رع نفسه ، بل ان القوم انما كانوا يعتقدون أن خنوم قد شكل جسد كل طفل مولود .

وكان الكبش الافريقى حيوان خنوم المقدس ، وهو نوع من الكباش

(٥٣) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ١١٠ - ١١٢ ، وكذا

J. Wilson, ANET, P. 31-32.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, 1963, P. 132-139.

P. Barguet, la Stèle de la Famine d Sahel, le Cairo, 1953.

له قرون تمتد أفقيا ، وقد ظهر هذا النوع من الكباش منذ أقدم العصور ولكنه اختفى وحل محال الكباش الاسيوى ، الذى لا يزال فى مصر للآن، وكان خنوم يصور فى هيئة رجل له رأس كبش بقرنين أفقيين ، وأمامه دولا ب الفخار يشكل عليه الطفل قبل مولده ، كما يشكل «الكاء» الخاصة بالطفل ، أو ككبش يقف على قدميه الخلفيتين ، وقد سمي «روح رع الحية» ، وقد مثل أحيانا وله أربعة رؤوس كباش قد تشير الى أماكن عبادته الرئيسية أو تشير الى أنه اتحد مع الالهة الاربعة العظام، وهم رع وشو وجب وأوزير ، وأن الرؤوس الاربعة انما كانت ترمز الى السار والنواء والارض والماء ♦

وأما سبب اختيار الكباش رمزا لخنوم فربما كان ما لمس القوم فى الكباش من قدرة مميزة على الاخصاب ، والتي تتفق مع طبيعة منطقة أسون ، حيث تصور القوم أن النيل يأتى متدفقا من العالم السفلى الى الارض عن طريق فتحتين فى آبو ، يتحكم فيها خنوم بحيث لا تفتحان الا بأمر منه ، هذا وقد ارتبط خنوم بالنيل ، كما ارتبط أحيانا بجور الكبير ، ولهذا فقد صور برأس صقر ، كما ظهر بصفته الميا للماء، وهو يفتح يديه حتى يترك المياه تنساب منها ♦

وكانت حقت زوجته فى بداية الامر ، ثم ما لبثت ساتت أن حلت مكانها ، وتكون ثالوث اليفانتين من خنوم وعنقت وساتت التى ربما كانت زوجة ثانية له ، وربما ابنة لهما ، وعلى أى حال ، فهناك من الأدلة ما يشير الى وجود عبادة خنوم منذ الاسرة الاولى ، فلقد عثر فى أبيدوس على قطعة من الالبستر ، وقد صور عليها خنوم ، كما ظهر اسمه أكثر من ست مرات فى نصوص الاهرام من عصر الملك وناس ، وظل خنوم طوال التاريخ المصرى القديم وهو يتمتع بمكانة ممتازة بين الالهة المصرية ، فضلا عن المصريين أنفسهم ، بل استمر تقديسه عند القوم الى مدى قرنين أو ثلاثة بعد مولد المسيح ، عليه السلام⁽⁵⁴⁾ ♦

54) E. A. Budge, Op. Cit., II, P. 106-109; Egyptian Mythology. P. 49-67 F.

يذهب بعض الباحثين الى ان الموطن الاصلى لـإله مين انما هى المناطق الشاطئية فى جنوب البحر الاحمر ، أى جنوب بلاد العرب وأرتيريا ، وأنه قد حمل معه أثناء هجرته الى مصر بعض خصائص وطقوس عبادته ، فضلا عن اشارات الى أصله العربى الجنوبي . ومنها «رب بونت» ، ويذهب «جوتيه» الى ان المصريين قد اطلقوا على بلاد بونت اسم «أرض الاله» أو الأرض المقدسة ، وذلك لقدم الاله مين منها فى الزمن السحيق ، هذا فضلا عن التشابه بين اقدم معبد لـإله مين ، وهو على شكل مخروطى يشبه خلية النحل ، وبين أنواح أهل بونت المخروطية التى على شكل خلايا نحل أيضا ، والمرسومه على جدران معبد حتشبسوت فى الدير البحرى^(٥٥) .

ويذهب «جوتيه» الى أن الكوخ الذى على شكل خلية النحل انما كان أقدم شكل للمساكن فى مصر ، وأنه قد ظهر فى الرسوم المصرية فى عصر الدولة الوسطى خلف صورة الاله مين ، وقد ألحق بمعبد الاله رواق وصارى يعلوه قرنا نور وهذا المعبد يمثل الهيكل القديم لـإله مين عندما كان فى بونت ، بلاده الاصلية على شواطئ البحر الاحمر ولم يكن قد دخل مصر بعد ، وكان يسمى «سحت» ، أضف الى ذلك أن النص الذى يصف ثور الاله مين بأنه «التور الذى جاء من البلاد الاجنبية» ، وقد حفر على تماثيل مين التى ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، وتمثل ثورا ذا قرون على شكل الهالز واقفا فوق ثلاثة تلال تشبه فى شكلها علامة «خاست» التى ترمز فى الهيروغليفية الى البلاد الاجنبية التى جاء منها الاله الثور ، والثور هنا يمثل صفة الاخصاب والتناسل فى الاله مين ، وهى الصفة الاولى أو الاصلية له .

Petrie, Abydos, I, Pl. IV. 14.

وانظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٣٢ - ٣٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٥٥) انظر

E. Naville, The Temple of Deir al Bahari, III, London, 1898, Pls. 69F.

الوافدة الى مصر عن طريق البحر الاحمر ، والواقع أن النصوص انما تشير الى صلات واضحة بين الاله مين ، وبلاد بونت وأشجار البخور التي ارتبطت بهذه البلاد منذ عصر حتشبسوت ، فضلا عن أننا نلاحظ ذكر القمر مرتبطا بعبادة مين ، الى جانب اقتران الثور (حيوان التجسد للاله مين) بهذه العبادة القمرية في نص من أخميم ، وهكذا يبدو أن عبادة مين تتميز بثلاث خصائص رئيسية هي ، عبادة الاله مين كاله للقمر ، وكحام للقوافل ، واتخاذ الثور رمزا له ، وظهور قرون هذا الثور الهلالية الشكل في أقدم رسوم معبد مين^(٥٦) .

هذا ونلاحظ في الجانب الاسيوى للبحر الاحمر ، ظهور أغلب هذه الخصائص في عبادة اله القمر الاسيوى ، والذي عبد هناك تحت أسماء مختلفة ، فهو الموقاه عند السبئيين ، وهو «ود» عند المعينين ، و «سين» عند الحضارمة ، كما عبد في سيناء ، ربما باسم سين كذلك ، فضلا عن أن الحيوان الذى يرمز الى عبادة القمر ، على كل من الجانب الافريقى (منطقة وادى الحمامات ومجاوراتها في مصر) والجانب الاسيوى (خاصة في اليمن والحجاز) هو «الثور» ، حيث كان اله القمر عند الثموديين والحيانيين يسمى ثور ، بل ان الديانة العربية القديمة في جوهرها ديانة قمرية ، ربما بسبب العوامل الجغرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة ، بينما القمر دليل الحادى ورسول القافلة ، وليس عبثا أن نرى في العربية التعبير «القمران» للشمس والقمر ، ويبدو أن الصفة الاساسية التي ارتبطت بالاله مين بحكم موقع عبادته في قفط ، عند نهاية طريق وادى الحمامات ومجاوراتها ، هي صفته كحام للقوافل ورب الطرق الصحراوية ، قد قربت بين عبادته وبين عبادة القمر ، وهى نفس الصفة التي قامت على أساس عبادة آلهة

(٥٦) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ص ٢٩٧ - ٣٠٤ ، الحضارة العربية القديمة ص ٣٣٦ - ٣٤٣ .
H. Cauthier, BIFAO, II, P. 99, 142, 144, 198, 299, X. P. 106-107.

القمر على الجانب الاسيوى للبحر الاحمر (٥٧) •

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى أن الاله مين انما يعد من أقدم الالهة المصرية ، فقد عثر «بترى» على تماثيل له ترجع الى نهاية عصر حضارة جرزة ، وربما الى الاسرة الاولى ، وهى تحمل رسوما محفورة على جوانبها ، تتضمن أسماك وأصداف البحر الاحمر ، وتعتبر أقدم تماثيل لمعبود مصرى ، كما يعد الاله مين كذلك من بين الالهة القلائل التى ظهرت فى عصر التأسيس فى صورة بشرية ، هذا ورغم أن الاله مين فى العصور المبكرة اله سماوى ، ومن ثم فقد لقب «سيد السماء» ، وقد وحد حتى عصر الدولة الوسطى مع الاله الصقر حور الكبير ، فان الاله مين انما يعتبر لها للاخصاب فى المقام الاول ، وقد عبده الرجال كمناح للقوة الجنسية ، وصور فى هيئة رجل يلبس رداء ضيقا ، ويرفع أحد دراعيه الى أعلى ، لتحمل احدى شارات الملكية ، بينما تخفى يده الاخرى تحت رداءه لتمسك بعضوه المنتصب ، ويلبس فوق رأسه تاجا له ريشتان مثل تاج آمون ، وقد مثل مين ، كاله للمطر ، القوة التناسلية ، فى الطبيعة ، وبصفة خاصة نحو القمح ، وظهر الفرعون فى احدى احتفالات مين ، وهو يضرب الارض بفأسه ، بينما يرنو اليه مين بناظريه ، وفى عيد حصاد مين الذى كان يحتفل به فى بداية موسم الحصاد ، يشاهد الفرعون وهو يقوم بطقس حصاد القمح ، ومن ثم فقد ظهر فى عهد الدولة الحديثة متصدرا عيد الحصاد فى شكل حيوانه المقدس ، وهو ثور أبيض ، يأكل نباته المفضل «الخنس» والذى كان القوم يعتقدون أنه مهيج للقوة الجنسية •

هذا وقد وحد القوم فى عصر الدولة الحديثة بين مين وكاموتف

(٥٧) ديتلف نلس : التاريخ العربى القديم ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٤ ، عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٣٥١ - ٢٥٦ .
ثم قارن فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ •

(الملقب بثور أمه) وأدمجوهما في اله واحد عرف باسم «مين — كاموتف» وأصبحت كلمة «كاموتف» وحدها تطلق على مين نفسه ، وادمجوا أيضا في الاله «أمون رع» معبودا آخر هو «أمون رع — كاموتف» حتى تسبغ على أمون صفة ذاتية المخلق ، بل ان هناك من يرى أن أمون انما يمثل مين ، وأنه تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، ومن ثم فقد بدأ أمون يحمل صفات مين ، فهو مثله يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء ، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر .

هذا ورغم ارتباط مين بالخصب ، فقد عرف ، كما أشرنا آنفا ، كسيد للصحراء الشرقية ، حيث كان الاله الحامى لطرق القوافل المتجهة الى البحر الاحمر ، والتي تبدأ من مدينة قفط (٢٢ كيلا جنوبى قنا) مارة بمناطق خطيرة ، كما سمي «سيد البلاد الاجنبية» ومن ثم فقد أصبح حاميا للببدو الرحل والصيادين ، هذا وقد عبد مين في المنطقة التى تقع فيما بين أرمنت وطيبة ، وفيما بين قفط وأخميم ، وان كان مركز عبادته الرئيسى في قفط وأخميم ، ومع ذلك فقد عبد في كل المناطق التى يقترب فيها النيل من البحر الاحمر في الصعيد ، حيث كانت طرق القوافل تخترقها الى البلاد الشرقية والى المناطق الجنوبية ، وكان لزاما على كل من يود أن يخترق هذه الطرق أن يتعبد للاله مين قبل أن ينزل قفط ، لى يحميه من القبائل المتبررة التى كانت تجوب هذه المناطق ، وهكذا أصبح مين ربا للصحراء الشرقية ، صاحب الملازورد والكحل والخصاب وسيد البلاد الاجنبية طرا ، تفوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتي من بلاد المازوى (الجاي) وصاحب المكاثة المرموقة في بلاد النوبة ، ويذهب «دوما» الى أن ايزة قد عدت زوجة للاله مين ، كما عد حور ابنا له (٥٨) .

58) H. Frankfort, The Birth of Civilization in The near East, P. 110-11; F. Petrie, Koptos, Pls. III, IV, Abydos, I, Pl. III; Egyptian mothology, P. 110; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 99, 142; W. C. Hayes, The Coptes of Decrees, JEA, 32, 1946, P. 16.

ثم انظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ .

كان مونتو من الصعيد ، وقد ذكر مرارا في نصوص الاهرام ، كما صور بين آلهة مصر العليا في معبد الملك ببي الثانى من الاسرة السادسة ، وكانت أرمنت (١٥ كيلا جنوبى الاقصر) العاصمة القديمة للاقليم الرابع قبل طيبة ، مركزا رئيسيا لعبادته ، حيث شيد القوم له معبدا ضخما هناك ، هدمه بعض الدخلاء فى القرن التاسع عشر ، وأقاموا مكانه مصنعا للسكر ، كما عبد كذلك فى الطود والكرنك والمدامود^(٥٩) ، حيث اتحد هناك مع اله آخر عرف باسم «بوخييس» ، كما عبد فى ادفو ودندرة ، وقد أدمج مونتو مع الاله رع ، ليصبح «مونتو رع» ، وقد كان يقوم على حراسة رع أثناء رحلته الليلية فى العالم الثانى ، ويصور فى هيئة رجل له رأس صقر ، يعطوه قرص الشمس وريشتان عاليتان ، ويحمى جبينه ثعبان الكوبرا ، كما كان يصور كذلك برأس ثور ويمسك فى يده أسلحة مختلفة ، وكان له زوجتان من الالهات ، هما تننت وأبونت .

هذا وقد كان مونتو من آلهة الحرب المصرية ، وقد اتخذهُ الملوك حاميا لهم فى حروبهم منذ عهد الدولة الوسطى ، ومن ثم فقد قاد ملوك الاسرة الحادية عشرة من المقاتلة جيوشهم ، تحت لواء مونتو ، فى حروبهم ضد الالهاسيين ، والتي انتهت بطرد البدو الاسيويين من الدلتا ، واعادة توحيد البلاد ، ومن ثم فقد نسبوا نصرهم المظفر فى هذه الحروب الى الههم مونتو ، راعى الحرب ، الذى كان له مكانه وهيكله فى منطقة الكرنك نفسها ، فنسبوا أسماءهم اليه ، وتوارثوا فيما بينهم اسم «مونتو حتب» بمعنى (مونتو راض أو مونتو النعم) تعبير عن وفائهم لربهم ، واعتازا منهم بطابع الحرب

(٥٩) أنظر عن هذه المدن : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٣٥ - ١٣٦ ، اخناتون ص ٣٨ - ٣٩ ، الحضارة المصرية - الجزء الثانى ص ١٥٩ .

والكنفاح الذى يتمثل فيه ، والذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به الى مصر وحدتها ، بل ان مكانته ظلت حتى فى الاسرة الثانية عشرة ، التى أصبح فيها آمون الها للدولة ، ومن ثم رأينا سنوسرت الأول يقدم أراضى النوبة التى ضمها الى مصر الى الاله مونتو ، بل ان صفة مونتو — كاله حرب — ظلت واضحة حتى الاسرة العشرين ، كما نرى ذلك فى حروب رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر^(٦٠) .

١١ - حعبى

كان المصرى القديم يطلق على النيل اسم «(ايترو - عا)» أى النهر العظيم ، أما لفظة أنيل فهى تصحيف لللفظة «(نيلوس)» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر ، أما النيل كاله فقد أطلق المصريون منذ عصور ما قبل الاسرات اسم «(حعبى)» ولم يكن حعبى هذا هو النهر المقدس ، وإنما هو ذلك الاله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم ، وانتى تدفع بمياه فيضيه صاملة الخصب والنماء ، وأعبرت عبادنه حيويه ، ورفع عبده أحيانا حتى فوق رع ، وقيل انه منح الحياة للمراعى التى يرعى فيها قطيع رع ، أو الجنس البشرى ، وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء ، كما أمدهم بالندى من السماء ، وأطلق على حعبى واد الاله ، فأصبح سيد الالهة على الارض ، وسيد الخصب والخلق ، وهو الذى يمدهم بالقرايين التى تقدم لهم فى معابدهم ، ومن ثم فقد غذى الانسان ، وأيد الامر الالهى ، وقد صور القوم الههم حعبى فى هيئة بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك ، يلتحنى باللحية التقليدية للالهة ، وله ثديا امرأة وبطن مترهل .

ومن عجب أن هذا الاله ، رغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب ،

60) Egyptian mythology, P. 92-93; W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Records of Ramses, III, P. 5, 13, 38., J. H. Breasted, The Wadi Helfa Stela of Senwosrt, I, in PSBA, 23, 1901, P. 230-235.

وأنظر : جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل — القاهرة ١٩٧٢ ص ٧٢ - ٧٤ . وكذا

R. Mond and O. H. Myers, Temples of Armant, 2 Vols, London, 1940.

قد تنبأ منصب الخادم للالهة ، فكان يصور على جدران المعابد في صورته هذه يقدم خبراته الى الالهة الكبرى ، وكانت ترتل له الاناشيد في المناسبات الخاصة ، وفيها يمجّد وتعدّد أفضاله على مصر ، ومن ذلك : «الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الارض وتأتى لتغذى مصر، أنت النور الذى يأتى من الظلام ، عندما تفيض يقدمون لك المقرابين وتذبح لك الانعام ، ويقام لك حفل كبير» ، وقد أطلق القوم كثيرا من الصفات على الاله حعبى فقد كان رب الرزق العظيم ، ورب الاسماك، وخالق الكائنات، وواهب الحياة، وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر في التوحيد بين النيل كاله وبين أوزير ، وكان من بين ما أطلقوا عليه من أسماء «(ونن نفر)» ، وهو من الاسماء المثيرة ، كما وحد القوم بين النيل وبين بعض الالهة الاخرى التى كانت لها صلة بخصوبة الارض أو المياه مثل خنوم والذى كان يدعى «(رب المياه الطاهرة)» ولعل السبب اعتقاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الاول ، من اقليم آبو ، اقليم البداية بالنسبة لارض مصر، حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الارض في الصخور الجرانيتية هناك ، وأما صلته بأوزير ، فلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى ، وأن كهفيه يستمدان مياههما من نون (الماء الازلى) ، مياه العالم السفلى التى تمثل معينا لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن أوزير هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات ، وقيل كذلك أن حعبى هو الذى يخلق مياه النيل ، وأن أوزير هو قوة الخصب فيها ، واعتبرت المياه في العقيدة الاوزيرية عرق يدى أوزير ، وأن دموع ايزه هى سبب الفيضان السنوى ، وأن حعبى قد ساعد في بعث أوزير بارضاعه من صدره .

ومن عجب أن القوم رغم أنهم كانوا على يقين ، منذ الاسرة الخامسة والعشرين ، من أن أمطار السودان لها دخل في فيضان النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الاول (من جزيرة

بيجه) ، وان كانت عقيدة التوحيد على أيام مؤسسها اخناتون انما نابت بان الفيضان انما يرجع الى أسباب طبيعية يسيطر عليها الاله آتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (اى المطر) لغير مصر من الاوطان^(٦١) ، على أن القوم اعتقدوا بأن النيل هو مصدر الحياة فى مصر وقوتها ، لم يشيّدوا للاله حعبى المعابد والمحاريب، وان أقاموا الاحتفالات والاعياد التى كانت للاله أوزير أكثر منها للاله حعبى الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والالهة سواء بسواء ، بل رأوا فيه «أبا الالهة» و «خالق الكائنات الحية» ، ولعل لقبه «المحيى» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة ، هذا وقد كان من مظاهر حعبى كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير ، مما يجعل ايزه (ايسه) بالتالى امرأته وشريكته ، وربما كان من المحتمل عند تقديم القرابين أنها كانت تقدم لأوزير، أعنى «أوزير - أبيس» أو «سيرابيس» فى العصور المتأخرة ، عندما كان قدس الاقداس لهذا الاله المزدوج يسمّى «(سرابيوم)» *

وهناك من النصوص المتأخرة ما يشير الى أن هناك عيداً سنوياً كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهيبه وعظيمة جدا ، احتفالاً بفيضان النيل ، كانت تحمل فيه تماثيل اله النيل عالية فى كل المدن والقرى ، وعندما يكون الفيضان وفيراً ، فإن السعادة انما تملأ قلوب القوم جميعاً ، وتؤدى الصلوات للاله العظيم فى مهابة واجلال ، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة» ، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السماء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه *

هذا وقد كان القوم ، كما ذكر آنفاً ، وقد وحدوا حعبى بأوزير ، ومن ثم فإن ايزة تصبح صنوا لانثى حعبى ، وان كان هناك بعض

(٦١) أنظر :

W. Macquitty, Island of Isis, Philae, The Temple of The Nile, London, 1976.

المشك في أن آلهات أخرى قد أصبحت في عصور الاسرات المبكر كزوه وأخوات لعبى ، وهكذا كانت نخبت القرينة النسائية لعبى الحس بالجنوب ، ولكنها سرعان ما تحولت في عصور الاسرات الى صورة من ايزة ، وفي الشمال أصبحت وأدجيت الصورة المقابلة للالهة نخبت في الجنوب ، هذا وقد اعتبر لعبى كذلك صورة من الاله نون ، التل الازلى العظيم ، الذى انحدرت منه كل الكائنات ، وكانت «نوت» ، أو احدى صورها العديدة ، شريكته ، وتظهر أقدم صورة لهذه الالهة على أنها موت التى ذكرت في نصوص الملك وناس ، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى انما كان يعتبر صورة من لعبى اله النيل ، ومن ثم يصبح سيدا لآلهات النيل في الجنوب والشمال (٦٢) .

١٢ - خونسو

كان الاله خونسو أو خونس يمثل في ثالوث طيبة دور الابن لكل من آمون وموت ، وقد ظهر ارتباطه ، كاله للقمر في طيبة ، متأخرا ، كان قد ارتبط بالفعل قبل ذلك مع اله القمر تحوت ، هذا وقد اشتق اسمه من فعل «خنس» بمعنى «يعبر» اشارة الى عبور القمر الى السماء ، ويبدو أن خونس كان يمثل أصلا المشيمة الملكية ، ولما كان الملك من أصل مقدس ، فان كل ما يتصل بمولده فهو مقدس كذلك ، وبما أن الملك كان يوحد مع الشمس ، فان ما بعد المولد انما كان يوحد بالقمر ، وكانت المشيمة الملكية تحمل على علم كجزء من الرموز الملكية في المناسبات الرسمية .

62) F. Daumas, Le Civilization De L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, P. 326.

Veronica Lons, Op. Cit., P. 109.

وكذا E.A.W. Budge. The Gods of The Egyptians, II, 1969, P. 46-48.

R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, P. 8. وكذا

G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, P. 16-19.

وأنظر : الموسوعة المصرية ١ / ٢١٥ - ٢١٦ .

وكان يطلق على خونسو كثير من الصفات والالقباب ، فكان سيد الزمن وحاسب المواقيت والطفل وسيد السرور ومعطى النبوءات ، كما أطلق عليه كذلك سيد الصدق وصانع القدر ، وقد نال كثيرا من التكريم والتبجيل كتعويذة تحطم الارواح الشريرة ، ومن ثم فقد نسبت اليه الاساطير طرد هذه الارواح الشريرة ، وأخيرا غانه ، شأنه في ذلك شأن والديه آمون وموت ، كان مصدر للخصب والنماء ، ومانحا للتنفس للحياة ، هذا وقد وحد القوم بين خونسو — كاله للقمر ، وبين تحوت في الاشمونين ، كما وحد في طيبة مع شسو ، كاله للسماوات أو الطقس ، ومع تحوت كحاسب للزمن ، كما اندمج كذلك مع بعض الالهة الاخرى ، مثل رع وخور في شكل «خونسو — رع» و «خونسو — حور» •

وكان يصور في هيئة رجل تتدلى على جانب رأسه ضفيرة الشعر التي كان يرمز بها الى الطفولة ، ويطف بعباءة ضيقة ، ويعلو رأسه الهلال وقرص القمر ، ويحوى جبينه ثعبان الكوبرا ، وكان يمكث دائما وحول عنقه عقد خاص ، وفي يديه عدد من الصولجانات الخاصة بالالهة والملوك ، وكان يصور أيضا في هيئة رجل برأس صقر في بعض الاحيان، وكان المركز الرئيسي لعبادته في طيبة حيث كان له معبد فيها ، ويرجع تاريخ المعبد الحالي الى عصر رعمسيس الثالث ، ويطلق عليه «منزل خونسو في طيبة» ، كما كانت له هياكل عدة في أماكن مختلفة ، وبخاصة في ادفو والاشمونين ، وفي العصر اليوناني كان يدعى «خون» أو «خنسيس» ، كما كان يقابل هرقل اليوناني (٦٣) •

١٣ - سوبك

كان سوبك يصور في هيئة التمساح ، حيوانه المقدس ، أو في هيئة

(٦٣) الموسوعة المصرية ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩ ، جيمس بيكي : المرجع السابق ص ٣٨ - ٤٢ ، محمد عبد القادر : آثار الاقصر ص ١٦٣ - ١٧٢ ، وكذا Egyptian mythology, P. 103 .

رجل له رأس تمساح ، وقد عبد في مناطق متعددة حاملا نفس الاسم والشكل ، وليس من شك في أن طبيعة نهر النيل ومجراه ، ثم تجارب رواد النهر وركابه هي التي أوجت الى المصريين تقديس هذا الحيوان ، وحسبنا من ذلك الجزر المنتشرة في مجراه ، وسرعة التيار في بعض مناطقها ، والشواطئ الصخرية التي تعوق الملاحة ، بحيث تبدو خطرة على الملاحين ، ومنها منطقة كوم امبو وجبل السلسلة ، والجزر المنتشرة عند الجبلين وثنية النهر عند دندرة ، وجبل الطارف عند نجع حمادى وجبل أبو فودة عند أسيوط ، وهكذا أدرك أولئك الذين يعملون في مجرى النهر من ملاحين وصيادين هول التمساح وبأسه ، والامر كذلك بالنسبة الى أولئك الذين يقفون كثيرا عند حافة النهر من نسوة يملأن جرارهن أو رعاة يسقون أنعامهم أو مزارعين يرفعون المياه بالشواذيف من النهر العظيم ، أو من يغسلون ملابسهم ويغتسلون هم أنفسهم في ماء النهر •

وكانت «ساو» (صالحجر)^(٦٤) في الدلتا أهم مراكز عبادته هناك، حيث اعتبر فيها ابنا للالهة «نيت» ، وصور في شكل التمساح وهي ترضعه ، كما أطلق عليه هناك في سايس «معطى الحياة للنبات على الشاطئ» ، كما عبد كذلك في أرض البحيرة في الفيوم (كروكود يلوبوليس) طوال العصور الفرعونية هذا فضلا عن عبادته في كوم أمبو، بجانب الاله حور الكبير، كزوج للالهة حتحور ، ولعله هنا في كوم امبو^(٦٥) انما يعتبر المعبود الاصلى للمدينة ، حتى أن المعبد القديم من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، انما كان يسمى «بر — سوبك» (منزل سوبك) ، وان كان الالهان سوبك وحور ، قد عبدا جنبا الى جنب في هذا المعبد ، وزود كل منهما ، حسب التقاليد المصرية ، باثنين آخرين من الالهة حتى يكون كل منهما الثالث الخاص به ، ولقد ظفر سوبك

(٦٤) أنظر عن «ساو» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى ص ١٧١) *
(٦٥) أنظر : (فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٦-٣٨ ، ٧٨-٨٢)
محيى الدين عبد اللطيف : كوم امبو - القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٧ - ٢٩ .

بنصيب الاسد ، فكان رفيقاه اثنين من أعظم آلهة القوم ، وهما حتحور وخونسو ، الذى ظهر فى صورة «خونسو - حور» ولعل السبب فى اختيار هذين المعبودين بالذات الى جانب سوبك انما هو التقليل من تأثيره السيء فى أذهان القوم هناك بسبب شهرة حتحور وخونسو الطيبة .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أدمج سوبك فى الاله رع ، فأصبح «سوبك رع» ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الالهة المصرية ، هذا وقد عبد سوبك كذلك فى «الجبلىن» (١٨ كيلا شمالى اسنا) بصفته المعبود الاصلى كذلك ، وفى «سمن» (سمنو = كروكود يلونبوليس) وتقع فى مكان قرية الرزيقات الحالية ، على مبعده ١٠ كيلا جنوب غرب أرمنت ، وفى جبل السلسلة ودندرة والمعابدة وطهطا والحيية (٦٦) .

١٤ - حرشف

يبدو أن عبادة الاله حرشف (حرشاف) ويعنى « الذى فوق بحيرته » انما قد بدأت منذ الاسرة الاولى ، بل انها بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ فى اهناسية المدينة ، ويقع معبده عند المدخل الموصل الى بحيرة الفيوم ، وكان يمثل فى هيئة الكبش ، وقد قرنه الاغريق بمعبودهم البطل هيرقل ، ومن هنا أخذت المدينة اسمها الذى عرفوها به «هيراقلوبوليس» ، وفى العصر الاهناسى عندما أصبحت اهناسية عاصمة للبلاد ، ربط القوم بين حرشف ورع ، ثم بينه وبين أوزير فى عهد الدولة الوسطى والحديثة ، ثم بينه وبين آمون فيما بعد ، وفى العصر اليونانى سمي «حرسافيس» ، وزعم «بلوتارك» أنه ابن الاله اليونانى «زيوس» والالهة المصرية ايزة ، وأما معبده فقد كان فى مدينته الاصلية اهناسية المدينة ، كما أقيمت له هياكل صغيرة فى غيرها من المدن (٦٧) .

66) S. A. mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1949, P. 154 F.
A. Gardiner, Omon, II, P. 20 F;

67) W. B. Emery, Op. Cit., P. 123-124.
M. G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957, P. 128.

١٥ - وب واوات

كان الاله «وب واوات» معبود أسويط في نظر البعض ذئبا ، وفي نظر آخرين كلبا وحشيا ، وهو أسود اللون ، يقف على أقدامه الاربعة ، وكان يشبه الاله نوبيس ، وان كان يختلف عنه في أن القوم انما كانوا يمثلونه وهو يسعى فوق أرجله ، ولم يمثلوه مطلقا قابعا كأنوبيس ، ورابضا ككثير من المعبودات المصرية الاخرى ، وكان اسمه يعنى «الفتاح الطريق» ، مما يشير الى تصور القوم لما كان لهذا المعبود من صفات ومزايا ، فهو «المحارب» الذى يتقدم الجيوش ويمهد لها طرق النصر ، وقد استبشر به الملوك المحاربون فكانوا يصحبون معهم تمثاله مرفوعا على قائم من خشب، أثناء خروجهم للحرب، فضلا عن الاحتفالات الدينية والاعياد ، وأخيرا فقد كان «وب واوات» من بين الالهة التى صورت على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، الى جانب ظهوره على كثير من طبقات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى (٦٨) .

١٦ - أنوبيس

رمز المصريون للاله أنوبيس (انبو) بكلب يربض عادة على قاعدة مرتفعة ، مائلة الجوانب الى أعلى ، أو يصورونه على هيئة آدمية لها رأس كلب أو ككلب يصحب ايزه ، واعتبروه حاميا للجبانة وربما للموتى، ومن ألقابه المعروفة «القابع على جبله» ، وسيد الارض المقدسة وسيد سقارة (راسناو = جبانة منف) ، والذى يرأس بهو الاله (مكان تحنيط جثة فرعون) ، ومن ثم فقد وصف بالمحنط ، وأنه هو الذى حنط جثة أوزير ، وكان القوم على أيام الدولة القديمة يبتهلون اليه بأن يسمح للقرابين بأن تصل الى جثته ، ونظروا اليه فى الدولة الحديثة على أنه

68) I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, 1971, P. 53; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. XVII, 135.

وانظر : فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٣ - ٦٤ .

ابن لأوزير ، ثم جعلوه ، مع تحوت ، مشرفا على تقديم الموتى الى محكمة العدل ، والتي كانت تحكم — تحت رئاسة أوزير — على الميت بأنه من أهل الجنة أو من أصحاب السعير ، بعد وزن أعماله من حسنات وسيئات •

وفي العصور المتأخرة ، وبسبب الشبه بينه وبين الاله «وب واوات» غدا في نظر القوم المحارب الذى يقف الى جانب فرعون ويحميه ، كما نراه في هيكله بمعبده حتشبسوت بالدير البحرى يشترك مع خنوم في منح الملكة الفرعون قدسية الحكم وطول البقاء ، كما نراه كذلك ممسكا بيده ما يشبه الخربال الذى مايزال يستعمل حتى الان في قرانا في الاحتفال بمرور أسبوع على ولادة الطفل ، هذا وقد صور أنوبيس ، مع الاله ست ، على رؤوس الصولجان واللوحات التى ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، كما ظهر على كثير من طبعات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، كما سجل حجر بالرمو الاحتفال بعيد مولده في عصر الاسرة الاولى كذلك •

وأما مركز عبادة أنوبيس الرئيسى فكان في مدينة «القيس» (ه كيا) جنوبى بنى مزار بمحافظه المنيا) ، وقد أطلق الاغريق عليها اسم «كينوبوليس» بمعنى مدينة الكلب، وهى «كاسا» (ساكا — ساكو) المصرية، عاصمة الاقليم السابع عشر من أقاليم الصعيد، كما عبد كذلك «ثنى» (٦٩) على مقربة من أبيدوس، ثم سرعان ما انتشرت عاداته منذ العصور المبكرة في معظم أنحاء البلاد ، وأقيمت له فيها المحاريب ، ومن أجملها ماكان بالدير البحرى ، هذا وقد ربط القوم بين أنوبيس حيوان الصحراء ، وبين الصحراء الغربية ، بيت الموتى ، ومن ثم أخذ اللقب الجنائزى لاله «خنثى امنتيو» أول الغربيين ، الذى أخذه فيما بعد أوزير ،

(٦٩) أنظر عن «ثنى» والآراء التى درات حول موقعها (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٧٤ — ٧٨ ، وكذا A. H. Gardiner, Onom, II, P. 38, JEA, 27, 1941, P. 48. H. Kess, Ancient Egypt, 1961, P. 231, W.B. Emery, Op. Cit., P. 54.

ويبدو أن انبو كان ، بادىء ذى بدء ، الها للموتى للفرعون فحسب ، ذلك لان القوم كانوا فى العصور السحيقة يقتلون الملك بحية سامة عند نهاية العام الثانى والعشرين للحكم ، وعندما كانت تأتى النهاية المحتومة، فان أنوبيس (وربما كاهنه) يظهر للفرعون ومعه الحية ، ورغم أن القوم قد كفوا عن هذه العادة السيئة منذ العصور المبكرة ، فقد ظل أنوبيس الاله المنذر بقدوم الموت ، وقد مثل كمحارب يحمل خنجرا أو حية سامة أو كوبرا •

هذا ونظرا لقدرة أنوبيس على التنبؤ بقدوم الموت فقد ارتبط بالسحر ، وقد صور وهو يقود الالهة الاخرى التى قدمت لتكشف عن أسرار المستقبل ، وعندما وحد أنوبيس مع العقيدة الاوزيرية فى العالم الآخر ، قيل أنه ابن ثفنيس من أوزير ، وأن ايزه هى التى قامت بتربيته ، ومن ثم يعد حارسا لها ، وعندما استعادت ايزة جسد أوزير قدم لها أنوبيس الادوية النادرة التى ساعدت على تحنيطه ، ثم قام بآداء الطقوس الجنازية لأوزير ، والتى أصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى لكل طقوس الدفن ، ومع ذلك ، وطبقا لروايات أخرى ، فان جب هو الذى كن شديد الارتباط بأنوبيس وتحوت ، هذا وقد كان لانوبيس فى العقائد المتأخرة وظائف ثلاثة هامة فقد كان مراقبا للتحنيط السليم ، وكان يستقبل المومياة عند وصولها الى المقبرة وكان يقوم بطقس فتح الفم ، ثم هو بعد ذلك يقود الروح الى حقل السماء وهو يضع يده على المومياة ليحميها ، ثم هو الذى يقود الميت الى الميزان، بل ويتولى بنفسه ضبط هذا الميزان^(٧٠) •

(٧٠) الموسوعة المصرية ١ / ١٢٦ - ١٢٧ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر

ص ٧٤ - ٧٧ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 83-85; J. H. Breaseed, Op. Cit., P. 91, 10.

كان سوكر الها لجبانة منف فى سقارة ، وقد سجلت حوليات حجر بالرمو الاحتفال بعيدة فى عهد الاسرتين الاولى والثانية وقد أطلق عليه فى العصر المتأخر «ابن حور» فقد كان يصور فى شكل صقر محف أو فى هيئة رجل له رأس صقر ، وقد وجد فى أبيدوس بأوزير ، وفى منف ببتاح ، ثم هزج بين ثلاثتهم فكان الاله «بتاح - سوكر - أوزير» ، وقد جاء اسمه فى متون الاهرام كاسم آخر لاوزير ، الذى حل محله فى العصر البطلمى ، وبخاصة فى ادفو وندرة ، كما حل مكانه فى منف أوزير وسيرايبس، هذا وقد ارتبط سوكر فى الدولة الحديثة بالاله رع فى مدينته أون ، وعلى أى حال فلقد انتشرت عبادة سوكر أو سكر فى مناطق كثيرة فعبد فى منف ، حيث أقيم له معبد هناك تقام فيه احتفالات خاصة به كما عبد فى أبيدوس وغيرها (٧١) .

١٨ - بس

يذهب بعض الباحثين الى أن الاله بس انما كان أصله من بلاد العرب ، فلقد عثر على قطعة برنزية من الاثار السبائية محفوظة فى متحف فيينا نشرها «أدولف جرومان» تمثل الاله بس جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه ، وسواء أكان ظهور هذا الاله فى مصر يرجع الى أيام الاسرة الثانية عشرة أو الثامنة عشرة ، أو حتى الى عصر متأخر عن هذه الفترة ، فان صورة الاله بس فى اليمن من ناحية، ونسبة المصريين القدامى هذا الاله الى بونت والى أرض الاله من ناحية أخرى ، جعل كثيرا من الباحثين يذهبون الى أن أصل هذا الاله من بلاد العرب .

(٧١) فرانسوا دوما : المرجع السابق ص ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٨١ ، وكذا أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٠ ، وكذا

L. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 53.

V. Lons, Op. Cit., P. 116.

وأنظر : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها ص ٢٨٥ .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الاله بس انما قد جاء الى مصر في عصر الاسرة الثانية عشرة من السودان ، وربما كان في الاصل الها أسدا ، فقد حافظ على بعض صفات الاسد ، ولكنه مثل في مصر عادة على هيئة قزم قبيح ، سيقانه مقوسة يرتدى جلد الاسد، وكثيرا ما صورت أذناه على هيئة أذنى الاسد وله عرفه ، ويمتد لسانه خارج فمه ، ويوحى منظره العام بالجنون ، ويبعث على الضحك ، وقد كان في أول الامر حاميا للمبيت المالك ، وكان واحدا من المعبودات التي اعتمد عليها في ولادة حتشبسوت ، ثم سرعان ما انتشرت عبادته بين عامة القوم ، وأصبح واحدا من المعبودات الشعبية ، فقد كان جالبا للسرور في منازل طبقات القوم المختلفة ، وكان حاميا للأسرة،ومتصدرا لطقوس الزواج وزينة المرأة ، وصديقا حميما للمرأة يساعدها أثناء الولادة ويحمي الطفل الوليد ، وقد صور كثيرا وهو يرقص حول المرأة عندما تنضع حملها لأول مرة .

هذا وكان بس حاميا لعبدته من حيوانات الصحراء ، وبخاصة الثعابين ، ومن ثم فهو يظهر غالبا وهو يلتهم الثعابين ، ورغم أنه صور أحيانا في ملابس حربية كقاتل لاعداء عبده ، فقد كان في الاصل التام للخير والسرور ، ولهذا نراه يرقص ويضرب على القيثارة ، رغبة في تسليية الالهة ، ومن هنا كان للرقص والموسقى دور هام في عبادته،هذا وقد مثل بس في هيئة قزم له أذرع طويلة ، وساقاه قصيرتان مقوستان وله ذيل ، ويحمل وجهه ذو الانف العريض الاقنطس لحية كثة ، وعيناه المضمختان كائتا نصف مغلقتين بحواجب ضخمة ، وكان له لسان طويل يمتد خارج فمه ، وأذنان بارزتان ، وأحيانا كن له قرنن صغيران يخرجان من جبينه،وأحيانا يلبس تاجا من ريش طويل يشبه تاج ساتيس هذا وقد صور بس كثيرا على وسادة الرأس ، وبصفة خاصة تلك التي في فراش الزوجية ، وعلى مقبض مرآة وأدوات العطور ، كما صور كذلك على التماثم المصنوعة من عاج التماسيح ، والتي كان الغرض منها الحماية ضد حيوانات الصحراء والثعابين ، وأخيرا فقد أصبح بس الحامي وجالب السلام للميت ، ومن ثم فقد صور على الوسادة التي

تحت رأس المومياء ، هذا وقد كانت الصورة الانثى للاله بس هي «بست» الحية قاذفة اللهب ، وان اعتقد القوم بصفة عامة أن بس قد تزوج من «تأورت» (٧٢) .

١٩ - نفر توم

كان نفر توم الها قديما في مصر السفلى ، وقد اعتبر منذ عصر مبكر كابن لبناح وسخمت في ثالوث منف ، ويعنى اسمه «اللوتس» ، ومن ثم فقد صورته القوم على هيئة زهرة اللوتس ، ترتفع من وسطها ريشتان عاليتان ، واعتبره القوم بمثابة الزهرة التي نبتت وانبعث فوق جسد اله الحقول ، كما اعتبروه بمثابة الزهرة التي يمسك بها الاله رع ، ويقربها من أنفه ، كالعادة المشهورة التي طالما مثلها المصريون في مناظرها وأبرزوا فيها النبلاء والعظماء وهم يقومون بشم الزهور ، ولعل هذا هو السبب في أن نفرتوم عرف كاله للعطور ، هذا وقد نسب الى نفرتوم دور هام في أساطير الخلق ، وأطلق عليه «نفر توم أتوم» أو «رع الاصغر» ، ذلك لانه في نظرية هرموبوليس الطفل الذي يشرق من زهرة اللوتس في بحر السكاكين المقدس ، ومن دموعه جاء الجنس البشرى (٧٣) .

٢٠ - خنتى امنتى

كان الاله خنتى امنتى أو خنتى امنتيو بمعنى أول أهل الغرب ، أى الموتى ، الاله المحلى ، كما كان اله الجبانة في اقليم «تا - ور» (أبيدوس وثنى) ، وطبقا لقائمة سنوسرت الاول (٧٤) فقد كان خنتى امنتيو أول

(٧٢) ادولف جرومان : التاريخ العربى القديم ص ١٦٩ .

تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٩٩ - ١٠١ .

A. E. Budge, Op. Cit., II, P. 285; S. A. Mercer, Op. Cit., P. 189.

A. Fakhry, an Archeological journey to Yemen, I, 1955, P. 135; Bahria Oasis, I, P. 166, Egyptian mythology, P. 111.

73) Ibid., P. 106.

74) P. Lacau and Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier, Le Caire, 1956.

معبود في أبيدوس ، التي اكتسبت نصيباً من القداسة لوجود معبد هذا الاله هناك على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وقد عثر «بترى» على أحجار من هذا المعبد هناك في أبيدوس ، هذا. وقد كان القوم يرمزون للاله خنتى امنتيو بحيوان ابن آوى مثل أنوبيس ، ولعل أقدم ما عرف لنا من صورته انما وجد على كسر من أوان حجرية ترجع الى عصر التأسيس ، ويذهب البعض الى أن الاله أوزير قد أتى من الدلتا الى أبيدوس في عصر الدولة القديمة ، وسرعان ما استقرت عبادته هناك بجوار خنتى امنتيو ، ثم ما لبث أن اختلط به ووجد الاثنان معا تحت اسم «أوزير- خنتى امنتي» (٧٥) .

٢١ - اكر

عبد الاله اكر منذ الاسرة الاولى ، كما تشير الى ذلك طبيعة ختم ظهر عليها هذا الاله في مقبرة بسقارة تنسب للملك «جت» ، وقد صور أكر على هيئة مقدمتى أسد ملتصقتين كل منهما على عكس اتجاه الأخرى ، ولقد افترض أن الاله «اكر» يحرس الافقين ، وكانت السماء تدخل في فم أحد الاسدين في المساء وتخرج من فم الاسد الآخر في الفجر ، هذا وقد صور اكر في الادب الدينى المتأخر على هيئة أسدين كاملين جالسين ، وقد ولى كل منهما ظهره للآخر ، وقد وضعا على أنهما يمثلان اليوم والغد (٧٦) .

٢٢ - أنحور

عبد الاله انحور (أنوريس عند الاغريق) في أبيدوس في عهد الدولة الحديثة ، وغالبا ما كان اسم أنوريس يدخل في اعلام الجهة المجاورة ، وهى نجع الدير (٤١ كيلا جنوب أخميم شرق النهر) ونجع المشايخ

75) W. B. Emery, Op. Cit., P. 124-125.

76) W. B. Emery, Great Tombs, II, fig. 169; W. F. Petrie The Royal Tombs, II, Pl. XVII.

٤) كيلا جنوبى نجع الدير) ، وقد صور القوم الههم انحور على هيئة رجل تعلق رأسه أربع ريشات ويقبض على حربته ، وأما اسمه انحور (أينحرت) فمعناه «الذى يحضر البعيد» ، وربما أمكن تفسيره بأنه يرمز الى الصياد الذى يجلب الصيد من بعيد ، ربما إشارة الى الاجداد الذين استقروا فى هذا الأقليم قبل العصر الحجري الحديث ، وقامت حياتهم على الصيد ، وإياها كان الأمر فرغم أن أهميه أنوريس قد قلت فى الدولة القديمة والوسطى ، فقد فاز بشهرة كبيرة فى الدولة الحديثة رفعت من شأنه وأدمجته مع الآلهة العظمى .

٢٣ - آحى

يمثل المعبود آحى ابن المعبودة حتحور ، ربه دندرة ، التى أنجبته من «حور» رب ادفو ، ويصور عادة على هيئة طفل يافع يقبض على شخصيخة يهزها ، مشتركا كموسيقى فى الطقوس الدينية التى تؤدى لأمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فهو مدينة دندرة ، حيث ما تزال باقية أطراف معبده الذى شيده الملك نختنبو الاول ، من الأسرة الثلاثين ، وهو معبد المولد «ماميسى» حيث اعتاد القوم تمثيل مولد الابن المقدس وتربيته على يد مجموعة من المعبودات حتى يشب عن الطوق .

٢٤ - بوخيس

رمز المصريون لهذا المعبود بالثور ، وقد عبد فى أرمنت حيث أدمج بمعبودها الرئيسى «موننتو» وقد قام بوخيس (باخ) بدور كبير فى العصور المتأخرة عندما جمع القوم بينه وبين «منفيس» ، ثور هليوبوليس المقدس ، ومن ثم فقد ارتبط بروابط وثيقة بعبادة رع ، هذا وقد كشف عن جبانة كبيرة غربى أرمنت خصصت لدفن الثور المقدس فى توابيت حجرية ضخمة ، وضع كل منهما فى حجرة خاصة ، منقورة فى باطن الارض ، وقد أطلق على هذا المدفن اسم «بوخيوم» .

٢٥ - سويد

كان سويد ، أحد أشكال الآلهة حور ، اله الحدود الشرقية للادلتا ،

وكذا الارض الحمراء ، وهى الصحراوات التى تقع فيما بين النيل والبحر الاحمر ، شمال وادى الحمامات ، وهو على أية حال ، اله أسىوى وفد الى مصر من الشرق ، واستقر فى شرق الدلتا كمعبود للاقليم العشرين (المقاطعة العربية) * وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى مدينة «بر - سوبد» ، وهى صفت الحنة الحالية ، الى الشرق قليلا من مدينة الزقازيق ، ثم انتشرت عبادته فى سيناء وفى الصحراء الشرقية وعلى ساحل البحر الاحمر حتى القصير جنوبا ، وقد اعتبره القوم من آلهة الحرب وحامى حدود مصر الشرقية ، ومن ثم فقد أطلق عليه لقب محطم الغزاة وسيد البلاد الاجنبية ، هذا وقد ارتبط سبد أو سوبد باسم الاله حور ، وعرف باسم «حور - سوبد» وكان فى هذه الصورة يمثل الشمس فى شروقها ، وقد صور فى هيئة صقر جاثم ، تعلو رأسه ريشتان عاليتان ، وكان يظهر فى هذه الصورة كرمز للاقليم ، كما كان يصور كذلك فى هيئة رجل ، له شعر ولحية أسىوية ، وتعلو رأسه نفس الريشتين ، غير أن هذا الشكل الاسىوى انما قد اختفى منذ الأسرة العشرين (٢٧) *

(٧٧) فرانسوا دوما: آلهة مصر ص ٥٨ ، ١٠٦ - ١٠٧ ، محمد بيومى
مهران : المرجع السابق ص ٣٣٤ - ٣٣٦ الموسوعة المصرية ٨٣/١ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٦٢ ، ٢٧٨ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ١١-١٠/٤
H. Gauthier, Op. Cit., II, P. 51, 127.
وكذا
J. De Rouge, Op. - cit., P. 134.

المعبودات المصرية

١ - حتحور

لا ريب فى أن القوم قد عبدوا الالهة «حتحور» (حوت حور بمعنى مكان أو بيت حور) منذ عصر التأسيس ، حيث مثلت على قمة لوحة الملك نعرمر الأردوازية ، وكذا حزام الملك المصور فى نفس اللوحة ، حيث مثلت برأس انسان وأذنى بقرة ، وفى الواقع فلقد حازت حتحور شهرة واسعة منذ عصور ما قبل الاسرات وفى عصر التأسيس كالهة للسماء ، كما كانت وقت ذاك تمثل الصورة النسائية لحور ، لاسيما وأن اسمها ، كما قلنا ، انما يعنى «بيت حور» ، هذا وقد صورت حتحور فى الفن المصرى القديم بأشكال تكاد لا تحصر ، ولكنها غالبا ما كانت تصور كبقرة ، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وفى كثير من الاحايين كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين .

وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجيا ، حتى انتهى الامر الى أن تمثل برأس امرأة وأذنى بقرة ، وهو مظهر كانت تصور به حتحور باستمرار ، فنراه مثلا كطية ليد المرأة اليدوية وكعنصر معمارى لتاج عمود ، وبهذا الشكل الاخير نرى هذه المعبودة ممثلة فى صالة أعمدة معبد دندرة هذا وكانت حاتحور فى عقيدة القوم مرضعة حور بن ايزة ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ، فهى الهة فرحة جذلانة ، ومن ثم فهى ربة البهجة وسيد الرقص ، وربة الموسيقى وسيدة الغناء ، وربة الوثب وسيدة المتيجان ، ثم صارت بعد ذلك ربة اللجبانة ، ترعى الموتى وترأهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة ، منها الذهبية أو ربة الذهب ، وصاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها ، كما كانت لها تماثيل مموجة بالذهب ، حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة

هذا وقد اعتقد القوم أن الوطن الاصلى لمعبودتهم ، انما كان فى

الصعيد ، وانها قد عبدت في مواطن كثيرة هناك ، مثل دندرة (ه كيلا شمال غربى قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير^(١) ، والذي يعد الان من أحسن المعابد المحفوظة وأكثرها تأثيرا حيث سميت هناك «حتحور العظيمة» ، سيدة دندرة وعين الشمس وسيدة السماء ، وسيدة الالهة قاطبة ، ابنة رع ، التى لا تشبيه لها» ، كما عبدت حتحور في كوم أمبو والجبلين ، وفي طيبة ، وبخاصة في منطقة الدير البحرى ، حيث اهتم بها ملوك الأسرة الحادية عشر كثيرا ، حتى لقب «(منتو حتب الثالث)» بأنه «محبوب حتحور» ، سيدة دندرة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ملوك الأسرة الثمانية عشرة ، حتى لقب «(امنمحات الثانى)» بأنه «محبوب الالهة حتحور» ، كما عبدت في «(هو)» (ه كيلا جنوبى نجع حمادى) وفي القوصية ، وفي أطيح (مركز الصف) حيث سميت هناك «(الاولى بين البقرات)» نظرا للدور الذى كانت تلعبه في شكلها الحيوانى ، وفي منف ، والى الجنوب من معبد بتاح ، عبدت حتحور ولقبت «سيدة الجميزة القبلية» ، وكان لها معبد جنوبى المدينة ، وربما معبد آخر داخل المدينة ، شرقى معبد بتاح على كوم الكالة الحالية ، كما عبدت كذلك في بونت وفي جبيل ، هذا فضلا عن عبادتها في بلاد النوبة ، حيث شيدت لها الملكة حتشبسوت معبدا في فرس (باخورس القديمة على مبعدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى) لم يبق منه الا أساساته وبعض قطع من حجارة مبعثرة .

هذا وقد وجد اتصال في سيناء منذ أقدم عصور التاريخ بين حتحور (وكانت للصفة القمرية من بين صفاتها العديدة) وبين الالهة القمرية السامية التى كانت تعبد في الكهف المقدس في معبد سراييط الخادم في سيناء قبل مجيء المصريين والتى حلت حتحور مكانها ، ولعل عبادة حتحور في سيناء انما كانت سببا في اختلاف المحدثين حول المعجل الذى عبده بنو اسرائيل أثناء غياب موسى ، عليه السلام ، عنهم ليتلقى

(١) أنظر : جيمس بيكى : المرجع السابق - الجزء الثانى ص ١٨٩
وكذا ٢٠٧ .

W. M. F. Petrie, Denderah, London, 1900.

الوحى من ربه ، ففريق ينسبه الى عبادة الالهة حتحور ، وفريق ينسبه الى عبادة العجل أبيس ، ذلك أن «سيرليونارد وولى» انما يذهب الى أن الاسرائيليين عندما دخلوا منطقة جنوب سيناء ، حيث أقام المصريون المستغلون بالتعدين معبداً للالهة حتحور ، ارتدوا عن الموحداية الى العقائد التى اكتسبوها فى مصر ، وصاغوا العجل الذهبى ، تمجيذاً للالهة البقرة ، حتحور ، والتى اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد .

هذا ويفترض «أوسترلى» ، طبقاً لما جاء فى سفرى الخروج والملوك الاول من التوراة ، أن هذا العجل انما كان معبوداً مصرياً ، وأنه الالهة حتحور ، وأن هناك تمثالا بمتحف القاهرة لهذه الالهة البقرة من عهد أمنحتب الثانى ، وقد غطى الرأس والعنق والقرنان فى الاصل بالذهب ، وأن العجل الذهبى قد وصف فى مكان آخر ، وكأنه الالهة ذات القلادة المضيئة ، مثل السماء بنجومها ، وتدعى الواحدة الذهبية أو ذهب الالهة ، مما يفسر لنا تسمية العجل «بالذهبى» ، وقد وجدت صورة هذه الالهة فى بيسان وجازر وأريحا ، وأن الالهة «عشتار» تمثل أحياناً بلباس الرأس الخاص بحتحور ، ولهذا كله نستطيع أن نوحّد العجل الذهبى بالالهة المصرية حتحور ، هذا فضلاً عن أن من صفات حتحور أنها كانت تدعى ربة الحب والالهة المرحّة والطروب ، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «الذهبية» وقد دعاها اليونان «أفروديت» ، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها ، باقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشيخة بقلائدهن وضرب الدفوف .

على أن فريقاً آخر يذهب الى أن العجل الذهبى انما كان ذكراً ، وليس أنثى ، ومن هنا فان هذا الفريق يشك كثيراً فى أن الاسرائيليين قد صاغوا العجل الذهبى تمجيذاً لحتحور .

وانطلاقاً من هذا فان رأى عندى أن عجل الذهب الذى عبده بنو اسرائيل انما كان تقليداً لعبادة العجل المقدس فى مصر ، وليس تقليداً

لعبادة حتحور ، صحيح أن بعض العلماء نادى بأن المعبود انما كان بقرة ، ولكن الذى يلزمنا هنا كلام الله عز وجل فى الذكر الحكيم وليس مدرج الباحثون أن يقدموا ، فانما هو اجتهاد وفوق كل ذى علم عليم، وصدق الله العظيم ، حيث يقول «ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» ، ويقول «فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار ، فقال هذا الهكم والله موسى» •

هذا وقد صور المصريون حتحور كذلك ، على أنها الهة حرب،ربما بسبب تسميتها عين الشمس التى تحارب أعداء رع^(٢) ، هذا فضلاً عن أنها كالهة مقربة الى قلوب النساء كان لزاما عليها أن تصبح أما ذات طفل ، فأعطوها ولداً هو «أيحي» أو «آحي» الذى يجلس فى حجرها ، ولعل ذلك تشبهاً بحور الطفل ابن ايزه ، ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن ايحي لم يتمتع مطلقاً بتلك الشهرة الشعبية التى تمتع بها حور الطفل ، ومع ذلك فقد مكنت حتحور (حاتحور) من أن تعوض هذا النقص عند القوم بأن أصبح لها منذ الدولة الحديثة عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقات الشعب فى العصور المتأخرة ، وأعنى بذلك «الحتحورات السبع» اللاتى كن مثل ايحي يدخلن السرور على قلب حتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص والملاهى كن يحمين الانسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد ، فضلاً عن رعاية كل أم أثناء حملها وعندما تضع هذا الحمل ، وهناك ما يشير الى أن هناك عبادة هامة كانت تقام فى دندرة لحتحور ، وتذهب أثناءها فى مواكب فخمة على صفحة النيل لزيارة زوجها الاله حور فى ادفو وكانت كلما مرت بمعبد من المعابد فيما بين دندرة وادفو،خرجت مواكب الالهة فى سفن لتحياتها عند مرورها •

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا الى اختلاف القوم فى وضع

(٢) أنظر : أسطورة هلاك البشرية (محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٤٣ - ٤٩ - الاسكندرية ١٩٨٩ م ، وكذا J. Wilson, ANET, P. 10-11, A. Erman, LAE, P. 47-49, M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.

حتحور هذه ، فهي مرة أما للاله حور ، وأخرى زوجة له أو لغيره من الالهة ، ففي كوم امبو مثلا كانت زوجة للاله سوبك ، وفي دندرة زوجا للاله حور الكبير ، وأما للاله ايحي ، وهي في ادفو زوجا لحور ادفو (أحد أشكال حور الكبير) ، وكان يحتفل بزواجها المقدس سنويا ، ذلك عندما يحمل تمثالها من دندرة الى مقصورة حور في ادفو ، وكان ثمرة زواجهما هو حور الكبير .

هذا ويظن أن حتحور قد أرضعت الفرعون ، كما أرضعت امام ملوك مصر حور ، ومن ثم فقد وجدت الملكة مع حتحور ، ثم غدت رمزا السماء التي تظل الطبيعة برحمتها ، وهي لا ترحم أهل الدنيا فحسب ، وانما ترحم الصائرين منهم الى عالم الآخرة تأخذ بيدهم عند أبواب الغيب فتهديهم فيه ، وتصب ماء الرحمة لمن يظلم منهم اليه ، وعندما انتشرت العقائد الاوزيرية تغير دورها نوعا ما ، ونظرا لشيوع شعبيتها فقد تحولت الى عقائد جديدة . ومن ثم فقد مثلت كسيده لشجرة الجميز ، وقد بزغ قرنيها من الشجرة التي تنمو على شاطئ النهر ، وربما كانت الجميزة هذه تنتمي الى التقليد الذي يقول أن جسد أوزير عندما وصل الى شاطئ بيبيلوس في فينيقيا ، أحاطت به شجرة جميز ونمت حوله ، ومثلت حتحور كذلك كبقرة ترضع الفرعون الميت ، وكذا أرواح الموتى الآخرين ، اما في هيئة امرأة أو بقرة ، ومن ثم فقد ساعدتهم أثناء تحنيطهم وفي الوصول الى عالم أوزير ، وفي العصور المتأخرة عندما أصبح يطلق على المتوفى ، أوزير ، أصبح يطلق على النساء الموتى حتحور (٣) .

(٣) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٣ - ٥٨ .
محمد بيومي مهران : اسرائيل - الكتاب الاول - التاريخ ص ٤٦٤ - ٤٧٧ .

Veronica Lons, Op. Cit., P. 78-83; L. Woolley, The Beginnings of Civilization, P. 514; H. Frankfort, Kingship and The Gods, P. 10; A. Gardiner, A. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sina, II, 1955, P. 41 Urk. I, 247.

H. Kees, Das alte Agypten, P. 88.

W. Emery, Op. Cit., P. 124.

٢ - نيت

ترجع عبادة نيت ، الهة الصعيد القديمة ، في «ساو» الى عصر ما قبل الاسرات، وتشير رموزها التي تتكون من ترس ورمحين متقاطعين الى أنها انما كانت تشبه آلهة الحرب ، كما أن ارتداءها تاج الدلتا الاحمر ، ربما يشير الى أنها كانت تحالف مصر السفلى ، هذا وقد اتخذت نيت منذ العصور المبكرة لقب الالهة الكبيرة وأم الالهة ، ومن ثم فقد دُعيت أحيانا ابنة رع ، وان قيل أحيانا أخرى أنها ولدت رع، ولهذا أطلق عليها «أم رع» ، ومن ثم فهي أحيانا تمثل الام البقرة العظيمة التي تلد رع يوميا ، واعتبرت في العصور المتأخرة أما للالهة، سوبك وايزة وحرور ، وكذا أوزير الذي زعموا أنه دفن في سايس *

وفي الاسرة الثلاثين ادعى «نختنبو الثاني» أنها أمه ، وقد عثر على نقش مكتوب في عناية ودقة في مدينة نقراطيس يسجل فرض ضريبة ١٠٪ على الواردات الى هذه المدينة ، وعلى البضائع التي تصنع فيها، على أن يخصص ايراد هذه الضريبة للالهة نيت في سايس ، ومجمل القول أن المقوم وقت ذاك قد اعتبروا نيت كأُم للكون وحامية للبشر والالهة ، كما أنها كانت ، كالهة خالقة ، زوجة للاله خنوم معبود اليفانتين ، ومن عجب أنها في العصور المتأخرة عبدت من النساء كحتحور ، فقمين على خدمتها وسمين بأسمائها *

هذا وقد عبدت نيت في منف ، وكان لها هناك معبد شمال الجدار، في مقابل معبد بتاح جنوب الجدار ، منذ أيام الدولة القديمة على الأقل ومن ثم فقد لقبت «الكائنة شمالي جداره» ، غير أن مركز عبادتها الرئيسي انما كان في «ساو» (سايس = صا الحجر ، على مبعده ٧ كيلا شمالي غرب بسيون) ، حيث يوجد معبدها الذي عرف باسم «بيت النحلة» ، وكان يرمز اليها ، كما أثرنّا آنفًا ، تيرس وسهام متقاطعة ، ولعل ذلك انما يشير الى طبيعتها كالهة صيد وحرب ، ومن ثم فقد حملت لقب «التي تمهد الطريق» مما يشير الى أنها كانت تتقدم

الملوك في المعارك الحربية ، كما كانت كذلك الهة الفيضان التي تسكن شواطئ النيل ، حين تترقد التماسيح على شواطئه الغربية ، وكانت عبادتها من العبادات الرئيسية في مصر السفلى عند نهاية عصر ما قبل الاسرات ، كما ورد اسمها على فخار من نقادة من نفس العصر .

هذا وقد نظر ملوك الاسرة الاولى اليها نظره احترام وتبجيل ، ومن ثم فقد اتخذوا تاجها رمزا للدلتا ، كما اتخذوا كذلك لقب «الذى ينتمى الى النحلة» ، هذا فضلا عن وجود اسمها كجزء من أسماء بعض الملكات اللاتى وصلتنا أسماءهن واللاتى اتخذ منهن ملوك الاسرة الاولى زوجات لهم ، وأولى هؤلاء الملكات «نيت حنتب» زوج الملك نعرمر ، وصاحبة المقبرة المشهورة في نقادة ، وربما كانت الاميرة الشمالية المثلة في مواجهة الملك نعرمر في نقوش رأس مقمعه ، ولعل هذا هو السبب الذى دعاه الى تشييد معبد للالهة نيت ، وهو أقدم معبد لدينا عنه معلومات مباشرة من بطاقة من أبيدوس تنسب لهذا الملك (حور عحا) ، وأما الملكتان الاخريان فهما «حرنيت» زوج الملك جر ، و «مريت نيت» (محبوبة نيت) المشهورة ، ذات المقبرتين ، الواحدة في أبيدوس ، والاخرى في سقارة ، مما دعا البعض الى الزعم بأنها خليفة جر ، وثالثة ملوك الاسرة الاولى .

وكما أشرنا من قبل ، فلقد اعتبرت نيت منذ الدولة القديمة ابنة لاله رع ، وان أطلق عليها فيما بعد «أم رع» ، وقامت بدور هام في المعتقدات الجنازية منذ متون الاهرام ، وأما في عصر الدولة الحديثة فقد كانت نيت تقوم ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس وسرقت ، بحراسة الميت وأحشائه وان بلغت ذروة قوتها في العصر الصاوى ، حيث شيّد لها ملوك الاسرة السادسة والعشرين المعابد الضخمة في سايس ، فضلا تلك المقاصير التى أقيمت من أجل معبودة سايس العظيمة (٤) .

(٤) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٩٥ - ٩٩ .

J. H. Breasted, ARE, I, 97, 118, 123; I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53;

W. B. Emery, Op. Cit., P. 125; V. Lons, Op. Cit., P. 103-105. L. D, II, 46.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 375.

٣- ايزة

يذهب بعض الباحثين الى أن ايزة (ايسة أو است) ، بمعنى كرسى العرش ، انما كان أصلها فى الدلتا ، وربما ظهرت فى أول الامر كمعبودة محلية بمدينة «بر - حبت» (بيت الاعياد) ، التى أطلق عليها الاغريق ايسيتوم (ايزيوم) عاصمة الاقليم الثانى عشر ، وهى بهبيت الحجر الحالية (٩ كيلا شمال غرب سمود) ، ويبدو أنها كانت الهة سماوية ، ثم فقدت طابعها هذا منذ أن ورد ذكرها فى قصة أوزير ، واحتفظت بصفاتها كزوجة لأوزير ، وأما لحور ، ثم سرعان ما اشتهرت بصفاتها المتعددة التى ترمز للاخلاص العظيم للزوج والرعاية الكاملة للابن ، ومن ثم فقد أصبحت فى نظر القوم المثل الاعلى للام الحنون ، والزوجة الموفية ، ونظرا لالتجائها الى السحر للعثور على جثة زوجها الشهيد ، وإعادة الحياة اليه ، فضلا عن الدفاع عن ابنها ، والاصرار على توليته عرش مصر ، كوريث لابيها أوزير ، فقد اشتهرت بلقبها «العظيمة فى أعمال السحر» ، هذا وتشير الاساطير الى أنها ولدت فى أيام النسيء - شأنها فى ذلك شأن أوزير وست ونفتيس وحور - وقد أنجبت حور اما عندما كانا مائزالان فى الرحم ، واما بعد موت أوزير (٥) .

وهناك ما يشير الى وجودهما منذ عصور ما قبل الاسرات ، وقد عثر على اسمها من عصر التأسيس على ختم من أبيدوس ، كما عثر فى حلوان على قطعة عاجية تمثل رمز الالهة ايزة على هيئة يد ملققة ، فضلا عن قطعة أخرى عاجية ربما كانت غطاء لصندوق صغير ، وقد حلى الغطاء برسمين بارزين لرمز ايزة وتحتها العلامة «حبت» ، وقد زادت أهمية ايزة فى العصور المتأخرة ، ثم سرعان ما بدأ القوم ، فيما قبيل العصر الاغريقى ، يخلطون بين الالهة المصرية وبين بعضها الاخر ،

(٥) انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الاداب والعلوم ص ٢٢ - ٢٤ ، ٢٩ - ٣٣ ، وكذا

J. Vandier, Op. Cit., P. 45-47.

H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

A. H. Gardiner, LES, P. 37-60.

ومن ثم فقد خلطوا بين أيزه وبين حتحور وغيرها من الالهات ، ومن ثم فقد أصبحت ايزة شخصية مبهمه ، حتى يمكن أن يقال أنها غدت الالهة بصفة عامة ، وقد سميت فعلا في احدى المرات «الجوهر الجميل للالهة جميعا» ، وفي نشيد من العصر الرومانى أصبحت تعرف بصفة عامة الهة كل مدينة ، أو أصبح على كل من الالهات نيتوباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصوير ايزة ، هذا وقد ظهرت في العصور الفرعونية المتأخرة من قبل روايات تذهب الى أن أحد أجزاء جسم أوزير قد دفن في جزيرة «بيجة» ، على مقربة من فيلة ، ثم سرعان ما أخذت عقيدة ايزة تظهر في المنطقة على أنها الالهة الشافية لكثير من الامراض ، وذات القدرة العجيبة في السحر ، ومن ثم فقد بنى لها الملك «نختنبو» من الاسرة الثلاثين مقصورة في الجزيرة +

هذا وقد استمرت عبادة ايزة طوال معظم العصور الفرعونية ، وخاصة في جزيرة فيلة ، حيث ظلت تمبد هناك حتى القرن السادس الميلادى ، وقد تغيرت هيئتها ، كما حدث لأوزير ، كما استمرت موقرة مثله في شكلها الجديد ، ومن ثم فقد أصبحت كذلك الهة للخصب،بينما كان أوزير يمثل فيضان النيل ، ورمزت ايزة الى الثراء في أرض مصر التى قامت بحمايتها من ست (الصحراء) وبصفتها الالهة الام ، فقد اكتسبت صفات حتحور ونوت ، ومع ذلك فقد كان يشار اليها ، بصفة أساسية ، على أنها الزوجة المخلصة والنائحة ، ومثلت غالبا في هذا الدور على هيئة حدأة تصحبها نفتيس ، وكحدأة واثنين معها يلاحظان الاوانى الكانوبية أو على هيئة حدأة جاثمة على نهايتى التابوت ، وفي عصور أخرى شوهدت كحامية للمتوفى (أوزير ، أو غيره قد اندمج معه) بأجنحة ذات ريش طويل ، ومثلت غالبا في هيئة امرأة على رأسها كرسى العرش ، وهى العلامة المهيروغليفية التى تعنى اسمها ، وفي أحيان أخرى كان غطاء رأسها قرص الشمس الذى يحيط به قرنى البقرة ، وقد أتى ذلك من توحيدها مع حتحور ، وشوهدت أحيانا برأس بقرة ، وهى الرأس التى أعطاها إياها تحوت ، عندما ضرب حور رأسها عقابا لها على اعتراضها على انتقامه من ست ، هذا وقد شوهدت ايزة

في بعض الاحايين كامرأة على رأسها هلال القمر ، أو لها قرنان من زهور اللوتس وأذنى بقرة ، أو تحمل نباتا قرنيا ، هذا وقد أشير اليها، في تماثيلها التي تظهر فيها وهي ترضع الطفل حور ، على أنها حامية الطفل ، وخاصة من المرض ، وكان رمزها المميز هو الحزام أو عقدة ايزة ، التي اعتقد القوم أنها تمثل قوة الخلق .

هذا وقد تمتعت ايزة في عصر البطالمة بمكانة فاقت ما كان لآلهات مصر الاخرى ونستدل على ذلك من كثرة الاشارة اليها في النصوص الهيروغليفية ، ومن انتشار معابدها في جميع أنحاء البلاد ، ومن تقديم كافة الطبقات القرابين والهبات لها ، هذا وقد كان الاغريق يشبهون ايزة بديمتر ، وفي عهد البطالمة شبهت ايزة بالآلهات افروديت وهيرا وآثينا ، ومن ثم فان الملكة «ارسنيوى الثانية» ، زوج بطليموس الثاني، التي شبهت بأفروديت ، قد تشبهت كذلك بايزة ، كما أن الكثيرات من ملكات وأميرات البطالمة قد تشبهن بايزة (ايزيس) ، وصورن في شكلها بطراز اغريقى ، الامر الذى ساعد على انتشار عبادة ايزة بين الاغريق حتى اذا ما كنا في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت ايزة قد احتلت مكانة بارزة بين الاغريق .

وأما مركز عبادة ايزة الرئيسى في عهد البطالمة فهو جزيرة فيلة^(٦) (أنس الوجود ، جنوبى أسوان) ، حيث شيد لها وللآلهة المتصلة بها معبدا عظيما ، هذا الى جانب عدة معابد في الاسكندرية ومجاوراتها ، فضلا عن فيلادلفيا ، ثم سرعان ما انتشرت عبادة ايزة في حوض البحر المتوسط ، حتى شبهها الاغريق بكل آلهة أخرى ، وبكل سيدة رفعت الى مصاف الآلهة ، واعتبروها «سيدة الجميع ، البصيرة ، القاهرة ، ملكة العالم المأهول ، نجم البحر وتاج الحياة ، مانحة القانون، المنفذة ، منبع الرشاقة والجمال مصدر الحظ والثراء ، رمز الصدق

6) W. Macquitty, Island of Isis, Philae Temple of The Nile, London, 1976.

والحب» ، لانها وهبت العالم فنون الحضارة ، ووضعتها تحت رعايتها •

هذا وقد كانت ايزة ، بوصفها الهة ثغر الاسكندرية ، قد أصبحت حامية الملاحة ، ومن ثم فقد أصبحت تمثل ومعها الدفة ، وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ، ذو طيات كثيرة ، وعقدة على الصدر ، ثم سرعان ما انتشرت عبادتها في أوروبا حتى وصلت الى انجلترا ، عندما اعتبرت كذلك حامية للبحارة ، فعملوا على نشر عبادتها في كل مكان وصلوا اليه ^(٧) •

٤ - نخبت

كانت الالهة نخبت (نخابة) واحدة من الالهات التي كان لها دور كبير قبل عصر التأسيس ، واستمرت كذلك بعد توحيد القطرين ، ولما امتد سلطان «نخن» (البصيلية مركز ادفو) على الصعيد كله ، أصبحت الالهة الحارسة لمصر العليا كلها ، ولقبت «بيضاء نخن» ، ثم اعتبرها ملوك التوحيد راعيتهم وحاميتهم ، ثم سرعان ما أسهمت مع الكوبر (ادجو) من بوتو في الدلتا في شرف منح الملك لقبه المعروف ، لقب السيدتين أو الربتين ، وهو واحد من ألقاب الملك الفرعون الخمسة ، وكانت نخبت في عصر التأسيس (الاسرة الاولى والثانية) تصور دائما ببساطة في شكل رخمة ، وفي العصور التالية غالبا ما صورت في شكل امرأة برأس رخمة ، هذا وقد اعتبرت نخبت في الاساطير ابنة للاله رع وزوجة للاله خنتي امنتيو ، وفي العصر اليوناني اعتبرها اليونان آلهتهم «اليثي» وأطلقوا على بلدة «نخب» - وتقع على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعده ١٩ كيلا شمال ادفو ، في مقابل نخن عبر النهر - الاسم

7) F. Petrie, the Royal Tombs, II, P. 53; Z. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan, 1947, P. 27; E. A. Budge, Op. Cit., P. 202-240; W. Macquitty, Island of Isis, London, 1976; Veronica Lons. Op. Cit., P. 58-63.

وكذا

R. E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, London, 1971.

اليونانى «اليثياسبوليس»^(٨) .

٥ - وادجيت

عبدت الالهة وادجيت فى الاقليم السادس من أقاليم الدلتا ، حيث كانت مدينة «دب» (بوتو) ، على مبعدة ١٢ كيلا من دسوق مركزا رئيسيا لعبادتها ، وقد رمز القوم لها بثعبان الكوبرا ، وكانت وادجيت (ادجو - واجه) بمعنى الخضراء تقوم بحماية الملك بصفته مسيطرا على الدلتا ، كما كانت نخبت تقوم بنفس الدور فى الصعيد ، وقد انتسب الملوك الى هاتين الالهتين ، وظهر ذلك فى الاسم النبى الذى اتخذوه الملوك فى عصر التأسيس .

٦ - سشات

كانت سشات عند القوم الهة الكتابة وربة دور الكتب والوثائق ، والهة العمارة ، وكانت تقوم بوظائف زوجها الاله تحوت وكان من وظائفها تسجيل سنى حكم الملك وأعماله ، فضلا عن تسجيل اسمه على الشجرة المقدسة (شجرة السماء) فى أون ، وكذا أعمال البشر والالهة ، ومن ثم فقد سميت «سيدة الكتب» ، كما كانت سشات تساعد الملك فى تحديد مساحات المعابد عند انشائها ، وكانت سشات بصفة رئيسية معبودة ملكية تنسب الى الفرعون وحده ، ومن هنا فقد كانت وحدها هى التى تقوم ، مع الفرعون ، بمد الحبل لتحديد أبعاد المعبد الخارجية عند انشائه ، هذا وقد كان الاسم سشات من ألقاب الالهة نفتيس ، الا أنه قد انفصل عنها ليصبح شخصية قائمة بذاتها ، وقد صور القوم سشات بشكل عام كامرأة ترتدى زهرة أو رمز النجم على رأسها مع الحية التى تربطها بالملكية ، وهى تلبس جلد نمر ، وتمسك باحدى يديها

8) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 402.
وأنظر : (محمد بيومى مهران : مصر ٧٢/٢ - الاسكندرية ١٩٨٨ ،
فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ - ٤٠) .

قلمًا ، وبالأخرى محبرة أو جريدة نخيل ، لتسجل عليها عدد السنين ، وكان من ألقابها «ذات القرون السبعة» (سفخت — عبو) الذى أصبح من أسمائها التى تطلق عليها^(٩) .

٧ - سخمت

كانت سخمت أشهر الالهات اللاتى صورن على هيئة سيدات لهن رؤوس لبوات ، وكانت فى منف زوجة للاله بتاح وأما للاله نفرتوم ، وكان مركز عبادتها الرئيسى فى منف ، الى جانب مركز آخر فى «أوسيم» (١٣ كيلا شمال غرب القاهرة) عاصمة الاقليم الثانى من أقاليم الدلتاء وفى الواقع ، فلقد جاء اقترانها ببتاح ، الاله الخالق ، بسبب المقرب الجغرافى لمركز عبادتها ، أكثر من أنها قد شاركت زوجها وظائفه ، وكان دورها يُلخص فى الدفاع عن الاوامر الملكية والحفاظ عليها ، وليس خلقها وتربط الاساطير الدينية بينها وبين أبيها رع أكثر من الربط بينها وبين زوجها بتاح .

هذا وقد لتبت سخمت بالمقتدرة أو القادرة ، وكانت المهة حروب شرسة ، تصب الدماء على أعداء رع ، وقد اعتبرت عين رع ، وتمثل الحرارة والقوة المؤثرة للشمس ، وكما نعرف فان حتحور قد اتخذت شكل سخمت فى أسطورة هلال الجنس البشرى^(١٠) ، ولم تتحكم فى

(٩) الموسوعة المصرية ١ / ٢٧١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ - ٤٠ ، ٩٥ .

V. Lons, Egyptian mythology, P. 87;

W. B. Emery, Op. Cit., P. 126-127.

(١٠) أنظر :

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.

A. Erman, Op. Cit., P. 47-9.

Ch. Maystre, BIFAO, 40, 1941, P. 58-73.

G. Roeder, Op. Cit., P. 141-143.

J. Wilson, ANET, P. 10-11.

A. Pinkoff, Op. Cit., P. 27-29.

غضبها حتى كادت أن تهلك الجنس البشرى ، وقد خلد القوم ذلك في طقوس الشراب التى كانت تقام لها ، هذا وقد كانت سخمت ، شأنها في ذلك شأن الحية ، توضع على جبين رع ، حيث كانت تحمى رأس اله الشمس وتقذف أعداءه باللهب •

هذا ولم تقم سخمت بدور في اللاهوت المصرى ، الا بعد أن ارتبطت بالاله بتاح ، ولعل اسمها في اشتقاقه اللغوى من كلمة «سخم» بمعنى «قوى» و «شديد البأس» انما يدل على مجموعة صفاتها، فكانت الالهة حرب في الدرجة الاولى ، تصاحب الملك في غزواته ، فتنتشر الرعب في قلوب أعدائه ، كما كانت تحمى ايزة ، وهى التى فتكت باعوان ست في الصراع بين حور وست ، وهى التى تتغلب على الثعبان أبو فيس ، هذا وقورن بين ست وبين عدد من الالهات مثل باستت وبوتو (وادجيت) وحتحور ، كما أنها شاركت ايزة في لقبها «عظيمة السحر» •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن القوم كثيرا ما كانوا يخلطون بين الالهة سخمت والالهة باستت ، وذلك لان الفن المصرى القديم لم يكن يميز بوضوح بين رأس القطعة ورأس الاسد ، رغم أن صفات باستت انما تختلف كثيرا عن صفات سخمت ، فقد كان القوم يتحدثون عن باستت كشخص ودود ، بينما يتحدثون عن سخمت كشخص مخيف ، ومن ثم فقد كانت باستت أقرب الالهة الى حتحور ، اذ اعتبرت الالهة المرح ، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى ، ويصورونها على شكل آدمى برأس قطه ، تحمل بين يديها سستروم الراقصات ، وفى اليد الاخرى صورة رأس الاسد الخاص بالالهة سخمت ، وتتدلى من ذراعيها سلة صغيرة ، وهناك في منف معبد للالهة سخمت التى وصفت بأنها «الكئنة في الوادى الصحراوى» ، أى في الحافة الصحراوية بين منف (انب حج) وبين جبانته في سقارة ، هذا وكانت سخمت تصور عادة كأمراة لها رأس لبؤة ، وترتدى قرص الشمس والحية ، وان صورت في أحيان أخرى برأس على هيئة المتماح أو عين رع ، وأحيانا

كانت سخمت تظهر مثل الآله مين بيدها المرفوعة تلوح بسكين^(١١) .

٨ - موت

يذهب بعض الباحثين الى أن أصل الآلهة موت انما كان من بلاد النوبة وربما من بلاد بونت ، وكانت موت (الام) الهة محلية في طيبة منذ أقدم العصور ، حيث اعتبرت سيدة أشيرو Asheru في طيبة ، والآلهة الام العظيمة القادرة ، وكان اسمها في عصور ما قبل التاريخ يعنى ببساطة «الرخمة» ، كما كانت في الاصل الآلهة انثى النسر في طيبة ، واختلطت مع نخبت كالهة حامية لمصر العليا وفي عصر الاسرة الثامنة عشرة ، عندما ارتفع شأن آمون وذاعت شهرته ، زوجت له ، ووجدت مع زوجته المقديمة أمونيت ، ثم سرعان ما مثلت على شكل ملكة تزين بالتاج الذى كان يلبسه حكام طيبة ، وأصبحت أما للآله خونسو *

وكان الاحتفال بزواج موت من آمون واحدا من أهم الاحتفالات السنوية في عصر الدولة الحديثة ، فكان يخرج آمون من معبده في الكرنك ثم يبحر موكبه العظيم ليزور موت في معبدها في الاقصر ، وقد اتخذ هذا الاحتفال كمناسبة لإعلان قرارات وحى آمون ، هذا ورغم أن موت قد اعتبرت قرينة آمون ، فقد قيل أنها كانت ثنائية الجنس، وربما كان ذلك تبريرا لوضعها كأم لكل المخلوقات الحية ، وقد وجدت مع الآلهات الاخرى ، مثل نخبت وحتحور ، ولقبت بألقاب كثيرة منها «حامية الكرنك ، وسيدة الاقواس ، والساحرة العظيمة ، وسيدة السماء ، وعين رع ، وملكة كل الآلهة» *

وكانت موت تصور في هيئة سيدة تلبس التاج المزدوج ، كما كانت تصور في هيئة الرخمة (أنثى النسر) ، وقد لقبت في النصوص التي

(١١) محمد بيومى مهران : ممر - الكتاب الاول - التاريخ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، الموسوعة المصرية ١/ ٢٦٨ ، وكذا V. Lons, Op. Cit., P. 106; Urk, I, 247.

ترجع الى عصور متأخرة بلقب أم الشمس التى تشرق منها ، أما الدور العادى الذى كانت تلعبه موت ، فقد كان ممثلاً لدور «سخت» الهة الحرب ، ومن هنا أصبحت موت ترسم براس الاسد ، وأما مركز عبادتها فقد كان فى طيبة (حيث كونت ، بصفتها الالهة الام ، وأمون الاب ، وخونسو الابن ، ثالث طيبة المشهور) ، وان عبدت كذلك فى ديوسبوليس بارفا (هو = على مبعدة ه كيلا جنوب نجع حمادى) ، وفى نباتا بالنوبة^(١٢) .

٩- ماعت

كانت ماعت أو معات الهة الصدق والعدل والمثالية ، وتمثل التوازن بين التناقض فى الحياة المصرية ، بين مصر العليا ومصر السفلى (الصعيد والدلتا) وبين الوادى الخصب والصحراء ، وكذا بين الخير والشر، ومن ثم فهى أساس الحضارة والقوة المصرية ، وفى الواقع فان «معات» أو «ماعت» انما هى كلمة مصرية تترجم أحيانا بكلمة الحق ، وأحيانا بكلمة العدل ، وأحيانا النظم وأحيانا الاستقامة ، وربما صلت كل واحدة من هذه الترجمات فى سياق الحديث فى نص معين ، ولكن لا توجد كلمة واحدة منها تصلح فى كل مناسبة لتؤدى دائما المعنى المقصود ، فقد كانت كلمة ماعت صالحة للحكم الصالح أو الادارة الصالحة ، ولكن لا يمكن ترجمتها بكلمة حكم أو ادارة أو قانون ، فان ماعت كانت الصفة اللاتئة لتلك الاشياء ، عند تطبيقها ، وكان لهذه الكلمة نفس المرونة التى لكلمة حق أو عدل أو صدق أو شئ منتظم .

وكانت القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار قد نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضرورى أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر أى «ملك اله» ففى المناظر المنقوشة على جدران المعابد نرى الملك يقنم «ماعت» كل يوم الى

12) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 28-32; V. Lons, Op. Cit., P. 99-103.

الالهة الاخرى ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم ، كأنما كان هناك شيء لا يتغير ، أبدى عالمي ، يحيط بماعت .

هذا وقد اعتقد القوم أن ماعت قد تأسست عندما تم توحيد القطرين ، وأصبح الناس في سلام ، وقنعوا بنصيبهم من الحياة ، وقاموا بواجباتهم على أساس أنها ذات أمر الهى ، وبدون معات فان المخلوقات لا تعيش وبالتالي تتعطل الارادة أو الرغبة الالهية ، وكان الفرعون هو المشرف على تنفيذ ماعت وتأييدها ، ومن ثم فانه عندما ينجح ، فانه يكون قد نجح في حكم مصر ، وقدم للالهة أثمن ما يمكن تقديمه ، وهكذا فانه أحيانا يقدمها بدلا من الطعام ، حتى أن الالهة نفسها انما قد عاشت عن طريق ماعت ، هذا وقد اعتقد القوم أنها ابنة رع ، وزوج تحوت ، وأنها قد لحقت بهم في القارب الشمسى عندما أبحروا من نون في الزمن الاول وقبل أن يخلق ، كما أنها كانت الضوء الذى أحضره رع الى العالم ، فقد خلق العالم بوضعها في مكان مادة الكون قبل تكوينه ، ومن ثم فقد مثلت كواحد من طاقم القارب الشمسى .

ولم تكن ماعت كائنا من لحم ودم ، وانما هى ذلك الشيء المجرد ، هى الحق والحقيقة ، ومن ثم فهى من مظاهر الحضارة المصرية التى تبعث على الاهتمام ، وكان رجال القضاء يلقبون بكهنة ماعت ، وكانوا يمثلونها في هيئة امرأة جلسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز به الى وظيفته ، غير أن تقديس القوم للالهة ماعت لم يصل بهم الى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين ولكنها حظيت بتقدير كبير في أوساط المتعلمين ولا غرابة في ذلك ، فالحقيقة هى استمرار أهم دعامة للكمال الخلقى في عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وانى أشرب من نداها» .

هذا وقد ادعى عامة القوم أنهم في حاجة الى سند ماعت ومعاونتها

أكثر من حاجتهم الى بقية الالهة الاخرى ، ذلك لانهم لم ينتظروا ديمقراطية العقائد حول الحياة بعد الموت ليتأثروا بها عن طريق الفرعون والكهنة والقوانين الموجودة على الارض ، فقد دعى كل القضاة كهنتها ، ثم سرعان ما أصبحت أكثر أهمية للعامة عند الموقوف أمام محكمة أوزير ، فقد كانت ترشد المتوفى في صالة المحاكمة ، كما كانت توضع هيئتها بعد ذلك في أحد كفتى الميزان ، بينما يوضع قلب الميت في الكفة الاخرى ، فاذا تساوت الكفتان يصبح قلب المرء عادلا ، أى «صادق الصوت» ، أو بعبارة أخرى ، فانه يوضع في مكانه المناسب للامر الالهى ، وقد صورت معات في هيئة امرأة في القارب الشمسى أو تجلس على العرش في صالة المحاكمة الاوزيرية ، وترتدى ريشة نعام طويلة على رأسها ، وكانت تمثل بالتناوب بواسطة الريشة وحدها ، وبخاصة أثناء طقوس المحاكمة ، عندما توزن أمام قلب الميت (١٣) .

١٠ - باست

عبدت باست أو باستت في تل بسطة «برباست = معبد باستت» في مجاورات مدينة الزقازيق الحالية ، على هيئة القطة منذ أقدم العصور «ربما منذ الاسرة الثانية» ، وقد عبدت في منف منذ الاسرة الثامنة عشرة ، بعد أن اندمجت في معبودتها «سحمت» التى مثلها القوم على هيئة اللبوة ، هذا وقد تحدث هيرودوت عن الاحتفالات الكبيرة التى كانت تقام في عيدها ، اذ كان الرجال والنساء يحرقون معها الى بوبسته «أو أرتميس ، كما دعاها الاغريق» ، ويحمل كل قارب عددا كبيرا من الجنسين ، وكانت بعض النساء تدق على الطبول ، بينما يرقص بعض الرجال ، على طول الطريق ، أما البقية فيغنون ويرقصون ، وعندما يصل القوم الى بوباسته فانهم يحتفلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات كثيرة ، ويستهلكون من النبيذ في هذا العيد ، أكثر مما

13) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48; V. Lons, Op. Cit., P. 116-117; E. A. Budge; Op. Cit., P. 416-420.

يستهلكون في بقية العام ، وتردحم المدينة بالمحتفلين،حتى ليبيلغ عددهم قرابة سبعمائة ألف من الرجال والنساء ، عدا الصبية .

هذا وكانت باست تمثل في هيئة بشرية لها رأس قطعة ، أو في هيئة قطعة ، كما كانت تماثيلها تصنع من البرونز ، أما شكلها المبكر فكان قطعة من النوع البري المستأنس ، وقد أعجب القوم بها بسبب سرعة حركتها وشجاعتها ، ومع ذلك فقد ظلت باستت الهة محلية ، ولكنها اندمجت مع رع وأصبحت ابنته وزوجته ، كما ادمجت كذلك مع المعبودات الاوزيرية وقد روت الاساطير أنها دافعت عن رع ضد الحية أبيب ، هذا وقد صور ولدها «ماحس» الذى انجبته من رع في هيئة رجل برأس أسد ، مرتديا تاج «أتف» الخاص بأوزير ، أو على هيئة أسد يفترس أسيرا ، وقد وحد أحيانا مع «نفرتوم» ابن سخمت ، والتي حاول كهنتها ادماجها مع باستت في عهد الاسرة الثانية والعشرين،التي اتخذت من «تل بسطة» عاصمة لها ، ومن الالهة باستت معبودة ، ومن ثم فقد بنوا لها معبدا مثلث في جميع أرجائه .

وقد وصف هيرودوت هذا المعبد بأنه كان يقوم على جزيرة ، حيث ينساب النيل في مجريان لا يختلط الواحد منهما بالآخر ، حتى مدخل المعبد ، وكان عرض كل منهما مائة قدم ، وارتفاع المدخل مائة أخرى، وقد زخرف بأشكال ترتفع الى تسع أقدام ، ويقع المعبد في وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ، اذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمى ، بقى المعبد كما شيد منذ البداية ، ومن ثم أمكن رؤيته ، ويحيط المعبد سور حفرت عليه أشكال ، وبداخل السور فناء به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الالهة ، ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد من جميع الجهات ، وقبلالة المدخل يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة استاد تقريبا ، وهو يخترق السوق متجها نحو الشرق ، وعرضه أربعة بلايرون وعلى جانبى هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع الى عنان السماء ، وهو يؤدى الى معبد هرمس ،

(تحت) ، وبجانب هذا المعبد فقد قام القوم بتوسيع المعابد الموجودة فضلا عن مقصورة كبيرة لها من طيبة •

وقد احتلت باست في ثل بسطة مكانة حور في ادفو ، واحتور في دندرة ، كما كانت في العصور المتأخرة ، كاللهة مقاطعة ، تمثل القوى الخيرة في الشمس وتحمي الارضين ، وأحيانا كانت تمثل القمر كذلك، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت سخمت تمثل القوى المدمرة في الشمس، وقد ميزت العقيدة الاوزيرية بين الالهتين سخمت وباستت بوضوح ، كما أخذت باستت كذلك صفات حتحور ، ومن ثم فقد عرفت كاللهة للمرح والموسيقى والرقص ، وصورت في هيئة امرأة لها رأس قطة وتحمل شخشيخة وصندوقا وسلة ورأس لبؤة تحيط بها رقاب تلتف حول بعضها ، وأخيرا فلعل من الجدير بالاشارة الى أن القطط قد عولت كشيء مقدس تبجيلا للالهة باست ، كما أن مقبرة القطط المحنطة في بوباستة كانت مشهورة في العالم القديم^(١٤) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك الهة أخرى تدعى «باخت» تمثل مظهرها آخر من مظاهر «باست» وقد أقيم لها معبد صخري في بنى حسن «جبانة اقليم الوعل» ، وهو الاقليم السادس عشر ، وكانت عاصمة «لبنو» (في مكان الكوم الاحمر في مجاورات زاوية الميتين ، على مبعدة ٨ أميال شمال المنيا عبر النهر) وقد كانت تمثل برأس القطة ، وشبهها اليونان لسبب غير معروف بألهتهم أرتميس، ومن ثم فقد سموا معبدها في بنى حسن بكهف أرتميس والمعروف الآن باسطبل عنتر ، ربما نسبة الى عنتر بن شداد ، وكما قلنا آنفا ، فقد كانت الالهة «باخت» والتي كرس لها هذا الكهف ، مظهرها آخر من مظاهر الالهة القطة باست •

وكانت أيضا قريبة الصلة من «سخمت» ذات رأس اللبؤة التي

(١٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٥٩ - ١٦٢ ، ٢٦٧ - ٢٦٨ •
V. Lons, Op. Cit., P. 193;

وأنظر : جيمس بيكي : المرجع السابق ٥٣/٢ - ٥٧ •

كانت تمثل الحرارة المدمرة للشمس ، بينما كانت باخت تمثل التأثير الأكبر هدوءا لحرارة الشمس ، ففي النص الطويل الذى تركته الملكة حتشبسوت بأعلى واجهة المعبد ، تصف فيه باخت ، بأنها « باخت العظيمة التى تخترق الوديان القائمة فى وسط الأرض الشرقية ذات الطرق التى اجتاحتها العواصف » هذا وفى مجاورات المعبد جبانة للقطط البرية ، حيوان الالهة «باخت» لمقدس^(١٥) .

١١ - رننوت

كانت رننوت (رننوتت) الالهة المربية التى أشرفت على الرضاعة، كما كانت تساعد وتحمى كل طفل عند مولده ، ومن ثم فقد أصبحت شديدة الارتباط بفكرة القضاء والقدر ، ومع الاحساس بالمستقبل الطيب ، فضلا عن الغنى ، وطبقا لهذا فقد اختلطت منذ وقت مبكر مع أرنوتت ، والذى كان فى الاصل يمثل الحصاد الوفير ، واتحد مع الكوبرا التى كانت تختبئ فى أكوام القمح ، ولعل هذا هو السبب فى أن «رننوتت» اشتهرت بأنها ربة الحصاد الزراعى ، ولقبت « سيدة الحقول التى تمد الناس بالغذاء الطيب وتغمرهم بالمؤن » وكذا «سيدة الشون» .

وقد ارتبطت رننوت مع مسخنت ومعات وسوبك ، وقد صورها القوم فى هيئة حية كبيرة ، أو هيئة امرأة لها رأس الكوبرا ، التى عادة تشكل الحية الملكية ، وترتدى غطاء رأس يتكون من ريشتين أو قرص الشمس ، ومعه زوج من قرون البقرة ، كما مثلت كذلك وهى ترضع الفرعون ، وأحيانا وهى ترضع أرواح الموتى ، بل انها كثيرا ما صورت، وهى ترضع المعبود «نبرى» الذى كان يرمز لسنابل القمح ، وكان أهم أعيادها يقع فى غرة الشهر الثامن (برمودة) ، وهو الشهر الذى سمي باسمها ، وفيه يتم قياس الأرض المزروعة تمهيدا لحصادها ، هذا الى

(١٥) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٦٩ ، وكذا

جيمس بيكى : المرجع السابق ٥٨/٢ - ٦٠

A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 43-48.

جانب «عيد وزن القمح» في السابع والعشرين من برمودة ، وأخيرا في
غرة الشهر التاسع .(بشنس) حيث يحتفل القوم بها كمعبودة^(١٦) .

١٢ - حقت

كانت حقت أو «حقات» الهة الماء ، وقد ظهرت على هيئة صفدعة ،
وارتبطت في الاشمونين بالمعبودات الصفادع الاربع الذين عاشوا في
نون قبل الخلق ، وقد ولدت في أبيدوس من رع في وقت واحد مع
«سو» وأصبحت زوجته ، وكرمز للاخصاب والبعث فان حقت قد
ساعدت أوزير ليحيا بعد موته ، وأشرفت على مولد الملوك والملكات ،
وكانت تدعى عادة زوجة خنوم ، ومن ثم فقد أصبحت تساعد الامهات
في الولادة ، وكثيرا ما نراها في نقوش المعابد في مناظر خروج الاطفال
الى الحياة ، ومنذ عهد الدولة الوسطى أصبحت تذكر الى جانب خنوم
بين الهة التاسوع ، كما أصبحت الهة ميلاد كل مخلوقاته ، وقد أعطت
الحياة الى أجساد الحكام مثل حتشبسوت ، فضلا عن الرجال والنساء
الذين شكلهم خنوم على عجلة الفخار ، وقد أخذت حقت أحيانا شكلا
حتحور ، ومن ثم فقد أطلق عليها أم حور الكبير ، هذا وقد أطلق عليها
كذلك «سيدة حر - ور» ، وهى بلدة الشيخ عبادة ، والتي عرفت في
العصر الرومانى باسم «أنطيو بوليس» وفي العصر القبطى «أنطونه» ،
وتقع على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ملوى وأبو قرقاص ، وكان من
أهم ألقابها : أم الاله (إشارة الى ولدها حور - ور = حور الكبير)
و «عين ور» و «سيدة السماء» ، وكثيرا ما نراها مرسومة على التوابيت
لحماية من بدالخوا من الموتى^(١٧) .

١٣ - عنقت

عبدت الالهة عنقت (أنوكيس) في منطقة الشلال الاول ، وقد

16) V. Lons, Op. Cit., P. 113.

(١٧) الموسوعة المصرية ٢١٦/١ تشرنى : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

V. Lons, Op. Cit., P. 109.

ظهرت في العصور المبكرة كالهة لبعض جزر المنطقة ، كجزيرتي اليفانتين وسهيل ، وفي نقش المجاعة من عهد الملك زوسر ، نراها خلف خنوم وسانت بصفتها سيدة جزيرة سهيل والمشرقة على بلاد النوبة ، وقد ارتدت فوق رأسها تاج من الريش ، إشارة الى أصلها البدائي ، وان كانت في أحوال أخرى تظهر ، كما لو كانت قد رفعت شعرها الغزير ذا الصلابة المعروفة عن شعر النوبيين الى أعلا ، وجمعته في أسفله بمنديل . أحكمت ربطه حول رأسها ، وفي مناظر أخرى نراها تمسك بيديها الصولجان وعلامة الحياة عنخ .

هذا وقد دمجت عنقت في عصر الاسرات مع خنوم وسانت لتكون معهما الثلاث المقدس لمنطقة الشلال الاول ، وأخيرا أصبح مركز عبادتها في جزيرة سهيل ، وقد بنى لها معبدا هناك في عهد الاسرة الثامنة عشرة ، ولقبت بلقب «سيدة جزيرة سهيل» ، و «سيدة كل الالهة» ، كما بنى لها محراب في فيله ، هذا وقد اعتبر القوم الغزالة من حيوانات «عنقت المقدسة» فقدسوها ، وأقيم لها معبد في «كوم مرة» (كومير ، على مبعده ١١ كيلا جنوب اسنا) ، لاتزال بعض أطلاله باقية حتى الان، حيث توجد على مقربة منه جبانة خصصت لدفن جثث الغزلان (١٨) .

١٤ - ساتت

كانت ساتت (ساتى = ساتيس) بمعنى «ناترة البذور» الهة الخصب والحب ، كما كانت الهة الحياة والرطوبة ، فضلا عن الفيضان والنيل ، وقد تركزت عبادتها — شأنها في ذلك شأن عنقت — في جزيرة

(١٨) فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٣ - ٢٤ ، وكذا جيمس بيكي : المرجع السابق ٩٩/٤ .

F. A. W. Budge, Op. Cit., 57-58.

وعن نقش المجاعة : أنظر :

P. Barguet, La Stele de la Famine a Sahel Cairo, 1953.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1963, P. 132-139.

J. A. Wilson, ANET, P. 31-32.

سهيل (٣ كيلا جنوبى أسوان) كما عبت في اليفانتين ، حيث كونت مع خنوم وعنقت ثالث هذه المنطقة وذلك بعد أن اغتصبت مركز عنقت كزوجة لخنوم وأصبحت العضو الثالث في ثلاث اليفانتين ، كما كانت الالهة التى تعطى الفيضان ، وكان يطلق عليها عادة «ابنة رع» وسيدة مصر وأميرة الصعيد العظيمة سيدة اليفانتين وسيدة النوبة ، وأصبحت منذ الدولة الحديثة «ملكة الالهة» هذا وقد اعتقد القوم منذ الازمنة المبكرة أنها تقف على مدخل العالم السفلى ، وكانت تستخدم مياه أربعة أوانى لتطهير الفرعون عند دخوله مملكة الموتى •

وكانت ساتت تصور على هيئة سيدة ترتدى غطاء رأس النسر ، وتاج الصعيد الابيض ، تحيط به قرون ظبى ، وتحمل سهما ورمحا ، ومن ثم تصبح المقابل الجنوبى للالهة نيت ، كما صورت أحيانا ، وهى تصب ماء النيل وتسكبها فوق الارض ، وكثيرا ما وحد القوم بينها وبين الالهة الطيبية أمونيت ، كما وحدوا بينهما وبين ايزة في العصر المتأخر ، وبينها وبين «ايزة حتحور» في العصر اليونانى الرومانى^(١٩) •

١٥ - مسخت

كانت «مسخت» الهة الولادة واحدى آلهات الحظ والمقدر ، كما كانت واحدة من آلهات حجرة الولادة الاربعة ، ومن ثم فقد تلازمت مع «حقث» التى كانت من آلهات الولادة كذلك ، كما كانت تشخيصا لكرسى الولادة وقالبى اللبن اللذين كانت تجلس عليهما المرأة أثناء الولادة ، ومن ثم فقد صورت أحيانا في هيئة قالب من اللبن تبرز من جانبه رأس سيدة ، كما مثلت في هيئة امرأة ترتدى على رأسها ريشتين طويلتين ملفوفتين عند القمة مأخوذتين من براعم النخيل أو كنبات مائى طويل ، هذا وكانت مسخت تظهر مع غيرها من معبودات الولادة لحظة

(١٩) الموسوعة المصرية ١/ ٢٦٢ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٢ - ٢٣ ، وكذا

E. A. W. Budge, Op. Cit., P. 109.

خروج الجنين الى الحياة ، وذلك فى هيئة فتيات راقصات على أنغام الموسيقى وقد تنبأت بالمستقبل العظيم ، فضلا عن الثروة والقوة ، للمملكة حتشبسوت ، عندما أشرفت على ولادتها ، هذا وقد تزوجت مسخنت من الاله «شاي» Shai كما ارتبطت ، كغيرها من آلهات الولادة أو الحياة بعد الموت، وساعدت ايزة نفتيس فى الطقوس الجنزية، كما تدلى بشهادتها ، على هيئة المتوفى ، أمام محكمة أوزير (٢٠) .

١٦ - محيت

كانت الالهة محيت أو ماتيت الهة مدينة ثنى ونخن ، وقد مثلت فى كثير من الاختتام التى ترجع الى الاسرة الاولى على شكل لبوة جاثية يبرز من ظهرها ثلاثة أو أربعة قضبان منثنية ، أمام مقصورة مصر العليا ، كما يبدو واضحا من طبعات أختام طينية فى مقبرة الملك «جت» فى سقارة ، فضلا عن المقبرة المنسوبة للملكة «مريت - نيت» ، كما تبدو بنفس الصورة أمام مقصورتها من الاغصان المضفورة التى كانت مخصصة للبيت الكبير أو قصر الملك فى العصور التالية (٢١) .

١٧ - مفدت

وهناك من الادلة ما يشير الى أن عبادة الالهة مفدت انما ترجع الى عهد الاسرة الاولى ، ومن ذلك طبعة ختم عليه الاسم الحورى للملك «دن» وأمامه علم الالهة مفدت Mefdet ، كما عثر على آنية اسطوانية طويلة مصنوعة من الالبستر عليها نقش بارز بشكل كبير يمثل اسم الملك دن ، وأمامه الالهة مفدت ، هذا وقد سجل حجر بالرمو الاحتفال بمولدها فى حوليات الاسرة الاولى ، وقد صورت مفدت على شكل قطرة،

20) Ibid., P. 113.

وعن أسطورة مولد حتشبسوت أنظر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1907, P. 78-89.

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

21) W. B. Emery, Great Tombs, figs, 186-190, 228-230, Archaic Egypt. P. 125.

وان صورت في عصور تالية في هيئة امرأة ترتدى جلد القطة ، وكانت تعتبر الواقية من عض الثعبان (٢٣) •

١٨ - امننت

اعتبر القوم الالهة امننت حامية للمناطق التي تقع على الشاطئ الغربى للنيل بما فيها من بشر وزرع ، وقد صورت على هيئة امرأة تحمل فوق رأسها العلامة الهيروغليفية التي تعنى «الغرب» ، ولما كانت الجبانات تقع في الغرب ، فقد أصبحت هذه الكلمة تعنى أيضا مكان الدفن ، ومن ثم فقد أصبحت امننت حامية الموتى في مقابرهم ، وكانت تقدم لها القرابين من أهل الموتى في الجبانات ، وان لم تبلغ من الاهمية قدرا يتطلب اقامة معابد خاصة بها ، ولكنها كحامية للموتى أصبحت من أتباع أوزير ، رب العالم الثانى ، كما ارتبطت بحتحور ، «ربة الغرب الجميل» مقر الموتى •

١٩ - مرت - سجر

كانت «مرت - سجر» (بمعنى محبة السكون) إحدى المعبودات المصرية التي صورت في هيئة الناشر (ثعبان الكوبرا) ، فكانت تصور في هذه الصورة برأس امرأة ، كما كانت تصور أحيانا في هيئة أسد رابض له رأس ثعبان الكوبرا ، وكانت «مرت - سجر» هي الالهة الحارسة لجبانة طيبة في البر الغربى ، حيث كان هناك مركز عبادتها ، كما كان من ألقابها «سيدة الغرب» •

٢٠ - سرقت

صور القوم آلهتهم سرقت في هيئة سيدة فوق رأسها عقرب، وكانت زوجة للاله «نخب - كاو» وقد قامت بأدوار مختلفة في المعتقدات المصرية ، وخاصة الجنزية ، فكانت ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس، تقوم

22) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115.

على حراسة جثة المتوفى المحنطة ، وحماية الاوانى الكانوبية ، كما كانت تشترك مع «قبح - سنو اف» فى حماية الكبد ، هذا وقد صورت منذ عصر الدولة الحديثة على أركان التوابيت وصناديق حفظ أوانى الاحشاء (٢٣) .

٢١ - تا أورث

كانت «تا أورث» أو «أبت» معبودة أنثى فرس النهر منذ ما قبل الاسرات وقد قدسها القوم تحت اسم «البيضاء» أو «أبت» بمعنى الحريم ، أو «تا أورث» بمعنى العظيمة ، واعتقدوا أنها تساعد فى المولد اليومى للشمس ، وسموها عين رع وأم ايزة وأوزير ، وأصبحت تاأورث بالتدريج معبودة أقل أهمية فى الديانة الرسمية ، وان كانت مخيفة ، كما كانت موقرة كمعبودة منزلية ، وفى كل العصور ، وعند كل الطبقات ، كانت تاأورث هى الالهة الحامية للمرأة الحامل ، فضلا عن الطفل الوليد ، ومن ثم فقد كانت تظهر غالبا على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، مع الاله بس ، وهو يرقص حولها فى حجرة الولادة ، كما أنها ساعدت حتشبسوت عند مولدها ، وكانت توضع تماثمها ، مثل بس ، فى المقابر ، ومن ثم فقد اعتقد القوم أنها تحمى اعادة مولد (بعث) المتوفى خلال مملكة الموتى ، كما اعتبرت أحيانا زوجا لئله ست ، ومن ثم فقد اكتسبت سمعة سيئة .

هذا وقد صورت تاأورث فى هيئة أنثى فرس النهر الحامل منتصبة على قدميها الخلفيتين ، ومرتكة باحدى قدميها الاماميتين على علامة هيروغليفية تعنى الحماية ، وقد تدلت أطراف بطنها الضخمة وثنديها الكبيرتين ، وكانت تاأورث ترمز الى الاخصاب ، كما كانت تحمى الحوامل سواء كن من أمهات الالهة أو الملوك أو من عامة القوم وخاصتهم ، من

(٢٣) الموسوعة المصرية ١١٩/١ ، ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٣٦٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٥١ .

الوضع العسر ، وكانت لها معابد في طيبة وفي الدير البحري ، كما كان القوم يمثلونها على جدران المعابد وفي تماثيل مختلفة وفي تمائم صغيرة تظهرها في عقود كانت تحلى بها أعناقهم^(٢٤) .

(٢٤) الموسوعة المصرية ٧٦/١ - ٧٧ ، وكذا
V. Lons, Op. Cit., 111-113.

الفصل الثالث

تطور الديانة المصرية حتى عصر اخناتون

أخذت الديانة المصرية القديمة ، حين نشأتها وفي مراحل طويلة من تاريخها كما رأينا آنفا ، بتعدد المعبودات ، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرها في وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، وفي تطورها ، التي انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد ^(١) ، وفي الواقع فلقد كان الدين المصرى ، — كما ظل طوال الف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية وكان لكل مدينة معبودها الخاص ^(٢) .

ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، فرمزوا الى كل قوة عليا ، وعله خفية تخيلوها ، برمز حسى يعبر عن سر من أسرارها . ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وزواحف .

ثم لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ، ويتأتى عن بعضها الآخر كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها في جهات بعينها ، وفي ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز في نطاق تصوراتهم التي كانت في عصورها الاولى لا تزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول ص ٢٩٧

(٢) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 214.

رمزوا بحيوية الكبش الطلوق الى الاخصاب الطبيعى والتنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شىء من ذلك ، والى قوة البأس من مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع واللبوات الى ارباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل ، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية، وهلم جرا •

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صورة حيوانية ، وهكذا كانت الالهة القطة باست فى بوباسته ، والالهة المصل ادجو فى بوتو ، والاييس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات فى أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ، ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، ومن ثم فقد صور الاله أمون فى هيئة آدمية برأس كبش ، وصورت الالهة حتحور برأس آدمية ، ولها قرون بقرة (٣) •

هذا وقد مهدت طبيعة الالهة المزدوجة هذه الى اتجاهين متضادين ، فمن ناحية الحفاظ الغريزى على التقاليد المصرية تقوى منه الرابطة الوطنية القوية المحلية ، مما حال دون الغاء الفروق الفردية ، فبقيت رؤوس الحيوانات ، ولم يتوقف النظام العام للتعدد ، ومن ناحية أخرى كان هناك حافز قوى نحو التفرد والتوحيد فلم يعلن اله المدينة بوصفه الوحيد القوى فحسب ، بل ضغط على مطابقتها لالهة مدن معينة بالعديد من الوسائل المختلفة ، وهكذا كان سويد (سويدو) من المقاطعة العربية (كما سماها الكتاب اليونان ، وهى الاقليم العشرون فى الدلتا) ، وكان

(٣) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - الجزء الاول ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

خمن من اسفينيس ، وكان عانتى من أنتيوبوليس (قاوا الكبير) ، كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صورة الباشق ، وأحيانا كان الاسم هو المظهر العام ، بينما يختلف التجسيد ، فهناك مثلا «البقرة الالهية حتحور» فى دندرة ، لم تكن فى الواقع سوى «حتحور» التى تقوم عبادتها فى منف فى شجرة الجميز (٢) .

وكان تغيير الصورة يبدو مع بعض المعبودات عجيبا . فمثلا تحوت ، ذلك المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتابة والفصل فى القضاء ، واعتبروه كاتباً أعلى ووزيراً ، ونائباً عن معبودهم الأكبر رع ، ورمزوا اليه بثلاث كائنات حسية ، ومن ثم فقد رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قرداً ، أو أن يبرز نفسه كقمر .

هذا وقد كانت الشمس بين القوى العظمى التى باشرت نفوذها على الحياة الأرضية ، ومن ثم فقد ظهرت على وجه التأكيد أكثر استقراراً ودواماً ، كما كانت أقلها حاجة الى صور متغيرة ، ومع ذلك فإن القوم انما كانوا يتخيلونها «حر أختى أو حور أختى» (حور الافق أو حور المشرق برأس الباشق) ، أو هى ملك آدمى يحمل لقب «أتوم» أو ربما هى «جعل» يدرج كرت المروث أمامه «خوبرى أو خبرى» ، ولم يكن هذا هو كل شيء ، بل انهم ادركوا أن أهمية الاله المحلى قد ترتفع اذا أردفت اليه كلمة «رع» ، أكثر القاب اله الشمس شيوعاً ، كنعت له ، ومن هنا نلتقى بالاله التمساح «سوبك» فى أناشيده بلقب «سوبك رع» ، وفوق هذا كله كان آمون العظيم فى طيبة منذ الدولة الوسطى يذكر فى كل مكان دائماً كأنما هو «آمون — رع» (٥) .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن هناك من الالهة من كان القوم

4) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

(٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

A. Gardiner, Op. Cit., P. 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F. Urk. IV, P. 53;

ينظرون اليه وكأنه حاكم لطوائف معينة من الناس ، اعتمادا على الخصائص التي تميزوا بها عن غيرهم ، فضلا عن شهرتهم في نواحي معينة ، وهكذا كان الاله «تحتوت» بمثابة الحامي لطائفة الكتاب بسبب شهرته في العلم والحكمة ، وكان «بفتاح» بمثابة حامى الفنانين ، وكانت سخمت راعية للاطباء ، وفي العصور المتأخرة عندما أله القوم ايمحوتب ، وزير الملك زوسر ، ثانى ملوك الاسرة الثالثة ، اعتبروه الها للاطباء ، وكانت ماعت راعية للوزراء والقضاء وهكذا اتخذت كل طائفة مهنية راعيا لها من الالهة ، كما كان العامة من القوم يتخذون ، في أغلب الاحايين ، معبودهم المحلى راعيا لهم ، ولعل هذا ربما كان سببا في أن بعض وظائف الكهنوت انما كانت وقفًا على شاغليها بحكم وظائفهم في الدولة ، فالقضاة كانوا عادة كهنة لالهة العدالة ماعت ، والاطباء كانوا كهنة لسخمت ، والمشرفون على الفنانين كانوا كهنة لبفتاح (٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك من النصوص الادبية التي تركها لنا القوم ما يشير الى أن هناك طائفة منهم انما قد آمنت برب واحد خالق ، مسيطر على الكون ، ومن ثم فاننا نقرأ في نصوصهم ، «أن ما يحدث انما هو أمر الاله أو الله» و «أن صائد الطيور قد يسعى ويكافح ولكن الله (الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه و «أن ما يزرع في الحقل وما ينبت فيه انما هو منحة من الله» و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته» و «أن الله لا يعرف أهل السوء» و «إذا جاءكم السعادة حق عليكم شكر الله» (٧) .

(٦) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٦٧ - ٦٩ أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ٣١٢ ، محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الأدنى القديم ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : ايمحوتب : مصر - الجزء الثانى ص ١١٨ - ١٢٢ ، وكذا K. Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter, 1902, J. Hurry, Imhotep Oxford, 1928.

7) A. Erman, Die Literatur der Aegypter, 1923, P. 9, 89, 97, 100, 104, 112.

وأياها كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو الاله) فالذى لا ريب فيه أن القوم قد ساورتهم فكرة ، حتى وإن كانت غامضة ، عن «الله» جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وإن الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وإن أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيا حق عليهم شكره .

وانطلاقاً من هذا كله ، فإن هؤلاء القوم الذين كان هذا شعورهم وتلك أحاديثهم ، لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقّة ، ومن ثم فقد كان من المنتظر أن يتطور ذلك كله الى التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الألوهية ، التى رأينا من قبل بعض مظاهرها ، وتطورها فى قوة عظمى هى «الله» سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وإنما بقى القوم قرييين من التوحيد ، ينسبون كل شىء فى هذه الدنيا الى قوة خارقة يذكرونها فى نصوصهم على أنها «الاله» ، إلا إذا كانوا يعنون بها الذات العلية ، وهذا ما لا نستطيع القول به دون أن يخالجنا ريب فى أن مانقله هو الحق المصرح .

وعلى أى حال ، فإننا نقرأ فى نصوص الأدباء «إذا لم تتحقق نبوءات الناس ، فذلك إرادة الله» و «لا تكن بخيلاً بما تملك من ثروات ، فإنما أنت تملكها بهبة من الاله (الله) ، ونقرأ فى نصائح الحكيم بتاح حتب «لا تتسبب فى تأنيب والدتك ، ولا تجعلها ترفع يديها تستنجد بالاله (الله) فإنه سوف يجيب دعاءها» ، ونقرأ فى نصائح الحكيم آنى (من القرن السادس عشر قبل الميلاد) «إن مكيالاً من الحب يعطيه لك الاله (الله) لهو أفضل من خمسة آلاف تأنيك بطريق غير شريف . ، و «محبوب الاله (الله) من يحترم الفقير أكثر مما يمجّد الغنى» .

وهكذا كان القوم الذين يعتقدون فى تعدد الالهة إنما كانوا فى نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد ، بطريقة خاصة فى التفكير لا ندرکها

نحن اليوم ولا نستطيعها ، ومن هنا فاننا نلاحظ أن كلمة «الاله» التي جاءت في أدب الحكمة والنصائح ، وفي عديد من النصوص والسير الذاتية المنقوشة على اللوحات وعلى جدران المقابر ، وفي عديد من الاعمال الادبية ، انما يظهر فيها «الاله» ، دونما لبس أو غموض ، بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيعنا طبيعيا للغاية ، ما دامت هذه النصائح قد خرجت من نفس الاوسط المثقفة ، التي خرجت منها النصائح الانفة الذكر (٨) .

على أننا نقرأ في نفس الوقت ، وعلى نفس المنشآت التي جاءت فيها هذه الحكم ، أسماء كثيرة أو قليلة لبعض الالهة المختلفة ، ولم يضايق هذا التقارب المتضارب مؤلفي هذه النصوص ، لان معظمهم كان يتقبل وجود اله واحد ، يهب بعض ما يملك من قوة خارقة الى بعض المخلوقات الالهية الاخرى ، وهكذا كان القوم يؤمنون بالتوحيد ، ويتعدد الالهة في نفس الوقت ، بطريقتهم الخاصة في التفكير ، وانطلاقا من هذا ، وتخريجا منه ، فلقد رأينا أهل الفكر منذ الدولة القديمة ، على الرغم من تطلعهم الى معبود مطلق يرجونه للدنيا والاخرة ، ربما لم يشعر أحدهم بما يدعو الى تغيير عقائد قومه .

وقد فوت على أهل الفكر احساسهم بضرورة التغيير والتوحيد أسباب عدة ، منها (أولا) أنه كان من الميسور أن يلتمسوا دفعا مقبولا للتغيير والتوحيد ، لو تباينت عقائد قومهم ، ودعا بعضهم الى سبيل المعروف ، وأجاز بعضهم سبل المنكر ، ولو تأتى هذا التباين عنها ، لتتكر بعض المؤمنين لبعض ، وضاقوا بتضارب العقائد وأربابها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظلت عقائد المصريين متشابهة في جملتهما ،

(٨) محمد بيومي مهران : اخناتون : عصره ودعوته ، الاسكندرية

١٩٧٩ ص ٢٩٥ - ٣٠٠ .

F. Daumas, La Civilisation De L'Egypte Pharaonique, 1965, P. 313-314.

E. Devaud, Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916.

M. Lichtheim, Op. Cit, P. 135-146, J. Wilson, ANET, P. 420-421.

تستحث العدالة «ماعت» بمعناها الواسع ، وتدع تحديدھا للمعرف وقوانين الفرعون ، وتدعو الى الايمان بالحياة الاخرة ، وتدع تصويرھا للكهان وأخيلة المؤمنين •

ومنها (ثانيا) أنه كان من الميسور أن يتوفر حافظ آخر لدعوة التوحيد لو أسرفت طوائف المصريين في التعصب لأربابها ، وأسرفت في عداتها لمن عاداهم من الارباب ، لو حدث هذا لاضطر أهل الفكر الى الدعوة الى معبود واحد ، لا يتأتى عن عبادته فرقة أو نزاع ، ولكن المصريين استطاعوا أن يتناسوا تعدد أربابهم وتباين أتسكالهم بسبيل أربعة ، شافترضوا حالات أسرية بين أرباب الحواضر المتقاربة ، وافترضوا قرابة وثيقة بين الارباب في مجموعهم ، بين الفرعون الحاكم ، وبينهم وبين جدھم الاكبر خالق الوجود ، وأنزلوا بعض أربابهم منزلة الاولياء والقديسين واتخذوهم وسيلة للزلفى الى آلهة الدولة الكبار ، وتصادف أن روى المصريون أخبار خصومة عنيفة بين ثلاثة من أربابهم المكبار أوزير وحمور في جانب ، وست في جانب آخر ، ولكنهم تعمدوا في الوقت نفسه أن يخدعوا أنفسهم عن هذه الخصومة بأنها حدثت وأنتهت في زمن بعيد ، وأن رب الوجود استنكرھا ، وأورث بأس الارباب الثلاثة للفراعين منذ أمد طويل (٩) •

ومنها (ثالثا) أنه لو اقتصر مسعى رجال الدين على الكهنوت وحده ، أو اقتصرت صفوفهم على طائفة بعينھا ، ولو تم ذلك لتضخمت نقائصهم وغيوب عقائدهم ، وخاض المتحررون في أمرهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل الكهنة المصريون يعملون لشئون الدين والدنيا معا ، واستمروا في حياتهم الخاصة بما يأخذ به كل الناس ، واتسعت صفوفهم لكل من توفر له خط من النفوذ والمعرفة ، ولم تأب جماعة منهم أن يسهم الامراء ورجال الحكم في الاشراف عليها ، أو يسهم أحد أفرادھا

(٩) عبد العزيز صالح : الواحدانية في مصر القديمة ص ١١ - ١٢

وكذا F. Daumas, Op. Cit., P. 214;

في خدمة معبود غير معبودها ليستفيد من موارد معبده ، وترتب على ذلك كله ، أن غدا معظم الكهان والمثقفين وأصحاب السطان المصريين ضالعين جميعا في الابقاء على كثرة المعبودات ، مشتركين جميعا في النفع منها .

ومنها (رابعا) أن الفكر المصرى القديم لو ترمت وأبى أن يتقبل ما كان يحدده أهله من حين الى حين من المذاهب المستحدثة المقبولة ، ولو تأتى ذلك لقابل المجددون صلابة المترمتين بمثلها ، وتكرر الصدام بينهم حتى يقضى الى التغير المنشود ، ولكن حدث على الضد من ذلك أن نجحت عهود الدولة القديمة فى التخلص من التزمّت الشديد وعواقبه ، واتصف الفكر خلاله بمرونة نسبية تقبل معها بضعة مذاهب جديدة ، واستطاع أن يساير أصحابها فى أناة أطفأت حماسهم وقللت اندفاعهم نحو ضرورة التغيير^(١٠) .

وهكذا ظل المصريون يؤمنون بالمتعدد وبالوحدانية فى آن واحد ، ولعل فكرة الخلق فى مصر القديمة انما تعطينا صورة لذلك ، فالتراث الشعبى يقدم لنا ما يفيد أن الاله الخالق انما هو «آمون» وهو «بتاح» وهو «رع» ، وهو «خنوم» ، ومن عجب أن هذا يرد فى نص واحد ، وليس فى مجموعة من نصوص مختلفة ، مما يؤيد وجهة النظر القائلة أن الفكرة الشعبىة عن «الاله» انما كانت الواحدانية ، وان أسماء الالهة ليست الا تعبيرا عن اله واحد فى مظاهر مختلفة لهذا الاله ، ولكنها لم تكن تعبيرا عن آلهة متعددة .

وبدهى أن هذا لا يعنى أن القوم تصوروا الاله الخالق ، على أنه اله واحد لا شريك له ، بمفهوم الواحدانية المعروفة فى الديانات السماوية ، والتي تظهر أوضح ما تظهر ، دونما لبس أو غموض فى الاسلام — دين التوحيد المطلق — وانما تعنى أن المصريين القدامى

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ .

انما قد آمنوا بوحدانية الاله الخالق ، مع اعتراقهم بوجود آلهة أخرى ،
لعل مهمتها الاولى أن تبرز صفات هذا الاله الخالق ، ومن ثم فقد
نظروا اليه على أنه آمون في خفائه وهوائه ، وأنه رع في ضيائه ، وأنه
بتاح في صناعته ، وأنه خنوم في تشكيله للبشر ، وفي اعطائهم صورهم
على عجلة فخاره ولعلنا نستطيع أن نسمى هذا التوحيد المصرى — بحذر
شديد — نوعا مما يمكن أن يطلق عليه وحدانية تغليب رب من الارباب
على بقية الارباب ، وليس ، بالتأكيد ، توحيد تفكير أو توحيد مطلق •

وأيا ما كان الامر ، فلقد بدأ القوم منذ أخريات الدولة القديمة ،
وعلى أيام الثورة الاجتماعية الاولى ، وحتى أوائل عهد الدولة
الوسطى ، يتجهون الى الشمس باعتبارها الها خالقا ، والها أكبر في
آن واحد ، ثم اتجهوا اليه بأربابهم القدامى ، ووصلوا بينهم وبينه ،
وجعلوا اسمه قاسما مشتركا مع أسمائهم ، ولكن دون أن يحاولوا
افناءهم فيه ، فأطلقوا عليه أسماء «سوبك رع» و «أمون رع»
و «تحتوت رع» و «بتاح رع» وهلم جرا ، وأوهم القوم أنفسهم أن
من أجازوا عبادتهم من الارباب الكثيرين ليسوا في غالب أمرهم غير
أوجه عدة من جوهر واحد ، وصور مختلفة من كبيرهم «رع» ، وأنه
ليس مما يؤثر في فردية الجوهر أو المعبود أن تختلف صورته وتتعدد
وجوهه ، ثم تعودوا الربط بين اله الشمس وبين بقية الارباب الى
الربط بين كل رب وآخر من هؤلاء الارباب ، فأصبح أصحاب الاله
بتاح لا يأنفون من تسميته «بتاح سوبك» أو «بتاح خونسو» وأصبح
أتباع الاله «مين» لا يأنفون من تسميته «مين أمون»^(١١) وهكذا •

ونقرأ في متون التوابيت من عصر الثورة الاجتماعية الاولى نصا
يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليفة ، وقد جاءت فيه عبارات
كانت سببا في أن يوضع هذا العصر في مرتبة أرفع من روح العصر

(١١) عبد العزيز صالح : الوحدانية في مصر القديمة ص ١٣

السابق أو اللاحق له ، حيث يذكر الاله الخالق أنه خلق جميع الناس منسويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل الانسان ، كما أنه خلق أربعة أشياء وساوى بينهم فيها ، «لقد صنعت الرياح الاربعة لكي يتنفس منها كل انسان مثل زميله ابان حياته ، وذلك أول الافعال ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، لكي يكون فيها للفقير ما للعظيم من حق ، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل زميله ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد خلقت الاقاليم ، وذلك رابع الافعال ، وانى وان أوجدت الارباب الاربعة من رشحى ، فالناس أوجدتهم من دموع عيني» (١٢) .

والنص واضح في أن القوم كانوا يؤمنون بالله واحد خالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، وهذا يعنى أنهم لم ينسوا ما ورثوه عن التعدد والتشبيه ، فظلوا يديحونها معا ، ولم يقدموا ما يبررون به تناقض أحوالهم ، فقال قائلهم على لسان الملك «خيتى» ملك اهناسيا ، وهو يبين لولده حكمة ما يراه لاله من تماثيل وهيئات «اخفى الرب ذاته بذاته ، ولكنه يعلم طباع البشر ، ويدرك أن ذا الايدى لايقاوم اذا كان محسوسا فيما يراه البشر ، فاعبد الرب على هيئته التى ارتضاها ، سواء صنعت من حجر أو شكلت من معدن ، واذكر انه اذا كان الجدول الصغير يطمسه الطمى ، فالنهر الكبير يأبى أن يحده حد ، وأن الرب كالنهر قادر على أن يتحرر مما يستره ويحتويه» (١٣) .

واستمر القوم في اتجاههم نحو وحدة الربوية على أيام الدولة الوسطى ، وأستطاعوا أن يطرقوا معان جديدة للتعبير عن سعة ملكوت

12) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221-222;

J. Wilson, ANET, P. 7-8.

وكذا

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(١٣) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ص ٣٠٥ .

A. H. Gardiner, JEA, I, P. 20 F; ANET, P. 414.

ربهم ومطلق عدالته فأشادوا برعايته لشئون الخلق أجمعين . بنـض
النظر عن اختلاف لهجاتهم وألوانهم ، وقالوا يسبحونه باسم آتوم
(آى التام المكمّل) ، وقد غدا صورة لاله الشمس ، قالوا «آتوم
خلقت البشر جميعا ، ونوعت هياكلهم ، ووهبت الحياة لهم جميعا ،
وفرقت بين ألوانهم ، يا سميعا لرجاء الأسير ، يا لطيفا بمن دعاه» (١٤) ،
وفى أخريات القرن السادس عشر قل الميلاد ، ومع بداية الدولة الحديثة
تهيئات للوحدة آفاق جديدة ، تحت قيادة آمون اله الدولة ، وقبل ذلك
اله الاسرة التى حققت لمصر تحت لوائه ، بعد حرب ضروس ، تحرير
التراب المصرى من دنس الهكسوس ، ثم تمكنت تحت لواء آمون من
تكوين امبراطوريتها الواسعة ، وصد غارات المغيرين عليها من الشرق
والغرب ، ومن ثم فقد بدأ القوم ينسبون اليه ربوية النشأة الاولى
والاخيرة واعتبروه ربا للوجود ، ثم سرعان ما نسبوا اليه صفات
مونتو ، ونعوت تحوت ، وأسرفوا فى ذلك الى حد كبير .

هذا وقد ترتب على اسراف أنصار آمون فى تمجيده أن ظهرت له
طائفتان من التسابيح ، طائفة غلب الخلط عليها ، وبعد بها عن مطلق
التوحيد وأخرى وضح القصد فيها ، ودنت من دائرة التوحيد الى حد
كبير ، وحاول أصحاب هذه الطائفة الاخيرة أن يصوروا جوهر ربهم ،
وابتغوا به جوهر رب الخليقة والوجود ، أياما أحاط به من أسماء
ونعوت ، ولما تبينوا أن عقائد عصرهم جمعت الى آمون الخفى ،
ريوية الهواء والماء والخلق والاختصاص والشمس والدولة على الاطلاق ،
ارتضوه ذلك منها وفسروه بما يشبه عقائد الحلول ، فصوروا ربهم
على أنه فرد مطلق خفى ، ولكنه حفاظ كل شئ ، حبال فى كل شئ ،
موجود فى كل شئ ، ثم وصفوه بقولهم أنه «أبر من فى السماء ، وأسن
من فى الارض ، رب الكائنات ، حفاظ كل شئ ، وباق فى كل شئ» (١٥) .

(١٤) عبد العزيز صالح : الوجدانية فى مر القديمة ص ١٣ ، الشرق
الادنى القديم ص ٣٠٥ .
(١٥) نفس المرجع السابق ص ١٤ .

وهناك أنشودة من عصر «أمنحتب الثالث» ، وهو العصر الذى يسبق عصر الثورة الدينية الكبرى مباشرة ، نعرف منه كيف تغيرت عبادة «أمون رع» تدريجيا الى عقيدة خالصة فى اله الشمس ، وكيف اكتسبت صفة العالمية فى شكل آمون المعبر عن المصفة الشمسية ، ذلك لان الشمس انما تضىء فى كل مكان فى هذا العالم ، ومن هنا فان هذه الانشودة التى كتبها شقيقان هما «سوتى» و «حور» وكانا يعملان مهندسين معماريين فى طيبة ، الواحد فى طيبة الشرقية ، والاخر فى طيبة الغربية ، ويتعبدان فيها للاله آمون ، انما تشير الى صفة عالمية فى تعبيراتها ، وقد جاء فيها :

«للك الحمد يا شمس كل نهار ، يا من تشرق فى غير فتور فى كل صباح ، أنت «خبرى» الذى يجهد نفسه فى العمل ، يفوق جمال أشعتك بريق الذهب الوهاج ، أنت بتاح صانع مصور لنفسك بنفسك ، أنت من تفرد بذاته وصفاته ، مخترق الابدية ، ومرشد الملايين الى سواء السبيل ، يراك الخلق عندما تذرع السماء ، ولا يدركون كيف مسيرك ، انك تذرع الكون بغير قيد ، ونهار الناس من تحتك ، فاذا ما استويت فى غرب الدنيا دانئت لك ساعات الليل ، واذا ما طويتها استقبل الكون نورك ، وسعى الخلق فى الدنيا بأمرك» .

«لك المجد يا أتون النهار ، يا خالق الخلق ، ورازقهم ، أنت أيها الصقر الكبير ، ذو الريش المختلف الالوان ، أنت ولدت لتنشئ نفسك ، وجئت من نفسك بنفسك دون أن تولد ، أى حور المسن فى وسط آلهة السماء ، ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا ، أى خالق ما تنتجه الارض ، أنت خنوم وأمون البشر ، الذى تملك القطرين من أكبر الاشياء الى أصغرها» .

«أنت أم نافعة للالهة والبشر ، أنت الخالق الطيب الذى يتعب نفسه من أجل مخلوقاته ، راع شجاع يسوق ماشيته وهو ملاذها ومدير حياتها ، الرب الاوحد الذى يصل الى أطراف الكون فى كل يوم ، يرعى

كل ما فيه من دابه ، أنت يا من تشرق في السماء، يا من ينير العالمين
بكوكبه ، مبدع الفصول والأهلة ، فالحرارة عندما تريد ، والبرد عندما
تشاء ، أنت يا من يطوى الاعضاء ويحتضنها ، كل بلد يتوصل اليه عند
طلوعه ، ليسبح بحمده» (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاخوين ، سوتى و حور ،
انما يحصفان اله الشمس بصفات ذات علاقة بعصر الثورة الاجتماعية
الاولى مثل قولهما «راع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدير
حياتها» ، وهو وصف يذكرنا بما جاء في نصائح اختوى لولده «مرى
كارع» عندما وصف الناس بأنهم «رعايا الاله» (قطعان الاله) ، كما
يذكرنا بما جاء في تحذيرات «أيو - ور» من نفس العصر بأن الاله
«راع للناس كافة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ذلك النعت الخطير ،
والذى يوصف فيه اله الشمس بأنه «أم نافعة للالهة والبشر» ذلك
لانه يحمل بين ثناياه فكرة مشابهة تشعنا بالاهتمام ببنى البشر ، أى
النواحى الانسانية فى سلطان اله الشمس التى اشتهرت فى ايجادها بوجه
خاص رجال الفكر فى عصر الثورة الاجتماعية لم تختف بين العوامل
السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد (١٧) .

على أن الاخوين ، سوتى و حور ، رغم انهما وصفا اله الشمس
بأنه «الرب الأوحد» ، فان هذا لا يعنى استبعاد لآلهة أخرى ،
ففى المناظر والنقوش التى تحيط بالنقش الرئيسى يذكر الاخوان فى
صلواتهما : أوزير وأنوبيس وآمون رع وموت وخونسو وحتحور ، على
هيتين ، ورع - حر أختى ، وسوكر وإيزه ، والملكة المؤلهة احمس
نثرتارى ، فان تركيز اهتمامهما فى «اله واحد» لا يعنى أبدا انكار الالهة
الأخرى ، هذا فضلا عن أن الاخوين لم يكتفيا باسم واحد لالههم ، ولم

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211; J. H. Breasted Op. Cit., P. 275-276
A. Varille, BIFAO, XLI, 1942, P. 25 F; F. Daumas, Op. Cit., P.315.

17) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 167; JEA. I, 1914.
P. 34. ANET, P. 417.

ينزهوه تماما عن التشبيه ، ولم ينكروا تعدد المعبودات الى جانبه ،
فوسفوه فردا وكبيرا لجماعة الارباب في آن واحد ، ونزهوه عن
المادية ، وتخليلوا له صورا كثيرة في آن واحد •

وهكذا يبدو واضحا أن القوم في عصر الدولة الحديثة ، رغم أنهم
قد اعتبروا «أمون» إله طيبة ، و «حور الأفق» و «خنوم» إله
اليفانين ، و «أتوم» إله عين شمس ، إله واحد ، ورغم أن أناشيدهم
تشير الى أنهم قد اتجهوا هذا الاتجاه في توسلاتهم الى الخلط الإلهي
المكون من ادون ورع حر أختي وأتوم ، باعتباره «إله واحد» كما
اندمج في الدولة الوسطى أحيانا بتاح وسوكر وأوزير ، فصاروا إله
واحدا ، فإن وجود المعابد المختلفة يثبت أن هذه لم تكن الا أقوالا
شعرية جوفاء ، فطالما كان أمون ورع وحور ، ما زالت لهم معابدهم
الخاصة الغنية ، وكهانتهم الخاصة بهم ، فإن ادماج هذه الإلهة في
وحدة واحدة حقيقة ، لا يمكن أن يكون تاما ، بالرغم من هذه العبارات
البيمية الطائفة (١٨) •

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن كهنة أمون قد قاوموا
بطبيعة الحال هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الآلهة في عصر
الدولة الحديثة ، ذلك لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء ، بحيث
تطبخ هذه النظريات بثرائهم ، وليس من قبيل الصدفة أن تكون المحاولة
الوحيدة العملية التي نعرفها في هذا الأمر ، قد اتجهت في انتصار
دؤقت الى ثورة غضب جامحة ضد آمون ، كما لو كانت قبولت بأشد
مقاومة من أنصار وكهان هذا الإله ، وقد قام بهذه المحاولة اخناتون بن
امنحتب الثالث ، الذي نادى باله واحد ، هو «أتون» •

ولعل السبب في مقاومة النظريات التوحيدية إنما يرجع الى صعوبة
النخلص من القديم الموروث ، والى سماحه المتعبدین ، والى تشابه

18) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211-212; A. Varille, Op. Cit., P. 25 F;
J. S. Garnot, JEA, 35, 1949, P. 63 F.

سبل الدعوة الى المعروف عند اتباع معبود ، والى افتراض القرابة الوثيقة بين الارباب المختلفين ، والى منطقية التبرير بأن الاله الاكبر ، هو الذى خلقهم بأمره ومن نفسه أو من رشحه ، وأمر برعايتهم ، والى مرونة الفكر الدينى التى لم تأب أن تتقبل الجديد ، وتضعه جنبا الى جنب مع القديم ، والى استغلال الشراعين لكل هذه العوامل لكى يحولوا بها دون تركيز التفكير الدينى فى أيدي كهنوت معبود واحد ، ولكى يوجهوا أتباع كل معبود أنهم معهم ولا يأبسون عليهم حرية عقيدتهم^(١٩) .

(١٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣١١ - ٣١٥ ، عبد العزيز صالح : الشرق الاذننى القديم ص ٣٠٧ ، أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

الفصل الرابع

دعوة التوحيد

(١) أتون قبل اخناتون :

رغم أن كثيرا من العلماء انما كانوا ، الى عهد قريب ، يعارضون
الرأى القائل بأن عبادة أتون ذات جذور تاريخية ترجع الى ما قبل
أيام اخناتون^(١) ، فان هناك ما يشير الى أن كلمة «أتون» كان لها
مضمون تاريخى يرجع الى عهد الدولة الوسطى على الاقل^(٢) ، اذ أن
هناك من يرجعها الى عهد الدولة القديمة ، وانها قد ذكرت ، لأول مرة ،
فى متون الاهرام ، وعلى أى حال ، فهناك عبارة مبهمه يكثر استعمالها
منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وترجمتها «سيد كل ما يحيط بالقرص» ،
وهى نعت يستخدم غالبا لـ «أتون الحى» ، والذي كان موضع ديانة
اخناتون ، والكلمة التى تترجم الى قرص تشير بوضوح الى الجسم
«الغورانى المرئى» ، وقد تستخدم أحيانا بمعنى «الاله» ، وليس بمعنى
قرص الشمس *

وهناك لوحة من عهد أحمس الاول ، جاء فيها أنه «حكم ما يحيط
به أتون» ، وان كان النص لم يستعمل المخصص المقدس ، هذا فضلا
عن عبارة أخرى جاءت على نفس الاثر ، تقول «ان الملك يرى وكأنه
رع ، عندما يشرق مثل أتون ، ومثل خبرى فى عيونه ، وأن أشعته تشبه

(١) أنظر : (محمد بيومى مهران : اخناتون : عره ودعوته -
القاهرة ١٩٧٩ ص ٣١٥ - ٣٣٦ .
(٢) أنظر :

A. Erman and H. Grapow, Worterbuch, I, P. 145.
Marianne and Doresse, JA, 23, 1941-1942, P. 131 F.

وجوه أتوم في غرب السموات» ، والاشارة هنا الى أتون انما تعنى «الاله» ، رغم عدم وجود المخصص المقدس ، ومن ثم فهمي في نظر بعض الباحثين لا تعنى الشمس الطبيعية ، وانما تعنى اسم الاله ذاته ، ولعل مما يؤيد هذا الاستنتاج أن هذه الفقرة القصيرة جاءت وسط جزء أكبر يتناول الملك والوهيته ، وهناك عبارة تشير الى موت أمنتب الاول جاء فيها «(صعد الاله عاليا الى السماء واتحد مع اتون)» ، وبدهى أن أتون هنا لا يعنى القرين الطبيعى للشمس (٣) .

وهناك اشارات الى أتون في نقش يرجع الى عهد تحوتمس الاول جاء فيه «أنه رئيس البلدين ، وأنه يحكم ما يحيط به أتون» ، وفي هذا النقش لا مجال للمناقشة حول معنى كلمة «أتون» كما في معبد الكرنك ، وفي نقش بعثة بلاد بونت على معبد الدير البحرى ، والامر كذلك بالنسبة الى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث وولده أمنتب الثانى ، غير أن الاشارات الى «أتون» انما ترد بكثرة منذ أيام تحوتمس الرابع، حتى ذهب البعض الى القول بأن تأليه أتون حقيقة انما يرجع الى عهد هذا الفرعون الذى صدر فى عهده «جعران» تذكارى كبير المحجم سجل عليه نص جاء فى آخره»... أنه «(أى تحوتمس الرابع) اذ حرص نفسه على القتال ، وآتون أمامه ، فانه ينسف الجبال ، ويدمر الاراضى الجبلية ، ويدرس نهريين وكاروى ، لكى يخضع سكان الاقاليم الجبلية، كما أخضع الناس (أى المصريين) حتى يعبدوا أتون الى أبد الآبدين» .

وهناك قطعة حجرية من العمارنة يشاهد فيها تحوتمس الرابع وهو يقدم قربانا لآتون ، هذا فضلا عن أن فنون هذا العصر انما تشبه الى حد ما فنون العمارنة كما أن آثاره تشبه تلك التى من عصر اخناتون. فى كونها لم ينقش عليها الا اسم الفرعون وقد خلت من كل نقش سحرى ،

3) F. J. Giles, Ikhanton, Legend and History, 1970, P. 111-115; J.A. Wilson, Op. Cit., P. 209-210; G. Foucart, BIFAO, XIV, 1924, P. 131; Urk., IV, P. 16, 19, 34; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 271.

الامر الذى لم يتكرر الا مع تحوتمس الرابع واخناتون ، وهناك لوحة
عثر عليها فى «(سدد منت)» (أمام مدينة اهناسية عبر بحر يوسف)
ترجع الى عهد تحوتمس الرابع ، وربما الى فترة مبكرة من عهد ولده
أمنحتب الثالث جاء فيها «(انك ترى أتون فى مسيرته اليومية ، وان
وجهك يرى أمون عندما يشرق)» ، ولعل الجديد هنا أن لفظه أتون تحمل
المخصص المقدس الذى لا تحمله لفظة أمون ، وان كان أتون ، وكذا
أمون ، قد صورا هنا على أنه اله شمسى^(٤) .

وانه لمن الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن اسم «أتون» قد تسرب
الى الجيش ، ومن ثم فقد رأينا بعض سراياه تدعى «(سرية بهاء أتون)»
و «(السرية الملأة كأتون)» ، ثم سرعان ما أرهص اتباع الشمس بالرمز
الجديد لمعبودهم وقدموه لفرعونهم ، وصوره على هيئة قرص مجنح ،
تتدلى منه يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعون ورسمه بالحماية
والرعاية ، على أن الامر انما يزداد وضوحا منذ عهد أمنحتب الثالث
مما يشير بوضوح الى ان الثورة انما كانت على الابواب ، فهناك كتلة
حجرية ترجع الى عهد هذا الفرعون ، وقد رسم عليها ملك يتعبد لاتون
الذى صور فى هيئة رجل له رأس صقر يعلوه قرص الشمس ، وقد
سمى الاله هنا «(حور الافق ، السعيد فى أفقه ، فى اسمه شو ، الذى
هو أتون)» .

ولعل أهمية هذا الاثر فى أنه الشاهد الوحيد على أن هناك معبدا
أقيم للاله أتون على أيام أمنحتب الثالث ، ولعل كل هذا انما يشير الى
أن أتون انما كان يتلقى بالفعل عبادة فى طيبة فى معبد مدينة أمون ،
قبل ثورة العمارنة ، أو ان الفرعون انما قد خصص معبد مونتو فى

4) R. A. Parker, JNET, 16, 1957, P. 42; S. Hassan, ASAE, 38, 1938,
P. 53-55; A. W. shorter, JEA, 17, 1931, P. 23 F; F. J. Giles, Op.
Cit., P. 115-119; H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 270; F. Petrie
and G. Brunton, Sedment, II, Pl. III; Urk. IV, P. 266, 332, 341,
575-582.

الكرنك لعبادة أتون ، وأن هذا الاله ، انما كان فيما يبدو ، ذا صلة ووافق مع الاله آمون •

وعلى أى حال ، فان الفحص الدقيق للنصوص من عهد أمنحتب الثالث انما يشير الى استخدام أوسع نطاقا للاصطلاح «أتون» أكثر من ذى قبل ، فهناك لقب «أتون يشع» الذى أطلق على قارب الملكة «نتى» الذى كانت تتريض فيه فوق البحيرة التى حفرت تكريما لها ، كما نقرأ على نقش الجعل الكبير فى الكرنك «أنت سيد كل ما يضىء أتون» ، كما أن هناك تمثالا للالهة سخمت يحمل اسم «سخمت أتون» هذا فضلا عن ذكر أتون على كثير من آثار رجال ذلك العهد ، كما فى تمثال الوزير «أمنحتب بن حابو» ، وفى مقبرة الوزير «رع موسى» ، وفى مقبرة «نخع أم حات» المشرف على التلونة المزدوجة ، وعلى جرافتى لموظف نوبى ، بل أن هناك مسألة مفقودة من سقارة بها اشارات عن كهنة لمعبد أتونى ، يرجع الى ما قبل أيام العمارنة ، رأى البعض أنه كان فى منف أو هليوبوليس ، وربما فى كل منهما (٥) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن اخناتون لم يخترع قرص الشمس الذى يمد الناس بالحياة كراى فلسفى ، بل أنه وجده جاهزا بين يديه ، وان كان هذا لا يعنى —بحال من الاحوال — الانتقال من اقدام أمنحتب الرابع وجرائه ، فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التى لم تقترب بأى اجراء جدى محدد الاهداف ، ومنها (ثانيا) أنه ليست هناك ديانة ما تبدأ من فراغ ، ومن ثم فان ديانة أتون لا بد وأن يكون لها جذور فى ديانات أخرى سبقت •

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٣٦ •

F. Giles., Op. Cit., P. 119-123; J. H. Breasted, ZAS, 40, 1902, P. 112; G. Legrain, ASAE, III, 1903, P. 265, IV, 1904, P. 148; Urk., IV, P. 1737, 1754, 1819, 1833; S. R. Glanville., JEA, 15, 1929, P. 6; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217.

ومنها (ثالثا) أن لفظه أتون قد تعنى أكثر من معنى ، وتستعمل في أكثر من غرض ، كما ظهر ذلك في نصوص من الدولة الوسطى ، وأخرى من الدولة الحديثة ، ومرة استعملت اللفظة مع المخصص المقدس ، ومرة بدونها ، ولعل ذلك كله انما يشير الى أن القوم بدأوا يرددون اسم «أتون» منذ عهد الدولة الوسطى ، على الأقل ، بمعنى الكوكب أو قرص الشمس ، ثم اتجهوا به وجهتين ، الواحدة لفظية يدل فيها على كوكب الشمس والأخرى دينية ينم فيها عن الاله المتحكم في كوكب الشمس ، فكانوا اذا عبروا عن اتساع سلطان فرعونهم ، قالوا : انه يسيطر على ما يحيط به اتون ، واذا عبروا عن لحاقه بالرفيق الاعلى قالوا : ألحق بأتون ، واذا بشروه بسعادة الآخرة ، دعوا له أن يرضى عنه الاله المستقر في أتون •

ولما طال ترديد الادباء لاسم أتون ، استحبه المؤمنون الجددون ، ورجحوا الصيغة الملاهوتية فيه على الصيغة الادبية ، ورأوه يكفى للتعبير عن اسم ربهم ورمزه ، وأقنعوا أنفسهم بأنه لا يقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا له بآية الشمس ، فما من ريب في أن من يدبر أمر كوكب الشمس ويتحكم فيه وينظم مسيرته ، قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها ، وأن من حصن كوكب الشمس بآية النور والنار والضخامة وقدرة الاخصاب ، دون سائر الكواكب ، قمين بأن يرتضى من عباده أن يتخذوا الشمس له رمزا وآية •

وعلى أى حال ، فان أتباع الشمس انما أوشكوا أن يتصدروا دعوة التجديد على أيام تحوتمس الرابع ، الا أن ولده «أمنحتب الثالث» ، جريا على سنة أسلافه ، أثر الأبقاء على تعدد المذاهب ، خشية أن تتركز سلطة الدين كله في جانب واحد ، خاصة وأن كهان آمون ، انما قد تهيأ لهم من الثراء العريض وسلطان المناصب ، ما أربح الناس منهم وجعل التغاضى عن عقائدهم أمرا غير ميسور ، ومن ثم فقد حاول أمنحتب الثالث أن يتخذ لنفسه منهجا وسطا بين أتون وآمون ، فسائر دعوة أتون ، وسبح بحمده جهرة في طيبة ، وبشر باسمه في

قصره ، ولكنه تعمد في الوقت نفسه أن يحاكي آمون وبطانته ، فأعلن أنه ولى العرش عن أمره وأغدق العطايا على معابده وكهنته .

وقد أدى ذلك الى نتيجتين متضادتين ، فحدث من ناحية أن رجحت كفة أولياء آمون في صراعهم مع أتباع الشمس على توجيه دعوة آتون ، واستطاعوا أن يترغموها لبعض الوقت ، ولكن على دخل ، وتعمدوا أن يفسدوا عليها انطلاقها وبساطتها ، وأن يخدعوا الناس عنها ، ويلبسوا عليها أهدافها ، فألحقوا اسم آتون باسم ربهم آمون ، واعتبروه مرادفا له ، وكأنه لم يأت على العقائد شيء جديد ، غير أنه حدث من ناحية أخرى ، أن استغل المجددون هذا التلبس المتعمد وجهروا بتسابيحهم لآتون ، دون خشية من خصومهم أولياء آمون ، بعد أن لبسوها بأسماء ربهم والقباه كما شاءوا ، عن تسليم تارة ، وعن تعمية وتضليل تارة سواها ، واستمر اللبس بين القديم والجديد ، وبين آمون وآتون ، خلال عهد أمنحتب الثالث ، واستقرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون العظيم^(٦) .

(٢) دعوة التوحيد في مراحلها الأولى :

وهكذا كانت أمور الدين في مصر عشية تولي أمنحتب الرابع عرش الفراعين في عام ١٣٦٧ قبل الميلاد غير مستقرة ، ومن ثم فقد كانت في حاجة الى أن تحسم في صالح أحد الاتجاهين — التوحيد أو التعدد — ولم يكن هناك أحد في مصر بقادر على القيام بتلك الخطوة الخطيرة غير الفرعون أو الكهان ، والا اذا تهيأت عوامل أخرى ، لها من القوة ما يصلح أمور الدين في مصر كله ، ومن عجب أن تجعل الاقدار ذلك كله من نصيب فتى لم يبلغ من الرجولة حدا يجعله قادرا على أن يفعل ذلك ، بل ان هذا الفتى نفسه انما كان من الناحية الصحية على الاقل ،

(٦) عبد العزيز صالح : الوجدانية في مصر القديمة ص ١٥-١٦ .

غير مهياً لهذه المهمة الخطيرة ، بل انه في غالب الظن انما كان في السنين الاولى من حكمه على الاقل تحت وصاية أمه الملكة «تي» .

ومع ذلك فان أمنحتب الرابع قد اختار منذ اللحظة الاولى التي جلس فيها على عرش أجداده اسما للعرش يرتبط بعقيدة الشمس ، أكثر مما يرتبط بعقيدة آمون ، فأطلق على نفسه لقب «نفرو ، خبرو ، رع وع ان رع» ومعناه «صاحب الاشكال الجميلة ، انه وحيد رع» ، فضلا عن لقب جديد هو «الكاهن الاكبر لرع حار أختي ، الذي يبتهج في الافق ، في اسمه النور (شو) الموجود في أتون» ، ورغم أن هذا اللقب لم يضايق كهان آمون الذين كانوا يرون في لقب «المحبوب من آمون» الكفاية ، فانه قد ادخل السرور في نفوس أولئك الذين كانوا يرون الى تمجيد الشمس ، بل ربما رأوا فيه فجرا جديدا مؤذنا بيوم له ما وراءه بالنسبة الى ربهم أتون .

ولعل أمنحتب الرابع أراد أن يبدأ التبشير بمذهبه الجديد في هوادة ولين وربما نهجا على سياسة أبيه ، وربما بمشورة من أمه «تي» ، وأيا كان السبب في هذا الاتجاه ، فان الفرعون بدأ يجمال انصار آمون ، ولا يبخل عليهم بعتاء ، ويناصر أصحاب أتون ولا يضمن عليهم بتأييد ، ثم يعمل جاهدا على الاعلان عن الاله رع ، بجانب آمون ، في صورته الجديدة أتون ، وأن يدخله كغيره من الالهة المصرية الاخرى في رحاب الكرنك ، فيعبد بجوار آمون ، وبرضى من كهانته نفسها ، وهكذا شيد أمنحتب الرابع معبدا لاتون في رحاب الكرنك معقل آمون وحصنه القوي ، يطلق عليه اسم «معبد رع حر أختي» (معبد رع حور الافق) وان رأى البعض أن أباه هو الذي بدأ بناء المعبد ، وأن اخناتون انما وسعه وأضاف الى نقوشه ما يقرب رب هذا المعبد من مذهبه الجديد (٧) .

7) C. Alderd, Akhenaten, 1972, P. 162; A. Weigall, the Life and Times of Akhenaton, 1934, P. 36 F; JEA, 9, P. 168, 17, P. 190; ASAE, III, P. 263; W. Hayes, the scepter of Egypt, II, P. 261; Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, II, P. 347.

وأياها كان الامر ، فسرعان ما يعلن أمْنَحْتَب الرابع أن العبادة يجب أن تتجه الى «الوالد اتون الحى» ، وأن أتون ما هو الا «رع حر أختى» يتهلل فى إلفقه باعتباره النور الذى فى الكوكب أتون ، وقد استهدف من ذلك أمور ثلاثة هى : أن يحدد رأس عقيدته الدينية الجديدة ، وأن يفاجئ الناس بأسماء جديدة لم يألّفوها ، وأن يوحى اليهم بأنه لا يطلب منهم غير العودة الى معبود الفطرة ، معبود أجدادهم الاولين «رع حر أختى» ، وهو نفسه أتون ذلك الذى رغب الناس فيه بتسميته باسم «الوالد» ، وربط بينه وبين آية النور المعجزة المستحبة فى كوكبه .

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذى بدأ به دعوته ، فلقد أوجس كهنة آمون خيفة منه ، وقد رأوا أن يافعا مثله يستطيع أن يتزعم مذهباً فى الدين ويفتى بالرأى فيه ، خليف بأن يتأتى على يديه تغيير كبير ، فأضرموا له العداء وجافوه ، ولكنهم مع ذلك لم يعلنوا الثورة ضده ، على أساس أن الهمم الاكبر هو «(آمون رع)» ، الممثل لرع رب هليوبوليس ، كما أنهم ادركوا أن مذهبهم راسخ فى قلوب الناس ، وبخاصة أهل الصعيد ، كما أن الهمم قد ذاع أمره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأنه لا غزو ولا نصر الا حول ساحته وعند اقدام عرشه ، وأن أتون لم يكن حتى ذلك الحين ، الا الها جديداً ، يبحث له عن اتباع ومتعبدين .

وهكذا أدخل أتون الى حرم الكرنك ، بجانب آمون اله الدولة الرسمى ، وسمح له ولاول مرة ، أن يأخذ مكاناً رسمياً بين الالهة المصرية ، وأن يعترف به أصحاب آمون ، وربما أراد الفرعون من ذلك مهادنة كهان آمون ، معللاً النفس باكتساب بعضهم لاعتناق دينه الجديد ، بخاصة وأنه كا حتى ذلك الحين يحمل اللقب الملكية الخمسة التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور ، هذا فضلاً عن أن أمْنَحْتَب الرابع لم يكن فى بادىء الامر يظهر عداء للالهة المصرية وكهنتها ، على أمل أن البعض قد يفكر فى الدين الجديد ويعتقه .

ومع ذلك فإن العلاقة بين الملك وكهان أمون بدأت تتجه الى النفور أكثر منها الى الود ، فلتد أوجس الكهان خيفة من فرعون ، وكان فرعون بدوره حذرا منهم ، خشية القيام بمؤامرة قد تغرق سفينة طموحه وتقضى على معتقده الجديد ، وأبدت عين البغض بين الفريقين مساوىء خافية ، وأخرى كانت تتغاضى عنها عين المجاملة ، فاذا بالولاء للارباب العبيدين الذى آثره الفراعين من قبل يبدو ضلالا مبينا ، واذا بكهان أمون يبدون للفرعون بثرائهم وسلطتهم كأنهم أرباب دولة داخل الدولة ، واذا بالكثرة العديدة من بقية الالهة تبدو للعرش وكأنها تمتص خيرات البلاد بغير طائل ، واذا بتصوير الرب على هيئة البشر ، والكناية عنه بهيئة الحيوان يعتبران ضربا من التمويه والبهتان ، واذا بالاساطير القديمة والتفاسير المأثورة التى تناقلها الناس جيلا بعد جيل تبدو للمجددين من لغو الحديث ، واذا بأوجه التشابه وأوجه الخلاف بين العبادات تبدو لأنصار فرعون دليلا على تشتت الفكر وغموض القصد ، واذا بدعوة المحافظة التى استمسك بها أتباع أمون وصبغوا عقائدهم بها ، تتضخم فى نظر دعاة الاصلاح فيجدونها تذمتا مقبها ، يقيد حرية الناس فى أحاديثهم وآدابهم وفنونهم ، وليس فى دينهم وحده (٨) .

وهكذا سرعان ما يبدأ الفرعون فى اتخاذ الخطوات الايجابية لاعلان دعوته فيطلق على حى المدينة الذى فيه المعبد اسم «لمعان أتوم العظيم» (نور أتون العظيم) ، وعلى العاصمة المصرية العتيقة «طبية» اسم «مدينة النماع أتون» (مدينة نور أتون) ، هذا فضلا عن تسمية قدس المعبد باسم «جىم أتون» ، وهو تعبير ، فيما يرى سرستد ، ما يزال غامضا ، ولعل عداء الكهنة السافر قد بدأ منذ هذه اللحظات ، وذلك حين أدركوا أن الامر قد أصبح أخطر من أن يتغاضوا عنه ، وأن أتون

(٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧ ، سيد توفيق : اخناتون الملك الاله ، واتون الاله الملك ص ١٢٨ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٩ .

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 319; G. Legrain, ASAE, III, P. 363.

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 361, ARE, II, P. 382-383.

ليس في رأى الفرعون الها كباقي الالهة ، ومن ثم فان اتجاه أمنتب الرابع انما كان في نظرهم «هرطقة» (صبأ) ، رغم أن ظواهر الامور حتى ذلك الوقت كانت تشير الى أن الفرعون لم يكن يظن انه ارتكب اثما نحو اله أجداده ، حين أرجع من جديد اله الشمس نفسه •

وهكذا بدا الصراع بين الفرعون وكهانة أمون ، وخاصة عندما عرف الكهان أن الاله يختلف في شكله وفي تعاليمه عن الالهة المصرية الاخرى ، فهو لم يجسد في صورة بشرية ، الا في حالات نادرة في أول الامر ، ولا هو تجسد في صورة حيوانية كأغلب آلهتهم ، بل هو الحرارة الكامنة في قرص الشمس التي تهب الناس الحياة وتغمرهم بالسعادة ، فأخذوا يخافون على نفوذهم ومراكزهم التي حطمتها ألوهية الملك وقوة شخصيته ، وتقانيه في دينه الجديد ، وخاصة عندما أطلق الملك على بناته اللاتى ولدن في طيبة أسماء كان أتون جزءا مقدسا فيها ، فسماهن على التوالى «مريت أتون» و «مكت أتون» و «عنخ اس با اتون» •

ومن ثم فقد أصبحت نوايا الفرعون واضحة أمام الكهنة فأخذوا يحيكون له المؤامرات والدسائس للقضاء على دينه الجديد ، ولم يمنعه هذا من الاستمرار في دعوته ، ثم سرعان ما أعلنها حربا لا هوادة فيها على أمون وكهنته ، وسجل على احدى لوحات العمارنة «أقسم بحياة أبى اتون ، أن الكهنة كانوا أشد اثما من كل الاشياء التي سمعتها حتى العام الرابع ، وأشد ضراوة من الاشياء التي وقعت حتى العام السادس»^(٩) •

(٣) اعلان التوحيد

لم تمنع مؤامرات الكهان أمنتب الرابع من الاستمرار في دعوته

9) J. H. Breasted, the Dawn of Consience, P. 273, F. Daumas, Op. Cit., P. 319; A. Weigall, Op. Cit., P. 86; N. de G. Davies, the Rock Tombs of El-Amarna, V. P. 30; Urk, IV, P. 1975.

وانما نراه يقبل التحدى ويراه وقتا مناسباً للجهر بالدعوة واعلان التوحيد خالصا ، وهكذا نادى الداعية العظيم بالله واحد لا شريك له ، ولا مثل لتعدد الارباب والربات الى جانبه ، ليس هو أمون ، ولكنه أثون ، وليس هو من تقوم عبادته خلف أسوار وأستار ، ولكنه اله واحد فرد صمد ، يشهد الناس آياته دون حجاب ، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الارض شعاع ، ونزه فنانوه ربهم عن أن يرمز له بهيئة انسان ورأس حيوان ، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل ما فيه من قدرة ربانية مستترة ، وجسم ظاهر مضى تصدر عنه أشعة عدة ، وبمعنى أصح أيد عدة بأكف مبسوطة تمتد الى الارض فتبها الحياة وكل ما هو طيب ، وفي بعض الاحيان كان يثبت الطرف الاسفل للقرص شعاره القديم «(الصل)» تخرج من عنقه علامة الحياة «(عنخ)» ، ثم الاشعة التى تنتهى بأيد آدمية ، كأثر أخير للتصورات القديمة .

وكان هذا الرمز ، رمز قديم وجديد فى آن واحد ، قديم فى هيئة قرص الشمس ، جديد بصورة الايدى التى بدأ تصويرها منذ أيام تحوتمس الرابع ، ويبدو أن الفنانين لم يروا فى تصوير أكف الاله المبسوطة انتقاصا من روحانيته ، واعتبروا تصويرها نوعا من التعبير الفنى يغنى عن الوصف والكتابة، وقد شابههم فى ذلك فنانوا عصر النهضة المسيحيون حين صوروا يد الله بين الغمام ونحتوا له التماثيل^(١٠) .

وكانت السنة السادسة من حكم أمنحتب الرابع (حوالى عام ١٣٦١ ق.م) واحدة من السنوات الحاسمة فى تاريخ الدعوة ، فقد ظل الفرعون حتى عامه الخامس من الحكم يحتفظ باسمه أمنحتب ، بل أنه حتى فى لوحة الحدود من العام السادس ظل يحتفظ باسم أمنحتب ، ولم يغيره الى «(اخناتون)» ، وان أضيفت أسماء ونعوت أخرى ، ولكنه

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٠ .

C. Aldred, Op. Cit., P. 162; F. Daumas, Op. Cit., P. 320; A. Gardiner, Op. Cit., P. 218-219; A. Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, 1968, P. 139.

في نفس العام السادس تبرأ من لفظ «أمون» في اسمه ، فسمى نفسه «اخناتون» (أخن أتون) ، وهو اسم لم يتضح معناه حتى الان ، فقد يكون بمعنى «المخلص لأتون» أو «التابع لأتون» وقد يكون بمعنى «ليرضى عنه أتون» أو «ليخدم أتون» أو «خادم أتون» أو «المصالح لخدمة أتون» وقد يكون بمعنى «المجد لأتون» أو «ليسعد أتون» ،

ولعل من أسباب تغيير الفرعون لاسمه أن الاسم الجديد الذي اتخذته لنفسه ، انما هو ترجمة للاسم القديم الى ما يماثله في المعنى في مذهب أتون •

وهكذا أصبح أمر انكار الاله القديم ، والايمان بالاله الجديد ، أمرا رسميا ، ذلك لان اسم الملك انما كان رمزا لسياسة الدولة ، وكان لتغيير الاسم من الاثر ما لاعلان الحرب ، ومن ثم فقد أغلقت معابد الالهة في كل أنحاء الامبراطورية المصرية ، وصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها ، وضرب الحجز على خزائن الكهوت ، وذهب اخناتون في حماسة الى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية ، ومحو كلمة «الالهة» (نثرو) حيثما وجدت منقوشة عليها في صيغة الجمع ، لان الاله واحد لا يجمع ، أو انه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاها (١١) •

وبدأ الكهنة يتكتلون بعد أن ألغيت سلطة أمون العظمى ، وأصبح النزاع على أشده ، ولم يعد اخناتون يتسامح مع الالهة ، وبخاصة أمون ، وذهب أولياء الملك ممن امنوا بدعوته يطوفون بجميع المعابد لنزع اسم أمون وإخفاء أية معالم له ، وروجعت قراءة النقوش ، حتى في أعلى المعابد وفي قمم المسلات ، حيث تم محو اسم أمون وتدمير جميع تماثيله ، حتى أنه لم يصل المينا منها شيئا قبل أيام «توت عنخ أمون» ، ثم سرعان ما انتقل الامر الى بقية الالهة ، ومن ثم فقد شوهت في معبد بتاح في الكرنك اسماء بتاح وحتحور ، وفي بهو أعمدة

11) J. H. Breasted Op. Cit., P. 279-280; A. Weigall, Op. Cit., P. 135; C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; S. Towfik, Aton Studies, P. 16; H. Gauthier, Op. Cit., P. 346, N. de G. Davies, Op. Cit., Pls. 25-27.

تحتومس الذلت بالكرنك لحق بهذا المصير جميع الالهة كأوزير وايزة وهور واتوم وجب وغيرهم ، وحتى العقاب نخبت ، الملق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره ، ومحى كذلك اسم الثور المقدس ، على أن آمون انما كان الفريسة الرئيسية لغضب الملك الذى استهدف تدمير الصور والتماثيل ، ومن ثم فقد تم محو اسم آمون من الآثار جميعا ، بل ان كلمة «أم» التى كانت تشبه الالهة «موت» زوج آمون قد أمر بالتخلي عن كتابتها عند الرسم الهيروغليفى للعقاب ، وان تكتب الحروف بعلامتى « م ت » (١٢) .

(٤) الهجرة :

أيقن اخناتون فى العام السادس من الحكم أن طيبة لم تعد تصلح لبذر تعاليمه الجديدة ، كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالافكار التى ينشرها كهان آمون ، لا تساعد على نشر دعوته الجديدة ، فهاجر بأهله واتباعه من طيبة الى أرض وصفها بأنها أرض بكر ظهور ، لم يدنسها شرك فى العبادة ، ولم يعبد فيها من قبل الهه أو آلهة ، تتوسط أرض الكنانة أو تكاد ، وتقوم على انقاضها الان بلدة العمارنة^(١٣) الحالية ، وسماها «اخيتاتون» بمعنى افق اتون أو مشرق اتون ، وبدهى أن الهجرة من طيبة الى العمارنة لم تكن وليدة عاطفه عابرة من ذلك الحاكم الثورى العنيد ، والبالغ الشجاعة كذلك ، بل هى

12) C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; F. Daumas, Op. Cit., P. 320-322; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 221.

(١٣) العمارنة أو اخيتاتون ، ويمثلها فى الوقت الحاضر مجموعة قرى على الضفة الشرقية للنيل ، وهى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطه ، ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها، وتقع العمارنة على مبعدة ٤ كيلا شمالى ديرمواس عبر النهر ، بمحافظة المنيا، فى الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد، وكانت عاصمته «خمنو» (الاشمونين) ، وطبقا للوحات الحدود (عدها أربع عشرة لوحة على الأقل منحوتة على التلال الشرقية والغربية للنهر) فقد أسست المدينة فى العام الرابع للحكم ، واستكملت استعدادتها فى العام السادس (أنظر عن مدينة العمارنة : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٨٦ - ٢٣٢) .

نتيجة تدبيرات الحكم وضعها ، كان الهدف منها اقامة حصن لاتون الذي أراد اخناتون أن يجعل منه المها عالميا •

وفي الواقع فلقد أقام الفرعون ثلاثة مراكز للدعوة ، وزعت على أجزاء الامبراطورية المصرية الثلاثة — مصر والنوبة وغربي آسيا ، على أن يكون المركز الرئيسى فى مصر حيث يستقر الفرعون فى اخيتاتون (آخت آتون) ، وأن يكون المركز الثانى فى النوبة «جم آتون» (وجود اتون) و «كوا» وراء الجندل الثالث ، مقابل بلدة «دلجو» الحالية، وربما كان اسم «جم اتون» هنا نسبة الى معبد اتون ب طيبة ، واما ثالث المراكز فقد كان فى فلسطين ، ربما فى اورشليم (القدس) أو فى بيت شمس وعلى أى حال فرغم أننا لا نعرف مكانه على وجه التحديد حتى الآن إلا أن الأمر الذى لا ريب فيه أن هذا المعبد الاسيوى لأتون ، لم يكن أقل منزله من معابد اجداد الفرعون التى شيدها لامون فى غربى آسيا ، وهكذا اعطى الفرعون لكل مركز من مراكز الامبراطورية مركزا للعقيدة الاتونية هذا فضلا عن الهياكل والمحاريب التى أقيمت لاتون فى انحاء مختلفة من أرض الكنانة ، فمن المؤكد مثلا أنه كان يوجد معبد لاتون فى منف ، وقد عثر على بقايا من نقوش اتونية مبعثرة فى طول البلاد وعرضها ، وإن لم نجد ذلك الى الشمال من هليوبوليس فى الدلتا (١٤) •

واستقر اخناتون فى اخيتاتون ينشر دعوته ، ويدعو الناس الى اعتناق دينه الجديد ، وليس من شك فى أن اخناتون إنما كان يعد نفسه حوارى المعتقد الجديد ، وإن هناك الكثير من النقوش التى تؤكد استماع القوم الى مذهبه ، فهذا احد اتباعه يقول له «ما أكثر من يستمع الى مذهبك فى الحياة ، ومن يملأ ناظريه بمشاهدتك ، ولا تتوقف

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 223-224; H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, P. 169; T. Save-soderbergh, Op. Cit., P. 162.

عيناه عن النظر لاتون كل يوم» ونرى في مقبرة الوزير «(رع موسى»
(وتحمل رقم ٥٥ بطيية الغربية) منظرا يمثل اخناتون واقفا وموجها
جديته لوزيره حيث يقول «كلمات اتون القيتها عليك ، ان الرب قد
علمنى اياها وكشف لى عن خباياها ، هذه الكلمات التى عرفها قلبى
وانشرح لها صدرى» ، واجابه الوزير «انك الوحيد الذى اختاره اتون
ليلقى اليه تعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس والجبال تستمع
اليك كما يستمع الناس» ، وهكذا يشير النص الى أن الملك بدأ يتزعم
الدعوة الجديدة حتى قبل ايام العمارنة^(١٥) .

وعلى أى حال ، فلقد تزعم اخناتون الدعوة الى دينه الجديد ،
وأعلن نفسه نبيا لهذه الدعوة والمصطفى لنشرها ، وسلك سبيله الى
قلوب أتباعه بالمنطق والاسوة الحسنة ، والترغيب والترهيب فى آن
واحد ، فاصطفى لنفسه حواريين يعلمهم كما يعلمه ربه اتون ، وسارع
بنفسه وزوجه وبنتاته الى معابد العاصمة يؤم العبادة ويرتل الدعوات،
وابتعد بنفسه وآل بيته عن مظاهر التزمت الملكى القديم ، وخرج بهم
على أهل العاصمة يرونه ويرونهم على ما هم عليه ، وفتح مغاليق حياته
الخاصة للمثاليين والرسامين ، فصوروه فى بشريته الخالصة ، وفى فرحه
وحزنه ، وعبثه وجده ، وما ابتلى به من أعراض المرض وعيوب البدن،
واستغل يديه جميعا فبطش باحداهما أمون وكبار كهنة بطشه شديدة ،
ورفع بالآخرى أفرادا من أواسط الناس فجعلهم من الكبار الخواص ،
وأغدق العطايا على من آزر دعوته ووقفوا الى جانبه ، وحاول اخناتون
أن يجعل عاصمته «اخيئاتون» مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا ،
تبشر بالايمان السمح المستبشر ، وتشيد بالعدل فى كل أمره ، وتردد
تسابيح الشكر والصلوات لاتون فى معابدها ، كما تتردد الاغاني
والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال فى مجالسها ، وبلغت الدعوة
غايتها حين خرجت بدينها عن الاقليمية الى العالمية ، ونادت باله رحيم

(١٥) عبد المنعم أبو بكر ، اخناتون ص ٧٦ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 224;

فى كل أمره ، محبوب فى كل أمره ، خلق الكون عن حب ورغبة ، واقتضت عدالته أن ينتفع القريب والبعيد بفضله ، فونتسبسط آلاؤه بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها ، دون تفرقة بين أبيض وأسود ، فلم لا يجتمع الناس أذن على عبادته ، كما اجتمعوا على النفع منه (١٦) .

(٥) أناشيد اخناتون :

امتلاأت مقابر العمارنة بالنصوص المنقوشة ، والتى كثيرا ما تشير الى المذهب الجديد بفقرات وجمل كانت شائعة وقت ذاك ، وقد أصبحت فى نهاية الامر تكون مجمل مذهب اخناتون ، كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر ، ومن ثم فعلينا ألا ننسى أبدا أن البقية الباقية من مذهب أتون التى وصلت إلينا من جبانة العمارنة إنما قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكهنة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة ، ممن لم يخرجوا عن كونهم أذنابا لحركة عقلية دينية عظيمة ، وليس هناك من ريب فى أنه ، ماعدا الانشودة الكبرى ، التى وجدت فى مقبرة الملك «آى» فإن الرسامين إنما قنعوا غالبا بالقطع والنتف التى نقلت أحيانا من الانشودة الكبرى نفسها ، أو من قطع أخرى ، ويضعونها فى هيئة أنشودة صغرى أصبحت الآن ذا قيمة علمية كبرى بسبب ضالة معلوماتنا عن دعوة اخناتون (١٧) .

وأما النشيد الكبير ، فقد عثر عليه فى عام ١٨٨٣ م فى مقبرة «آى» (الملك آى فيما بعد) والذى كان واحدا من رجال الدين الجديد ، ومن أشد المتحمسين له على أيام اخناتون ، وقد لقى هذا النشيد الكبير اهتماما كبيرا من العلماء المحدثين ، لأنه يمثل النص الكامل الذى أمكن العثور عليه حتى الآن للانشودة التى كانت دون شك من عمل اخناتون نفسه ، ومن ثم فهو مصدر أساسى لذلك المعتقد الجديد ، ولعل هذا هو السبب فى أن علماء الأيكتولوجى المصريين منهم والاجانب قاموا

(١٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١١ .

(١٧) أنظر عن الانشودة الصغرى وترجمتها (محمد بيومى مهران :

اخناتون ص ٣٥٩ - ٣٦١) .

بترجمة من النص المصرى الاصلى الى اللغة العربية ، فضلا عن معظم اللغات الاوربية الحديثة ، وهناك ترجمة لهذا النشيد الكبير : —

«تجلىك فى أفق السماء بديع ، أى أتون الحى ، يا أصل الحياة
وبدئها ، انك حين تشرق من جبل النور الشرقى تملأ الارض بجمالك
ومحبتك ، انك بوصفك رع تصل الى حدودهم ، وتخضعهم لابنك
المحبيب ، انك أنت الاله الذى دان الجميع بحبه ، أنت عال جدا ، ومع
ذلك فان أشعرك تشرق على الارض ، أنت فى وجوه البشر ، ومع ذلك فلا
يستطيع الواحد منهم أن يتكهن بسر قدومك حين تغيب فى الافق
الغربى ، وان الارض تكون فى ظلام كالموات ، الليل ينقضى فى غرف
النوم ، والرؤوس مغطاة لا ترى أعين أصحابها ، تشرق أمتعتهم ، حتى
وان كانت تحت رؤسهم ، فلا يدركون» •

«الاسود تخرج من أوجارها ، والثعابين تنساب لتلدغ ، والظلام
هو الضوء الوحيد ، بينما الارض فى صمت ، لان صانعها يستريح فى
الافق ، وتصبح الارض زاهية عندما تشرق فى الافق ، وعندما تضىء فى
النهار كأتون ، وأنت تقضى الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل أشعرك
فان الارضين (مصر) تصبحان فى عيد ، يستيقظ الناس ، ويقفون على
أقدامهم عند ايثارك اياهم ، فينظفون أجسامهم ويرتدون ثيابهم
ويرفعون أكفهم تعبدا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون فى الارض لياشر
كل منهم عمله ، الزهر نبت الارض ينفتح لمرآك ، وتتملكه النشوة
لحيائك ، والانعام تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطوى
أجنحتها وتنشرها تسبيحا لاتون الحى خالقها ، والحملان تقفز على
أقدامها ، وكل ما يطير أو يحط تهتز اعطافه لانك تشرق من أجله ، ومن
ثم فالارض بأسرها عامرة بحبك ، السفن تبحر شمالا وجنوبا ، وتعج
الطرق بالناس ، والعشب والشجر يتمايل عند ظهور محياك ، والاسماك
فى النهر تتراقص لمرآك ، أشعرك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم
(البحر المتوسط)» •

«أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو في المرات ، ومن يصنع الماء في
البشر ، أنت يا من يأتى بالحياة للوليد ، وهو في بطن امه ، انت يا من
تسكته بتوقف دموعه انت يا من رعيته في الجسد ، ثم تعطى الهواء
ليتنفس كل من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس في يوم مولده .
أنت يا من تفتح فمه ، وتخلق له مقومات الحياة ، أنت يا من جعل
الكتكوت يشقشق في قشرته ، أنت يا من منحته الحياة ليعيش فيها ،
وقدرت له ميثاقا في البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح (يصوصو) بكل
ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابان خروجه من البيضة» .

«ما أكثر اعمالك ، انها على الناس خافية ، انت الاله الواحد الاحد
الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ،
وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ،
ويحلق في الفضاء بجناح ، خلقت بلاد خارو (سورية وفلسطين)
وكوش (النوبة) وأرض مصر ، ووجهت كل فرد الى موطنه ، ودبرت
للجميع شئونهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ، وان
ظلت الالسنه بينهم في النطق متباينة والالوان متمايضة ، لانك ميزت
بين بلاد وبلاد ، أنت تصنع فيضان النيل في العالم السفلى ، وتأتى به
كرغبتك لتذهب الحياة لاهل مصر ، أولئك الذين صنعتهم لذاتك ، انت
مولاهم جميعا ، أولئك الذين تنهك من أجلهم ، انت مولى كل أرض
تشرق من أجلها» .

«آتون يا ضوء النهار ، يا عظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الاحياء
وترسل الغيث من أجلها ، لقد صنعت نبلا في السماء (المطر) حيث يموج
الغيث فوق الجبال كالأخضر العظيم ، ويسقى الحقول بين القرى ، ما
أجمل تدبير رب الخلود ، فيضان في السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ،
وما يدب على قدم ، وفيضان سواه لارض مصر ، يأتى اليها من دنيا
العدم ، الأشعة تغذى كل امرئ ، وحسين تشرق يحيون وينمون من
أجلك ، أنت تجعل الفصول منتظمة لينجح كل ما صنعت ، جعلت هناك
شتاء ليعرفوا بردك ، وصيفا ليتذوقوا حرارتك ، خلقت السماء بعيدة

لتضىء فيها ، ولترى كل ما صنعت ، وأنت وحيد تضىء فى مختلف
صورك ، كآتون الحى ، وتبدو لامعا ومشعا ، وأنت بعيد وقريب ، أنت
تجعل من ذاتك وحدك ملايين الصور ، مدنا وقرى ، حقولا وطرقا
وانهارا ، كل العيون ترنو اليك لانك أنت آتون ، الذى يشرق فى النهار
على الارض» •

«ليس هناك من يعرفك سوى ابنك «نفرو،خبرو،رع — وع ان رع»،
فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك انت الذى وهبته الحكمة ،
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم ،
اذا ما أشرقت عاش الناس ، واذا ما غربت فانهم يموتون ، انك أنت
الحياة ، ولا حياة للناس الا بك ومنك ، العيون تستمتع بجمالك حتى
تغيب فاذا ما غربت فى الافق الغربى ترك الناس أعمالهم كلها ، ولكنك
عندما تشرق ثانية يزدهر ثانية كل شىء من أجل الملك ، الحركة فى كل
ساق منذ ان خلقت الارض ، أنت ترفعها من أجل ابنك الذى خرج من
صلبك ، الذى يعيش على الحق ، سيد الارضين ، نفرو ، خبرو ،
رع ، وع ان رع ، ابن رع ، الذى يعيش على الحق ، سيد الظهور ،
البهى ، اخناتون العظيم فى خلوده ، مع زوجة الملك العظمى التى
يحبها ، سيدة الارضين ، نفر نفرو آتون ، نفرتيتى ، الا فلتعش
ولتزدهر الى ابد الآبدين» (١٨) •

(٦) مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أناشيد اخناتون انما تتميز
بمميزات منها (أولا) الدعوة الى التوحيد ، والذى يبدو واضحا فى تلك
الصفات التى يصف بها اخناتون الهه «آتون» ، فهو عنده اله واحد
أحد ، وذلك حين يقول «أنت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواه ،
وليس له من نظير» ، ومن ثم فاننا نرى بوضوح أن اله اخناتون هذا ،

(١٨) أنظر عن النشيد الكبير وترجماته الى اللغات المختلفة (محمد
بيومى مهران اخناتون ص ٣٦١ - ٣٦٦) •

انما هو الاله الواحد ، يعمل وحده دون آلهة وسطاء معه ، ليس له عائلة أو حاشية ، وأن دور اخناتون في الدعوة ربما لا يعدو دور النبي الذي يتلقى الوحي دون وسيط «انت في قلبي ، ليس هناك من يعرفك سوى ابنك ، قد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك أنت الذي وهبته الحكمه» ، وحتى هذه «البنوة» ليست من نوع بنوة أسلافه الجسدية لربهم آمون ، عن طريق الزواج الالهي ، كما كان البعض منهم يزعمون ، وانما هي في غالب الظن بنوة رمزية ، وهذا كان آتون ، في نظر اخناتون ، الخالق الاوحد الذي يوزع القرى الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر ، وفي الواقع فان الاتونية ، كما يقول سير ألن جاردنر ، لم تكن مجرد نظرية طبيعیه ، ولكنها كانت توحيدا أصيلا ، وأن العظمة الحقيقية لهذا الداعية تكمن في الشجاعة الخلقية ، وفي جهاده حتى آخر لحظة من حياته ، ليزيح عن كاهل المجتمع المصري تجمعات النفائات الاسطورية الموروثة من الماضي ، والتي تراكت على عقله ووجدانه ، حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره الصحيح^(١٩) .

ومنها (ثانيا) الدعوة الى دين عالمي ، ذلك أن اخناتون انما حاول أن يقدم للبشرية ديناً يعتنقه كل الناس في كل البلاد ، باذلاً الجهد في أن يحل هذا الدين محل القومية المصرية التي التزمها القوم منذ أقدم العصور، فعاشوا عليها قبل أيام اخناتون بحوالي عشرين قرناً مضت، ومن ثم فلا غرابة اذا نظر الباحثون الى اخناتون على أنه قد سبق العصر الملائم لظهوره بعدة قرون، ولا غرابة أيضاً اذا كان المصري في ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانة اخناتون ، ولم يستطع التعرف على كهنها ، وهكذا يمكن القول أن اخناتون انما يمثل عبقرية تم نضجها في وقت سابق لاوانها ، وان ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، انما كان ميلادا مبكرا جدا ، هذا ويؤكد العلامة «برستد» أن الاجل لو امتد باخناتون لاقام عقيدة دينية عالمية مركزها مصر ، ثم تنتشر في جميع

19) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 227-228.

أنحاء العالم ، معتمدا في ذلك على اقامة اخناتون معابد لعقيدته الدينية في جميع أنحاء الامبراطورية المصرية^(٢٠) ، ومنها (ثالثا) القضاء على التفرقة العنصرية ، وتظهر هذه الفكرة في قول اخناتون «خلقت بلاد خارو وكوش وأرض مصر» ، ذلك أن الداعية العظيم لم يجد حرجا في أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام والسودان ، وهما من موالى مصر ، ما دام الخالق الرازق واحدا ، رحيمنا هنا ، ورحيما هناك ، جوادا هنا ، منعما هناك ، خلق الجميع على اختلاف السننهم وألوانهم ومواطنهم ، وتكفل برزقهم ، وكان معجزا حين وهب مصر فيضيانا من جوف السماء ، ومن ثم فقد تخلى الفرعون عن الكبرياء التي كان المصريون ينظرون بها الى تلك الشعوب ، فقد كانوا يعتقدون انهم وحدهم الناس (أو الرجال) أما الاجانب فلا ، ومن ثم فقد كانوا ينظرون اليهم بازدراء ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»^(٢١) ، ذلك لان اخناتون انما كان يرى أن ربه أثون انما خلق الناس جميعا ، وان ظلت اللسنة بينهم في المنطق متباينة ، والهيئات والالوان متميزة ، ومن ثم فهم يتساوون في الحقوق والواجبات .

ومنها (رابعا) التركيز على قدرة الخالق ، الذي يهب قدرة النسل للنساء ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للجنين وهو في بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر أمره ، ثم هو يعنى بفراخ الطير ، كما يعنى بأجنحة البشر ، فالفرخ يكون على أهبة «الصوصوة» وهى في البيضة المحكمة ، يقدر الاله أنفاسه وهو فيها ، ويهب القدرة على نقرها وهو فيها ، وكاد منطق هذا الوصف أن يقول فهل هناك الله يعبد غير هذا الاله القادر ؟ ، ومنها (خامسا) اظهار الرحمة في صفات الاله الخالق ، فلقد جهد داعية التوحيد على أن يقدم الاله الخالق في صورة الاله الرحيم بمخلوقاته جميعا ، ومن ثم فقد تخيرت الدعوة الجديدة روابط العطف والمحبة ، دون الجبروت والبطش ، واعلنت أن ربها عظيم المحبة

20) J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, 1959, P. 332.

21) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 37.

تفويض الآؤه على العالم بأسره ، ويضفى على الدنيا كلها بهاء وجمالا ، وليس من شك فى أن هذا التفكير الجديد فى الآتونية انما يرفع من شأنها الى حد كبير فوق كل ما وصلت اليه ديانة المصريين القدامى أو ديانات الشرق بأجمعه حتى ذلك الوقت ففى الانشودة الصغرى يوصف أتون بأنه أب وأم لكل من خلق ، بعد أن كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الاعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الالهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون ، اما اخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم المتوحيد (من غير الانبياء) ، ولاشك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحداية الله وبرحمته ورأفته ، ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته^(٢٢) ، وفى الواقع أننا لو تتبعنا تطور الانسان وتقدمه خلال الاف السنين ، فاننا لن نرى (من غير الانبياء الكرام) أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات ، وهذا لاله الخالق المعين الرحيم قد اعطى نعمه للبشر أجمعين ، فضلا عن جميع المخلوقات الحية فى كل مكان ، ولم يقتصر ذلك على المصريين وحدهم ، ومن أجل هذه النعم كان العابدون يرفعون شكرهم وخضوعهم للاله أتون^(٢٣) .

ومنها (سادسا) التفسير العلمى لفيضان النيل ، اذ نادى اخناتون بأن الفيضان انما يرجع لاسباب طبيعية يسيطر عليها الاله أتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان، ومنها (سابعا) الدعوة الى الصدق ، فقد كان الداعية العظيم شغوفا بالصدق ، قولاً وفعلاً ، يبدو هذا واضحا فى فنون ذلك العصر ، وفى أقواله هو نفسه والتى منها «أننى أعيش على الصدق ، وأتزود من عدالة قلبى» ، بل انه انما ذهب فى هذا الى أن يسمى عاصمته الجديدة «أخيتاتون» بمعنى مكان أو مقر الصدق ، ومنها (ثامنا) أخراج الدين

22) J.H. Breasted, A History of Egypt, P. 377, The Dawn of Conscience, P. 291-292.

23) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 229.

الى العلانية ، ومحاولة القضاء على ما كان في الديانات القديمة للالهة الاقوياء الاثرياء من ابتعاد عن الناس ، وما أحاطوها به من أسرار ومن ثم فقد كانت المراسم الدينية تقام في المعبد ، وكان هيكله مفتوحا في الهواء المطلق ، لا يحوى أية تماثيل للاله آتون ، وهو أمر كان يعد غريبا عن التقاليد المتوارثة بالنسبة للطقوس التي لم تعد تتبع كما كانت من قبل ، لانه لم يعد هناك تمثال للمعبود ، لكى يخرج في موكب ، كما كان يحدث من قبل ، ومنها (تاسعا) تقدير اخناتون لتجلى قدرة الله ، سبحانه وتعالى ، في العالم المحسى ويبدو هذا واضحا في أنه من أعظم المصادر لدعوة اخناتون اعتمادها على التأمل في عالم الطبيعة ، ولان اخناتون كان رجلا مأخوذا بالاله ، فقد انقاد عقله بحساسية وادراك مدهشين الى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الاله ، فقد كان الرجل مأخوذا بجمال النور الابدى العالى ، ومن ثم فاننا نرى أشعته في كل أثر صور عليه من آثار بقيت لنا (٢٤) .

(٧) اخناتون والتوحيد :

لا ريب في أن ما سبق انما كان سببا في أن يبلغ الاعجاب ببعض الباحثين في هذا العصر الى تمجيد اخناتون تمجيذا يكاد يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ذلك لان الرجل انما قد نجح في ذلك الوقت من تاريخ الانسانية في ان يدعو الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت دعوته أول صحيحة عالمية عرفت الانسانية للدعوة الى التوحيد ، أو على الاقل دعوة بلغت بالتوحيد مرتقا في تلك الفترة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الامم في الشرق أو الغرب اذ كان اخناتون أول من بشر الناس (من غير الانبياء) باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه في أنثاشيده «اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ،

(٢٤) محمد بدوي، مهران : اخناتون ص ٣٦٦ - ٣٨٢

F. Daumas, Op. Cit., P. 321-322, 326, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 292-299.

وكل ما يسعى على الارض بقديم ، ويخلق في الفضاء بجناح» ، هذا فضلا عن أن أناشيده وأراءه انما قد تركت اثرا على من جاء بعده من مفكرى الشعوب ، حتى أن كثيرا من العلماء انما يذهبون الى أن نشيده الكبير انما كان أصل المزمور ١٠٤^(٢٥)، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أن اخناتون انما كان أول صاحب نظرية في التاريخ ، وأن دعوته انما كانت دعوة توحيد بأجلى معانى التوحيد ، وأنه ازاح بدعوته هذه ، تلك الكومة من الخرافات غير الرشيدة ، والتي تكون جزءا من المعتقدات في مصر القديمة ، وأنه لم يكن يعبد قرص الشمس ، وانما كان يعبد تلك القوة التي وراء هذا القرص ، ومن ثم فان دعوة اخناتون انما تمثل قمة التطور في الافكار الدينية قبل عصر أنبياء اليهود فهي تدعو الى عبادة اله واحد للعالم كله ، خلق الحياة وحافظ عليها ، وأن اخناتون انما قد أدرك من وجود الله ، سبحانه وتعالى ، قدر ما نستطيع نحن أن ندرك من وجوده^(٢٦) .

والرأى عندي أن اخناتون العظيم كان أول داعية للتوحيد من غير الانبياء أو على الاقل أول من سلك الطريق المستقيم الى دعوة التوحيد ، وذلك حين نادى بأله واحد لا شريك له ، ولعل من أهم الأدلة على ذلك (أولا) أن اخناتون انما قد نزه الهة آتون عن أن يكون له شبيه أو نظير ، ومن ثم فلم نعثر حتى الان على أى صنم يصور فيه اخناتون ربه آتون ، سواء أكان هذا الصنم في صورة انسان ورأس حيوان ، أو غير ذلك من الصور ، بعكس الالهة المصرية الاخرى ، التي كانت تصور قبل عصر اخناتون أو بعده في صورة حيوانية أو انسانية ، كما رأينا من قبل ، ثم جاء اخناتون ورفض تماما أن يكون لالهة آتون صورة أو تمثال ، ولعل في هذا ما فيه من دلالة على ان اخناتون لم يكن يقدر الشمس أو قرصها ، على انها شئ مادي ، وانما كرمز لكائن مقدس ،

(٢٥) أنظر عن نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ (محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٤٥٣ - ٤٦٢)
26) H. R. Hall, Op. Cit., P. 298-300. A. J. Wilson, Op. Cit., P. 266; A. Weigall, Op. Cit., P. 2.

تنتم هذه الاشعة التى يرمز بها الداعية لربه عن قدرته ، وليس كصورة
ليه *

ومنها (ثانيا) أن ديانة اخناتون لم تعرف «التثليث» الذى اعتدناه
فى الديانة المصرية القديمة ، فليس فيها كديانة آمون مثلا أسرة الهية
تتكون من آمون الزوج ، وموت الزوجة ، وخونسو الابن (أو الاله
الاب والالهة الام والاله الابن) أو عقيدة بتاح (بتاح وسخمت ونفرتم)
أو اوزير (اوزير وايزه وخور) ، وانما كان أتون عند اخناتون ، وأتون
وحده ، هو الاله الواحد الاحد ، ليس له زوجة ، وليس له ابن
ومنها (ثالثا) أن اخناتون نزه الهه أتون عن أن يكون الها خاصا ببلد
دون آخر ، وانما جعله الها للعالمين ، خلق البشر والانععام ، وكل ما
يسعى على الارض بقدم ، ويخلق فى الفضاء بجناح ، كما خلق سوربة
والمسودان وأرض مصر ، ومن ثم فلم تكن ديانة اخناتون مقصورة على
المصريين وانما شملت كل البلاد ، وكل المخلوقات ، ومنها (رابعا) أن
دعوة اخناتون قد محبت دون تردد تلك الاساطير والتقاليد التى كانت
تعطى «اوزير» مكانة غير عادية فى الديانة المصرية ، ومن ثم لم يرد له
ذكر فى وثائق دعوة اخناتون أو فى قبور العمارنة ، وذلك حين نبذ
الاسطورة التى تقول أن النيل هو اوزير ، ثم نسب الفيضان الى قوى
طبيعية يسيطر عليها ربه أتون *

ومنها (خامسا) أن اخناتون قد بلغ فى تنزيه الهه غاية لم تدركها
حتى الان بعض الامم فى الشرق والغرب ، وذلك عندما أمر بفحص
الاثار المصرية جميعا ، ومحو كلمة «الالهة» حيثما وجدت منقوشة عليها
فى صيغة الجمع ، لان الاله فى عقيدة أتون واحد لا يجمع ،ومنها
(سادسا) ان اخناتون قد قضى على جميع أنواع الشعوذة والدجل
اللذين كان يمارسهما الكهان فى الديانة المصرية ، فالحملة التى قام بها
الكهان على عالم الاخلاق بالعوامل السحرية الالية لضمان براءة الميت
فيما بعد الموت ، قد أقصاها اخناتون بداهة عن تعاليمه ، فصارت
الجعل (الجعارين) التى كانت مألوفة من قبل ، لا تنقش فوقها التعاويذ

السحرية لآخمد وحى الضمير عند الميت المتهم ، بل صارت وقت ذلك تنقش فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام ، والامر كذلك بالنسبة الى الدمى (الاوشتى) وهى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالاعمال بدلا من الميت اذا طلب منه ذلك فى الحياة الاخرى (٢٧) .

(٨) النكسة :

مات اخناتون حوالى عام ١٣٥٠ ق م ، ولم يكن قد تهيأ للدعوة من كثرة الاتباع ، ما كان يؤمل لمثلها ، ومن ثم فلم يكد الاجل ينته بصاحبها حتى رأينا عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظن الخير ، ومن حيث لم يحتسب ، وهكذا فما أن يمضى حين من الدهر حتى تعود الامور الى ما كانت عليه قبل اعتلاء اخناتون العرش حوالى عام ١٣٦٧ ق م ، فينبذ القوم تعاليم الداعية العظيم ، ويعيدوا العبادات القديمة الى ما كانت عليه من قبل ، فضلا عن فتح معابدها التى كانت قد أغلقت ، ويقدم لنا المؤرخون أسبابا للنكسة تختلط فيها الاسباب السياسية بالدينية ، وهذه الاخيرة بالاقتصادية ، حتى بات من الصعب علينا أن نفضل بين هذا السبب أو ذاك .

ولعل من أهم أسباب النكسة (٢٨) (أولا) انتقال الملك من طيبة الى العمارنة ، ورغم أهمية هذا الاجراء لتأمين الدعوة ، فقد أتاح فرصة نادرة لكهان أمون لتدبير المؤامرت واشعال نيران الثورة ضد اخناتون البعيد عنهم فى عاصمته الجديدة اخيتاتون ا ومنها (ثانيا) انحراف حاشية الفرعون بعد مماته ، عندما أطلت الاضطرابات بوجهها القبيح على أرض الكنانة وأصبح المستقبل غير مأمون ، ومن ثم فقد شرعوا فى الخيانة ، وهكذا ربما أمكن القول أن اخناتون لم يترك بعد مماته أتباعا

(٢٧) عن اخناتون والوحدانية أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٦٣ - ٤٨٤) .

(٢٨) عن أسباب النكسة أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٨٣ - ٤٠٣) .

ومريدين ، يناضلون من أجل الحفاظ على الدعوة ، ويستشهدون دفاعا عنها ، ولو جدت دعوة التوحيد هؤلاء لاستمال استشهادهم في سبيل دعوتهم كثيرا من الناس الى هذه الدعوة ، ولتغير تاريخها ، بل وربما تاريخ الديانة المصرية القديمة كلها •

ومنها (ثالثا) انهيار النفوذ المصرى فى غربى آسيا واستبداله الى حد كبير بالنفوذ الحيثى ، ورغم أن اخناتون قد بذل جهده لايقاف الكارثة عسكريا ، فضلا عن روح المساواة والتي دعا اليها ، وربما منها أن تحقق العالمية لدعوته ، وتجتذب شعوب الشرق الى طاعته ، الا أن جهوده لم تأت بالثمرة المرجوة منها ، مما كان سببا فى بعد رجال الجيش عن الدعوة وكرههم لها ، ذلك لان انصراف الفرعون الى دعوته انما كان — بجانب تضليل المخادعين له عن حقيقة سير الامور فى الامبراطورية — سببا فى ضياع معظم هذه الامبراطورية فى غربى آسيا ، واستغل الحاقدون من الكهان ومرترقة المعابد ، ذلك كله ، فأوقدوا نار الحقد فى نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك المهابت الضخمة من الاسرى والسبايا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود (٢٩) •

ومنها (رابعا) أن اخناتون حين ظهر بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله ، انما ظهرت هذه الدعوة من قصر الحكم فى الدولة ، كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت من قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وكذا قوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لانها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة •

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١ ، وكذا
W. C. Hayes, Op. Cit., P. 326.
C. Aldred, Op. Cit., P. 64.
H. R. Hall, Op. Cit., P. 301-302.

ومنها (خامسا) أن العبادات القديمة كانت أشد رسوخا من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها، تقوم بها أقلية من المفكرين، وإن تزعمها الملك، وكان رجال الدين، وخاصة كهان آمون، قوة تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم، ومن ثم فلم يكن من السهل التغلب عليها، هذا في الوقت الذي اطمأن فيه اخناتون كثيرا الى منطقية دعوته *

ومنها (سادسا) ان اخناتون لم يجز على سنة الموحدين في هذه الدنيا، وإنما أراد الطفرة الى حد ما، وبخاصة على أيام العمارنة، ونسى أن طبيعة الاشياء، في معالجة أمور الدين بخاصة، تأبى الطفرة وترفضها، ولعل السبب في ذلك ان اخناتون إنما كان يرى أن عبادة أتون لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة، وأدعوته لن تجد كثيرا من المعارضة، ومنها (سابعاً) الازمة الاقتصادية التي نشأت بسبب تكاليف بناء العاصمة الجديدة للاله أتون، مما أدى في النهاية الى انفاق أموال طائلة على تلك المباني الضخمة. فخلا عن حرمان الزراعة من الايدي العاملة التي استغلت في المباني، الى جانب التسبب في الادارة والفوضى التي انتشرت في جنوب الصعيد *

ومنها (ثامنا) أن موضوع الوحدة الوطنية الاتونية ينبغي أن يكون متكامل الجوانب الدينية الاخرى، حتى تقدم لنا عقيدة توحيدية متكاملة، وعلى سبيل المثال فإن دعوة اخناتون لم تتعرض بصورة واضحة لموضوع الخاود، واستمرار الحياة في العالم الآخر، الامر الذي كان ذا أهمية خاصة في الديانة المصرية. ومنها (تاسعا) أن المعتقد الاتوني لم تكن له شعبية كبيرة في المجتمع المصري. ذلك لان المعتقدات المحلية في الاقاليم كانت لها فاعليتها الشعبية. ونسأل من الضروري توفير الوقت اللازم لاهداث التغيير في الفكر الديني عند العامة من القوم، الامر الذي لم يتوفر للاتونية. سواء على أيام الداعية أو بعد

مما تـه (٣٠) .

ومنها (عاشرا) أن دعوة اخناتون كانت سابقة لعصرها ، ومن ثم فلا غرابة اذا اعتبر صاحب الدعوة كان يعيش متقدما عن عصره ، وذلك بسبب عبقريته الفذة ، وبالتالي فلا غرابة أيضا ان كان المصري المعاصر لها لم يفهم مغزاها ، ولم يستطع تعرف كنهها ، فـاخناتون دون شك انما كان يمثل عبقرية تم نضجها في وقت سابق لاوانها ، وأن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد انما كان ميلادا مبكرا جدا لها (٣١) .

وأيا كان الأمر ، وأيا كانت الأسباب التي أدت الى نكسة دعوة التوحيد التي نادى بها الداعية العظيم ، فان التاريخ لن ينسى أبدا ، أن اخناتون انما كان أول داعية الى التوحيد (من غير الانبياء) عرفته البشرية ، وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد فرد صمد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيدة أتون أول صيحة عالمية عرفتها البشرية جمعاء للدعوة الى التوحيد ، أو على الأقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان أول من بشر الناس ، كل الناس ، باله واحد ، لا شريك له .

(٩) العودة الى الوثنية

مات اخناتون بعد ان ادى واجبه وأعلن دعوة التوحيد عالية مدوية في كل أرجاء العالم القديم ثم جاء على أيامه ، وربما بقى بعده حينئذ من الدهر ، أخوه «سمنخ كارع» ، الذي خلفه أخ آخر له ، هو «توت عنخ آمون» ، الذي نصبه كهان آمون على عرش الفراعين ، وهو بعد صبي لم ييفع ، فمكن لهم وأطلق أيديهم في شئون الدنيا والدين ،

(٢٠) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨ ، ١٤٢ ، أحمد بدوي :
المرجع السابق ص ٦٠٩ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١١٥ -
١١٦ وكذا

C Aldred, Op. Cit., P. 156-157, 177.

W. Edgerton, Op. Cit., P. 162-160.

(٣١) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ١٤٠ .

وبدهى أن كهان أمون ما كانوا على استعداد لأضاعة فرصته لتتويج الملك الطنل ، دون الاستفادة منها في إعادة سيادة أمون وتوطيد نفوذه بصفة رسمية ، ومن ثم فقد أقيمت احتفالات تتويجه في معبد أمون في الكرنك .

وهكذا سرعان ما أعلن الملك الصبى العفو الشامل وأخذت المنازعات الدينية الى المهادنة ، بل سرعان ما أعلن توت عنخ أمون ولاءه لامون وكرانته الجبارة ، فغير اسمه واسم زوجته ، بأن حذف منها اسم أتون ، مستدلا آياه باسم أمون ، ثم قام بترميم معابد أمون التى هدمها أو خربها اخناتون ، وأرجع الى الاله أمون ما كان له من ضياع وثراء ، بل ضاعفها له ، ثم أضاف الى لقبه كنية «حاكم أون الجنوبية» (طيبة) وهذا يعنى أن طيبة ، وليس العمارنة ، انما اصبحت عاصمة البلاد (٣٢) .

هذا وقد بدأ توت عنخ أمون يقدم القرابين الى ثنائى الهة الكرنك ، أمون وموت ، ولكنه ، كملك لمصر جميعا ، انما قد زعم أنه « المحبوب من أتوم حصر أختى فى هليوبوليس ، ومن بتاح فى منف » فضلا عن الالهة الاخرى ، وهكذا فان القوم بعد اخناتون ، وعلى أيام توت عنخ أمون ، قد نبذوا العقيدة الاتونية التى ألغت المعبادات القديمة ، ومن ثم فقد تركوا التوحيد ، وعادوا الى التعدد مرة ثانية ، حيث الافكار القديمة التى يجمع فيها «الاله الخالق» مجموعة الالهة الاخرى ، لتعبر عن صفات وخاصيات الاله الواحد ، مع الاعتراف ، فى نفس الوقت ، بهذه الالهة الاخرى .

وهكذا عادت الامور سيرتها الاولى ، غير أن الخطوة الحاسمة انما تمت على يد «(حور محب)» الذى قاد حملة رهيبة ضد الاتونية ، ومن ثم فقد أرسل فرقا من العمال الى العمارنة محوا معظم المباني ونهبوها وحطموا كل شئ تحطيما منظما ، ثم صبوا الملاط فى كل مكان ، ثم

(٣٢) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - ص ١١٩ - ١٢١ ، ثم أنظر عن الاتونية ص ١٥٥ - ١٩٣ .

حلوا كثيرا من أحجار اخيتاتون لاستعمالها في أماكن أخرى ، وخربت المقبرة الملكية ونهب أثاثها الجنزى ، حتى الاوانى الصلبة فيها كالتوابيت والصناديق الحجرية للاوانى الكانوبية ، كما حطمت النقوش التى على الجدران ، ولم يكن حظ المقابر الخاصة بأفضل من حظ المقابر الملكية فقد نالها من التدمير ما نال مقبرة اخناتون ، ونال معبد العمارنة الكبير ما نال المدينة نفسها ، فقد اجثت من فوق الارض وتحطمت تماثيله ورسومه الى قطع صغيرة كومت فوق بعضها خارج الجدار الجنوبى للمعبد (٣٣) .

وجرت الامور فى الاقاليم على هذا النحو ، من الدلتا الى السودان ، فقد أنزل حور محب نقمته وصب جام غضبه فى كل مكان ، ولم ينس بصفة خاصة أخميم ، موطن بعض أفراد أسرة العمارنة ، وأرسل الى كل مكان فرقا من العمال تكتب من جديد أسماء اله طيبة ، وترمم أشكاله التى كان اخناتون قد أزالها ، وفى الواقع فلقد أدى حور محب دوره ، الذى رسمه له كهان أمون ، أو رسمه هو لنفسه ، كاملا ، وبكل قسوة وضراوة فى ازالة كل ما يذكر الناس بأيام العمارنة ودعوتها كما كان حريصا فى كل مناسبة على أن يذكر الدور المشئوم الذى أداه اخناتون ، ومن ثم فما كان يشير الى الداعية العظيم الا باسم «المجرم» أو «ذلك العدو من اخيتاتون» ، ثم هجرت العمارنة بعد ذلك ، ولم تشغل مرة ثانية كعاصمة ، ومن هنا كانت خرائبها التى تكشف لنا عن صورة العاصمة المصرية القديمة فى لحظة ثابتة معينة .

وهكذا جعل «حور محب» من نفسه البطل الذى رد الى معابد أمون وكهانتها مكانتها واعتبارها بل ان حور محب وخلفاءه من فراعين الاسرة التاسعة عشرة ، حاولوا أن يعوضوا امون بطريقة مبالغ فيها ، عن الخسائر التى لحقت بأمون ومدينته أبان عهد العمارنة ، فهم الذين

33) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, 1963, P. 182-185; C. Aldred, Op. Cit., P. 65-66; F. Giles, Op. Cit., P. 138-139; W. C. Hayes, Op. Cit., P. 284-85.

أقاموا اله تلك المبائى الضخمة التى لم يستطع أى بلد أو أى عصر آخر أن يشيد ما يماثلها ، وهكذا أدت الاحداث الآتفة الذكر الى عودة آمون وكهنته الى سابقة عهدهم قبل عصر اخناتون ، بل لقد اصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت مضى ، ونقرأ عن روح الشماتة فى نص من عصر الرعامسة على لخاف بالمتحف البريطانى يهاجم اخناتون فى فقرة منه تقول «أنت تصل الى من ينبغى عليك ، مدينتك تبقى ، ولكن من يهاجمك يهوى ، ان شمس من لا يعرفك (أى اخناتون) قد غربت يا آمون ، وأما من يعرفك فانه يضىء ، ان بلاط من هاجمك فى ظلام، بينما الارض كلها فى نور» (٣٤) •

على ان السيادة المطلقة لم تصبح لآمون وحده ، وانما شاركه فيها رع وبتاح ، ومن ثم فقد أصبح الثلاثة (آمون ورع وبتاح) هم الالهة التى كانت تـبـد بعد عصر اخناتون ، وان كانت طيبة ، مدينة آمون ، انما هى صاحبة المكان الاكثر قداسة ، وان لم تعد مقر الملك ، الذى نقل الى «بر — رعمسيس» (تنتير) ، وان كان هذا لا يعنى ضياع مكانة الالهة الاخرى مثل حتحور وتحوت وأوزير وغيرهم ، وانما يعنى ان مكانة هذه الالهة قد تضاعلت كثيرا أمام آمون ورع وبتاح ، كما كان لآمون مكان الصدارة •

وما ان يمضى حين من الدهر حتى يظهر الاله ست ، كصاحب مكانة ممتازة فى الاسرة التاسعة عشر ، بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ومن ثم نرى الفراعين يقدرّون ست كثيرا ، حتى أن جيوش رعمسيس الثانى لم تطلق عليها أسماء آمون ورع وبتاح ، وانما ست كذلك ، ومع ذلك ، فرغم أن كهانة آمون كان لها مكان الصدارة بين الكهانات الاخرى ، فلقد عمل الملوك على اضعافها ، ومن ثم فقد وزعوا مظاهر

34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 235, JEA, XL 11, 1957, P. 23, C. D. Noblecourt, Op. Cit., 185. J. H. Breasted, Op. Cit., P. 307; A. Erman, LAE, P. 370; Daumas, Op. Cit., P. 327.

عقيدتهم بين أرباب البلاد الكبرى ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملك سيتى الاول يقيم أجمل مباينه على الاطلاق فى أبيدوس ، قلعة أوزير ، وليس فى طيبة ، قلعة أمون هذا فضلا عن أن المعبد انما بمثابة مصلى وطنى فقد أقيمت الى جانب مصلى أوزير ، محاريب منفصلة لزوجته ايزه وولدهما حور ، فضلا عن محاريب أخرى من نفس الحجم وبنفس الاهمية ، كرست للالهة الثلاثة الهامة فى المدن الرئيسية ، لامون اله طيبة ، ولبتاح اله منف ، ثم لرع حر أختى معبود هليوبوليس .

ولعل هذا كله انما يشير بوضوح الى عودة الوثنية وتعدد الآلهة ، من ناحية ، كما يشير كذلك الى أن سيتى الاول ، انما يحاول من ناحية أخرى ، أن يباعد بين كهان أمون وبين اعتقادهم أن الههم أمون ، هو الاله الاوحد والاكبر وانما جعله فقط واحدا بين الالهة الكبار ، وفى أحسن احوال كان أمون الاول بين أقرانه ، وما يهمنا هنا كثيرا انما هو عودة الوثنية ، وضياع عقيدة التوحيد شيئا فشيئا الى أن اختفت ، وعاد القوم مرة أخرى الى التعدد يطيلون فيه ويعيدون^(٣٥) .

(٣٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤١ - ٤١٨ ، أدولف أرمان : المرجع السابق ص ١٥٣ - ١٥٦ .
A. Gardiner, Op. Cit., P. 250.

الفصل الخامس

عقائد البعث والخلود

(١) فكرة البعث عند المصرى القديم ومقوماتها :

كان المصريون القدامى من أوائل الأمم ، ان لم يكونوا أول أمه آمنّت بالبعث والخلود بعد الموت فى حياة قد لا تختلف فى جوهرها عن حياتهم فى العالم الدنيوى ، وقد كان بناء الاهرامات وغيرها من المعامير الدينية الضخمة نتيجة سيطرة الدين على المصريين وأثره فى حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان ولا يزال وسيظل — أكبر قوة تؤثر فى حياة الانسان ، كما انه كان منفذا للخيلات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة كان قد اعتنقها القوم وكان لها أكبر الاثر فى نفوسهم ، بل انه ، فيما يرى برستد ، لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم (١) .

وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا القوم عددا هائلا من المقابر والاهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا نجد الا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، بل ان العواصم الكبرى ، كمنف وطيبة ، قد اختفت ولم نكد نترك من بعدها أثرا ، ولعل السبب فى ذلك أن الاولى أبدية ، وأن الثانية وقتية .

وهناك ما يشير الى أن فكرة البعث والخلود انما قد بدأت قبل

1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939, P. 45.

التاريخ بالآلاف السنين ، ومن هنا رأينا أصحاب حضارات العصر الحجري الحديث يضعون شيئاً من القرايين لموتاهم ، ففي مرمدة بنى سلامة لا يضع القوم شيئاً من القرايين لموتاهم سوى حفنه من الحبوب ، توضع أحياناً على مقربة من أفواه الموتى ، اعتقاداً منهم بأن دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ، ويهيء لأرواحهم أن تشارك أهلها فيما يطعمونه ويشربونه في دنياهم ، ولا تشارك مرمدة في ذلك غير حلوان العمرى ، وأما بقية القرى المعاصرة فقد اعتاد أهلها دفن موتاهم خارج المساكن ، ومن تم فقد اهتموا بتقديم القرايين ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وإن كانت اكتشافات «(أيضا نجر)» في مرمدة عام ١٩٧٨ م تشير الى أن وجهة النظر هذه إنما تحتاج الى إعادة نظر ، بخاصة وأن إحدى المقابر قد قدمت لنا ثلاثة أوان فخارية سليمة مع بعض الشقف ، وأياما كان الامر ، فقد كان أهل مرمدة يدفنون موتاهم بين أكواخ الأحياء أو في داخلها ، وكان الموتى يرقدون على الجانب الايمن ، بحيث يتوجهون بوجوههم ناحية بيوتهم ، وإن حدثت حالات كان المتوفى يرقد فيينا على جانبه الايسر ، وبشكل نادر جداً على الظهر^(٢) .

وكانت مقابر حلوان العمرى في القرية نفسها ، أو على مقربة منها ، وربما بعيداً عنها بعض الشيء ، وكان الموتى يوسدون في وضع الجنين ، والى جانب الواحد منهم قرايين لا تعدو اثناء من الفخار ، وإن وجدت عند البعض الآخر باقة من الزهور عند صدر الميت ، على أن هناك حالات معدودة ، منها ان واحداً من الموتى وجد خلف رأسه صندوق من الصلصال ، وآخر بجانب يده صولجان ولعل الحالة الأخيرة ، ربما تشير الى وجود رئيس ، وبالتالي حاكم ومحكومين ، هذا فضلاً عن الإشارة الى الاعتقاد بتجهيز المنزل الابدى بالادوات التى كان يستخدمها الميت في حياته الاولى .

2) H. Junker, Merimade Benisalamé, I, P. 194-195, II, P. 51, III, P. 72-74, IV, P. 77; J. Eiwanger, Sonderuck aus den Mitteilungen des Deutschen Anchaologischen Instituts Abteilung Kairo, 35, 1979, P. 26-28.

هذا الى أن جثث الموتى انما قد وضعت على جنبها الايسر ،
واتجهت الرأس الى الغرب حيث تغرب الشمس ، وتبدأ دورتها في
العالم السفلى ، ومن ثم فربما أراد القوم بذلك التقليد الدينى ربط
أنفسهم بما يحيط بهم من ظواهر كونية معينة^(٣) ، وان ذهب «تشرنى»
الى أن اتجهوا وجوه الموتى الى الغرب انما يرجع الى أن الصحراء
الشرقية كانت مطروقة لدى القوم ، وتنتهى عند البحر الاحمر ،
بعكس الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها والتى لم يعرف
القوم لها حدودا كالأبدية التى لا حدود لها^(٤) .

ومع ذلك فقد كان المتوفى فى جبانة نقسادة ، وهى أكبر جبانات
ماقبل التاريخ ، توضع رأسه جهة الشمال ، ووجهه نحو الشرق ، وعلى
أى حال ، فإن القوم ظلوا دائما يتخيلون الغرب علما على مملكة الموتى ،
وحتى اذا تطلب موقع مكان ما أن تقام جبانته على الشاطئ الشرقى
من النيل ، فإن كتابات المقابر تتحدث رغم ذلك عن «الغرب الجميل»^(٥)
الذى بلغه المتوفى ، وهكذا أقيمت خلال آلاف السنين مقابر لا حصر
لها على حافة الصحراء الغربية .

وكان أصحاب الحضارة التاسية يدفنون موتاهم ملفوفين فى جصير
أو فى جلود الحيوانات ، ثم يضعونهم على الجانب الايسر ، على هيئة
الانثناء ، بحيث تتجه الرأس نحو الجنوب ، والوجه نحو الغرب ، طبقا
للعادة المصرية القديمة ، وكانت جبانتهم بعيدة عن مساكن الأحياء^(٦) .
هذا وقد استمر القوم على أيام حضارة البدارى (من العصر الحجري
النحاسى) فى العناية بالادوات التى توضع مع الميت ، ثم بدأوا عادتى
جديدين ، الواحدة وضح الميت على لوحة بسيطة ، والاخرى تبطين

3) F. De Bone, El-Omari, ASAE, 48, 1948, P. 567-568.

4) J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 16.

5) N. de G. Davies, The Rock Tombs of Shekh-Said, London, 1951, P. 25.

6) G. Brunton, Mostagadda and the Tasian Culture, London, 1937, P. 5-7.

جوانب القبر بالحصير ، هذا فضلا عن أن القوم انما كانوا يضعون رؤوس موتاهم فوق وسائد ، ويحرصون على ان تكون وجوههم نحو الغرب ، وان وجدت حالات استثنائية قليلة اتجهت وجوه الموتى فيها نحو الشرق^(٧) .

وقد حاولت «(مرجريت مري)» ان تستنتج من ذلك نتيجتين تنطبق كل منهما على الوضعين السابقين ، استنتجت ان اتجاه الموتى نحو الغرب انما قصد به ان يستقبل روحه عندما تعود اليه من عالم الغرب ، وهو عالم الموتى في العقائد المصرية القديمة ، واستنتجت من الاتجاهات الاستثنائية المتجهة نحو الشرق أن أصحابها كانوا من غير البداريين ، من جماعات عبدت الشمس ، وحرصت على أن تتجه بوجوه موتاهم نحو شروقها^(٨) ، الامر الذي تكرر في حضارة جرزة ، مما يوحي بإمكانية وجود عقيدة شمسية ، الامر الذي تؤكد حضارة ايونو (عين شمس) منذ وقت مبكر ، وهناك ما يؤكد تطور في عقائد البداريين ، وايمانهم باستمرار الحياة في العالم الآخر ، فلقد وجد في احدى المقابر بقايا خشبية ربما كانت تتصل بتخزين ما يحتاج اليه الميت ، الامر الذي رأى فيه «(برنتون)» و «(كاثون طمسون)» دليلا على رغبة القوم في دفع أذى اشباح موتاهم عن طريق ارضائها بهذه القرابين ، بينما ذهب «(يونكر)» الى أن تزويد الاحياء للموتى انما كان عملا أساسه الحنان والتعاطف ، وأما «(فاندييه)» فالرأى عنده أن تقديم القرابين انما يعنى رغبة الاهل في استمرار الصلة بين الاحياء والموتى^(٩) .

هذا وقد عثر على بعض لفائف من الجلد أو القماش حول جسم المتوفى ، فضلا عن بعض تماثيل لبعض الحيوانات ، وخاصة فرس

7) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilisation London, 1928, P. 18-20.

8) M. A. Mury, JEA, 42, 1956, P. 89.

9) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 42; H. Junker, Op. P. 107.

النهر ، فى قبورهم الى جانب تماثيل أخرى للنساء والطيور ، هذا فضلا عن دفن البداريين لبعض الحيوانات ، الامر الذى يتصل اتصالا وثيقا بربط تفكير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده بأن ظواهرها المختلفة انما تمر بنفس دورة الحياة والموت والخلود التى يمر بها الانسان (١٠) .

وهناك من حضارة العمرة (عصر ما قبل الاسرات) تماثيل من الفخار والعاج تمثل رجالا مغمدة قصبانهم ، ونساء يسترن أعضاءهن كذلك ، وان كانت أغلب التماثيل للنساء ، ربما لان صناعها من الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الاخر ، شأنهم فى ذلك شأن كل فنان مبتدىء ، وربما لان عقائد ما بعد الموت قد تطلبتها ، كما تطلبتها منذ عصر حضارة البدارى ، كى ترمز الى الزوجات والجوارى اللاتى يتمنى المتوفى أن يكفلن له الذرارى فى حياته الاخرى ، وربما يرمزن الى المراقصات اللاتى يتمنانهن لمتعته فى الآخرة ، ومن ثم فقد أظهر الفنان غلظ أفخاذهن وأسداثهن لتبدو مثيرة أو لترمز الى الربات اللاتى يتمنى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث مرة ثانية (١١) .

هذا وكان لمجتمع المعادى حياته الروحية التى ظهرت بعض شعائرها على أوانيهم ، فصورة التمساح فى احداها تشير الى أن عبادة التمساح التى عرفت فى مصر الفرعونية انما ترجع الى هذه الفترة ، كما أن دفن الاجنة فى أوان فخارية لكل منها ثقبان لكى تعود منها الروح الى الجسد ، انما تشير الى عقيدة البعث بعد الممات ، تلك العقيدة التى كانت محور الحياة الروحية فى مصر القديمة ، وان كان هناك من يذهب الى أن تلك المفتحتين انما كانتا فى مقابل العينين ، فاذا افترضنا أن هذا

10) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 25-27.

11) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, II, Oxford, 1960, P. 70.

وأنظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢٨ ، ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

انما قد حدث عمدا ، فانه يشير الى بداية تصور عينين على جانب التابوت ليطل المتوفى بهما على العالم الخارجى وعلى مقدمى القرايين ، الامر الذى حدث منذ انخريات الدولة القديمة ، وأياما كان الامر ، فلقـد عثر فى جنابة وادى دجله ، المجاورة للمعادى ، على مقابر زودت بمستلزمات المتوفى واحتياجاته فى العالم الآخر ، وخاصة الاوانى الفخارية والادوات الحجرية (١٢) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت ، والذى نشأ منذ تلك العصور المبكرة من تاريخ مصر الفرعونية ، انما كان يعضده كثيرا ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الانسانى بعد الموت من البلوى الى درجة لا تتوافر فى أية بقعة أخرى من العالم ، فلقـد اعتادت أغلب أجيال القوم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم فى الحواف الصحراوية ، والغربية منها بخاصة لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الارض الطينية ، ويتركوا أرض الزراعة للزراعة ويوفروا أرض القرى لحياتها ، وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة .

وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها الى جفاف الصحراء وحده ، ولا الى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وانما ردها أساسيا الى قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم اذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقـدسوه ، زاد من رعايته لجثثهم وحفظها سليمة لأطول مدة ممكنة ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيلوه ربا للحواف الصحراوية وسموه «انبو» أو «أنوبيس» كما دعاه الاغارقة ، كان هو نفسه المعبود الذى تخيلوه راعيا لجثث موتاهم وقادرا على حفظها وحاميا للجبانات ، وقد انتشر الايمان به من طائفة

12) M. Amer and Rizkana, Excavations in Wadi Dlgla, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XV, Part, II, P.201-205.

الى أخرى حتى أصبح الجميع يتوجهون بدعواتهم الاخرى اليه ،
وقد اعتبروه ربا للتحنيط بارعا ورمزوا له بهيئة ابن آوى •

وكان النيل هو العنصر الثانى الذى كان سببا فى ايمان القوم بالبعث
والخلود فقد كان فيض النيل يأتى دائما فى موعده ، فما أن تقبل
شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتمتد الحقول بالمياه والمطمى
الجديد ، وكان النيل دائما يبر بوعده ولم يقصر فى مد تلك الحقول بما
يبعث فيها الحياة ، فكان انتظامه سببا فى غرس شعور الثقة فى نفوس
القوم ، وبث مولده المتكرر فى نفس المصرى عقيدة راسخة ، انه فى
استطاعته هو الاخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية ، ولا يمكننا
أن ننكر أن كثيرا ما حدث أن النيل قد قصر فى مجيئه وهبط عن معدله
الطبيعى ، وحينئذ تكون الشدة التى قد تصل الى المجاعة ، ولكنه لم
يقصر أبدا الا لفترة محدودة ، كان يعود بعدها وقد حمل فى وطابه
الخير العميم ، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام فى موسم
لا يخلفه ، فيخصب التربة وينبت البذرة ، ويدفع دورة الحياة الزراعية
دفعة جديدة ، وسرعان ما تتابع الدورات الى ما لا نهاية ، وقد وجد
القوم أن ذلك انما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التى تغطيها المياه
ثم سرعان ما تنحسر عنها فتتحيا وتزدهر ، ثم تعود فتغرقها (أى
تميتها) من جديد ، ثم سرعان ما يتكرر الامر كله مرة ثانية •

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائيا من غير علة أو
غاية ، وانما آمنوا معها برب كريم يدفع الفيضان من باطن الارض ،
ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد
الموت كلما مسها بفيضه ورحمته ، ومع طول التدبر ونمو التدبير قدروا
أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها ، قادر من
غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم ، طالما أحبهم ، وطالما
تقربوا اليه وقصدوه ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر
منهم ربا للفيضان والخصب والزرع وقد سموه باسم «(أوزير)» ، كان
هو نفس المعبود الذى نسبوا اليه ربوية البعث والاخرة ، وجعلوا

مملكته تحت الارض ، وامتد تقديسهم له في طول البلاد وعرضها ، وأحاطوه بأساطير وتخيلات ، وهو غير حجبى (١٣) .

وكانت الشمس هي العنصر الثالث الذى ألهم المصرى القديم عقيدة البعث والخلود ، فلقد رأى القوم ، كما رأت شعوب أخرى ، ذلك الكوكب العظيم الذى يغرب يوميا في الغرب ، ويعود الى الشروق من الشرق ، ولكنهم رأوا كذلك ما لشمسهم من تأثير خاص في حياتهم بسبب وضوحها في سماء مصر الصحو ، وبسبب الوفاق والانسجام بين مواسم حرارتها وبين مظاهر الطبيعة الاخرى ، وعلى رأسها النيل ، وأثر ذلك كله في بذر المحاصيل وجنيها ، فضلا عن ارتباط شروقها ببقظة الكائنات بعد النوم ، وبالحركة بعد الخمول ، والرؤية بعد قلة الرؤية ، فلم يردوا ذلك الى عملية آلية لا روح فيها ولا هدف لها ، وانما ردوه الى رب قادر (هو رع) اتخذ الشمس آيته الكبرى لنفع الاحياء في الدنيا ، ثم رأوا أن هذا الرب الذى يسير الشمس لمنفعتهم في الدنيا ، قادر على ان يوجهها لمنفعتهم في الاخرة ، بعد ان تتجه الى الافق الغربى حيث توجد أغلب مدافنهم ، فينزل فيه الى ما تحت الارض ، وتنشئ ظلمة القبور ، وتثير مسالك العالم السفلى ، وتخيّلوا للرب من أجله هاتين الغائتين مركبا يعبر بها سماء الاحياء في النهار ، دعوها «منعجت» (منعجة) ، ومركبا يعبر بها سماء الموتى في الليل ، دعوها «مسكت» (مسكته) ، وله في هذه الاخرة مسار معلوم تحدثت عنه كتب الموتى في كل ساعة من ساعات الليل الاثنى عشر (١٤) .

(٢) مقومات الانسان عند المصرى القديم

كان المصريون القدامى يعتقدون أن الانسان انما يتكون من جسد

(١٣) عبد العزيز صالح - الشرق الادنى القديم - الجزء الاول -
مصر والعراق ص ٣١٥ .
(١٤) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

وروح^(١٥) ، وأن الجسد مصيره الى القبر بعد الموت ، وأما الروح فمصيرها الى السماء ، وكما جاء فى نصوص الاهرام «ان الروح انما تذهب الى السماء ، بينما يبقى الجسد فى الارض» ، ومن ثم فقد اعتقدوا أن هناك — بجانب الجسد المادى (خت) — روحا نورانية شفافة هى «الآخ» تذهب الى السماء وتبقى فيها الى الابد مع الاله أوزير ، وأن هناك روحا اخرى هى «الكا» أى المقربين تبقى بجوار الجسد فى مقبرته ، وفيما حوله على الارض ، وأن القرابين انما تقدم اليها ، وهى فى نظر القوم ، الملاك الحارس للانسان أو التى كان المرء يستقبلها عند مولده بأمر من الاله رع ، وكانوا يعتقدون أنه ما دامت هذه «الكا» معه، وما دام هو رب الكا ، وأنه يَغْذُو منها ، فهى حى يرزق ، ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا ، فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماما .

وهناك روح ثالثة هى «الباء» ، والتى يمكن تسميتها بالروح الابدية ، وهى اذ كانت تترك الجسد وتنفلت منه عند الموت ، فقد تخيلوها فى أشكال مختلفة ، فهى أحيانا كطير ، ومن ثم فمن المحتمل ،

(١٥) افترض المصريون للانسان مقومات عدة طبيعية ومكتسبة ، أهمها سبعة وهى : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك (آب) ، وطاقة أو فاعلية أو نفس فاعلة (كا) ، واسم معنوى (رن) ، وظل ملازم (شرت) ، وروح خالده تسرى فى الظاهر والباطن (با) ونورانية شفافة (آخ) وتشدد صلته بالآثنين الاخيرين منها بعد وفاته ، اذا كان صالحا ، واعتقدوا انه لابقاء للمرء فى أخراه الا باجتماع كل هذه المقومات ، وأنه لا مساعدة لها فى جملتها دون مساعدة خارجية ، ولهذا تلمسوا سبل الاهتمام بكل واحدة منها على حدة الى جانب الاهتمام بها جميعا كوحدة واحدة ، فالجسد ينبغى أن يَصان ويحفظ ، والقلب يحفظ ويرتجى ، والكا تتلى التراتيل باسمها وتقدم القرابين لصاحبها ، والروح تنتقل فى عوالم الارض والسماء ، ما دامت مؤمنة ، ونورانية تكتسب بصالح الاعمال ، والاسم يخلد عن طريق ترديده فى الدعوات ، وتكرارة فى نقوش المقبرة ، بقرنه بالسمعة الطيبة عن طريق جهود الابن الاكبر (عبد العزيز صالح : مداخل الروح وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة ص ٩٥ - ١٣٦) (مجلة كلية الاداب - جامعة القاهرة - ١٩٦٤) ، (الشرق الادنى القديم - الجزء الاول ص ٣١٤ .

فيما يرى القوم ، أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التي في أشكال مختلفة ، فهي أحيانا كطير بين طيور الاشجار التي غرسها بنفسه ، وقد تكون في هيئة زهرة اللوتس أو في هيئة ثعبان يندفع من حجره أو في هيئة تمساح يزحف من الماء الى الارض ، هذا وكان القوم يعتقدون أن الباء تلحق بموكب الشمس في رحلتى الليل والنهار ، وأنها تزور الجسد في رحلة النهار ، وأن كلا من الباء والكاء مرتبط بقاءهما وخلودهما ببقاء الجسد وخلوده ، كما أنهما تفنيان بفناء الجسد وفساده ، ولعل هذا السبب في اهتمام القوم بتحنيط أجساء موتاهم حتى تحتفظ بملامحها الى كانت لها في الحياة الدنيا — الامر الذي ناقشناه بالتفصيل في الجزء الرابع من هذه السلسلة (الحضارة المصرية القديمة — الاداب والسلوم — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٤١ — ٤٥٥) •

— (٣) عالم الموتى :

تجددت آراء المتفكرين من القوم في تحديدهم لعالم الموتى ، فتخيله بعضهم في جوف الارض ، حيث كان يدفن الموتى ، وحيث يحكم من يحيى التربة والبذرة وينبت الزرع ويدفع الفيضان ويرعى المكودين وهو «أوزير» ، وتوهمه بعض آخر في الغرب على الاطلاق ، حيث توجد أغلب مقابر القوم ، وحيث تغرب الشمس ، وحيث يمتد البصر الى ما لا نهاية في الصحراء الغربية غير ذات الحدود المرئية ، بالنسبة لمعارف عصرهم ، ومن هنا كان اتجاه أغلب الموتى المصريين الى الغرب ، ذلك لان الصحراء انما كانت مطروقة ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس الصحراء الغربية التي تغرب الشمس في اتجاهها ، والتي لم يعرف القوم لها حدودا كالأبدية التي لا حدود لها^(١٦) ، ومن ثم فقد أطلق القوم على عالم الموتى اسم «عالم الغرب» ، كما كان الموتى يسمون «أهل الغرب» •

على أن هناك فريقا ثالثا ذهب الى أن عالم الموتى انما كان في

16) J. Černý, Op. Cit., P. 16.

السماء ، حيث الرفيق الاعلى ، وحيث مسيرة الشمس في النهار ، وحيث النجوم التي تتلألأ بغير حصر في الليل ولا تريم ولا تفنى ، وقصروا هذا الامل في السمو الروحي والمكان في بدايه امرهم على الحكام الذين كبر عليهم أن تؤول ابدانهم وتتولى ارواحهم الى عالم التراب ، كما تؤول بقيه الأبدان والارواح ، فتوشموا موتهم صعودا الى السماء ، وحياة بين النجوم ، ومصاحبه لكوكب الشمس حيثما دار ؛ ومن ثم فقد راينا النصوص انما تصف موت «أمنمحات الأول» وكأنه قد صعد الى السماء ، واتحد مع الآله ، حيث تقول : «صعد الآله الى السماء وأصبح متحدا مع قرص الشمس ، واندمجت أعضاء الآله (أى الملك) بمن خلقه» ، كما جاء في نصوص الاهرام أن الملك قد يتمثل في شكل «ذلك النجم الوحيد الذى يشرق في الجانب الشرقى من السماء ، والذي يجوب السماء في صحبة نجمة الصباح والجبار والشعري الميمانية» (١٧) .

هذا وقد تصور القوم أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها ، أن يتخذ بعد موته شخصية اله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الآلهة ، أو يتلقاه اله الشمس لقاء حسنا ، ويهيء له مكانا في سفينته أو يتخذه كاتباً له يجلس أمامه أو الى جانبه ، ومن ثم يجوب واياء السماء في النهار ، كما يجوبها في الليل مع اله القمر تحوت ، وقد جاء في متون الاهرام أن الملك المتوفى ليس انسانا ، وأن «آباءه ليس من البشر ، وامهاته لسن من الناس وانما هو تحوت أقوى الآلهة ، أو هو شو بن رع ، الذى يحمل السماء ويتزعم الارض ويقضى بين الآلهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بطلية رع ، وعليه نقبتة كحاتحور ، انه يغدو الى السماء فيجد رع واقفا فيجلس الى جانبه ، ولا يسمح له رع بأن يرتقى على الارض ، لانه يعلم حقا أنه أعظم منه» ، كما يعلم أن هذا المجد لا يفنى ، انه ومن ثم يبعث المرسل من

17) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 217.

A. M. Blaskman, BA, II, 1932, P. 1-41.

G. Foucart, BIFAO, 14, P. 131.

الملائكة ليعلنوا الى سكان السماء ، انه قد ظهر لهم ملك جديد ، انه
ممجد لا يقنى ، اذا شاء لكم الموت فانكم تموتون ، واذا شاء لكم
الحياة فانكم تعيشون» *

هذا وقد تصور القوم أن الملك يدخل السماء «(حقل الآسل)» (يارو)
أو «(مقر المجددين)» ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير الى
تارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته ، ويقضى
بينها على نحو ما كان يفعل فى الارض ، ومن ثم فلم يكن دخول جنة
الآسل مقصورا لى الملك وحده ، وانما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته
والابرار من شعبه *

هذا ولم يقدر لاحد هذه الاراء أن يسود على غيره ويحل مكانه ،
وانما تقاربت من بعضها البعض ، وربما حدث تنافر قصير فيما بين
أنصار عالم السماء وربهم رع ، وبين أنصار عالم ماتحت الارض وربهم
أوزير ، ولكنه سرعان ما لبث أن زال ، وأدت اىحاءات السياسة ومرونة
الدين الى التوفيق بين المذهبين عن طريق موازنة امتداد نفوذ رع رب
الشمس الى أسفل الارض حيث يهبط كوكبه فيه ليستضىء الموتى
بنوره ، مع افتراض نفوذ مماثل لرب العالم السفلى أوزير فى السماء
ليرعى الابرار الذين ترفعهم أعمالهم اليها ، والذي اتسع مدلوله (أى
مدلول الابرار أهل السماء) فشمل الصالحين جميعا ، ولم يعد مقصورا
على الفراعين والحكام وحدهم^(١٨) *

(٤) الحج الى أبيدوس :

اكتسبت أبيدوس (ابجو) نصيبا من المقداسة لوجود معبد «خنثى

(١٨) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٣٧ - ٢٤٢ ، عبد
العزیز صالح : المرجع السابق ص ٣١٦ ، محمد أنور شكرى وآخرون :
حضارة مصر والشرق القديم ص ٩٦ ،
Urk, IV, P. 34 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217; A. M. Blackman, BA,
II, 1932, P. 1-14.

امنتى» أمام الغربيين أو الغرب (عالم الموتى) على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها ، وزادت قداستها بعد بدية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح معبودهم أوزير ، ذلك أن القوم قد ظنوا منذ الاسرة الثانية عشرة أن مقبرة الملك «جر» من الأسرة الاولى هى مقبرة أوزير ، وذلك عندما قرأوا اسم «جر» على أنه «خنثى» ثم خلطوا بين هذا الاسم واسم المعبود «خنثى امنتى» . ولما شبهوا أوزير بالمعبود خنثى امنتى ، اعتبروه قبرا له ، وأضافت نصوصهم أن روح أوزير تعيش فى جميلة غناء بأرض بكر على شاطئ النيل قرب أبيدوس ، ثم سرعان ما تضخمت قداسة أبيدوس بمرور الاجيال ، حتى اعتبرت دارا للحج والزيارة ، ربما منذ أيام الدولة القديمة .

هذا وقد أصبحت منذ الاسرة الحادية عشرة ، وربما منذ نهاية الدولة القديمة ، أعز أمنية لكل مصرى تقى أن يدفن فى أبيدوس ، ومن ثم فقد دفنت هناك منذ الاسرة السادسة طوائف من الناس لا حصر لها من جميع أنحاء البلاد بغية أن يكونوا أكثر قربا من الاله «حتى يتقبلوا هدايا البخور والقرايين الالهية على مائدة سيد الالهة ، وحتى يقول لهم عظماء أبيدوس «مرحبا» ، وحتى ينالوا مكانا فى قارب «نشمت» فى «الاعياد الجنائزية» ، فإذا كان الدفن فى أبيدوس من المصوبة بمكان ، فقد كان الواحد منهم يتمنى ، على الأقل ، أن يزور الاله أوزير فى أبيدوس ، وأن يقيم فيها حجرا «عند درج الاله العظيم» وأن «ينقش اسمه فى مقر إقامة الاله» حتى يضمن لنفسه مكانا بين الممتازين من الموتى ، وحتى تستطيع روحه أن تشارك فى أعياد أوزير ، ويستقبل معه السفينة الالهية التى ينتقل فيها ، وحتى اذا ما وصل فى سلام الى أبيدوس لخدمة «أوزير ونفرى» حيا الاله قائلا «السلام عليك أيها الاله العظيم ، يا سيد تاور ، العظيم فى أبيدوس ، لقد أتيت اليك ياسيدى فى سلام ، فكن بى عطوفا ، فأنت صاحب العطف ، واستمع لندائى ولب ما أقوله ، فانى واحد من عابديك» .

وربما أصابت الجثة من قرايين أوزير لما أخذت منها كفايتها ، ذلك لان المتوفى «عندما يقفل راجعا من أبيدوس بسلام» فانما يفخر بأنه أصاب هناك قربانا من الخبز «واستنشق عير المر والبخو» ، وأما من كان لا يريد أن يدفن في أبيدوس لسبب من الاسباب ، فانه كان يقيم هناك في المدينة المقدسة لوحا تذكاريًا على الاقل ، وهناك ما يشير الى أن كثيرا من أبناء الطبقة الوسطى من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية على أيام سنوسرت الثالث قد استغلوا ثرواتهم في إقامة لوحات بأسمائهم ، وكذا تماثيل صغيرة أقاموها لأنفسهم بمعبد أوزير في أبيدوس^(١٩) .

هذا وتدل مجموعة الآثار المنتشرة في أنحاء العالم الى انتشار هذه العادة ذلك لان أغلب الشواهد والنصب التذكارية الصغرى من أيام الدولة الوسطى انما قد وجدت في أبيدوس ، ويروى الكثيرون من زوار المدينة المقدسة أن أعمالهم قد أفضت بهم اليها ، على أن آخرين انما زاروها حاجا ، ولكن غيرهم لم يكتب لهم ذلك الا بعد موتهم ، وهناك في مقبرة «خنوم حتب» في بنى حسن ما يشير الى أن الرجل قد صعد في النيل «ليتعرف ثئون أبيدوس» ، ثم نرى بعد ذلك جثته تحت مظلة على السفينة والى جانبها الكاهن «سم» وال «خرجت» لا يفادرانها طوال الرحلة ، وهناك في أبيدوس يقدم «خنوم حتب» الى اله الموتى وكأنه فرد جديد في رعيته ، ثم يشترك في حفلات أعياده ، فيرى «ذلك الذى يخطر فى جماله مثل وب واوات» ثم «كيف يبرر أوزير أمام الالهة التسعة» ، ثم يعود الى موطنه تصحبه نساؤه وأبنائه ، حيث يدفن في مقبرته فى صخور بنى حسن .

هذا وقد ظل الاعتقاد فى الدولة الحديثة فى أن الميت انما يحظى

(١٩) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٣٤١ - ٣٤٢
L. Klebs, Die Reliefs des alten Reiches, 1915, II, P. 5. F; J.J. Taylor and F. L. Griffith, Tomb of Paheri, London, 1895, Pl. 5; J. Vercoutter and others, the Near East, the Early Civilizations, 1967, P. 374.

ببركة خاصة اذا ما انضم الى أوزير في أبيدوس ، وان كان القوم كانوا يودون دائما أن يدفن الواحد منهم في موطنه الاصلى ، ومن ثم كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية ، أو حتى مقبرة تذكارية ، في أبيدوس ، ومن ثم فقد بنى أحمس لجده «تتى شيرى» التى دفنت في طيبة مثل هذه المقبرة الرمزية في أبيدوس هذا وقد عثر «بترى» على لوحه في أبيدوس يوصف فيها أحمس وكأنه يجلس الى زوجه «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما ، فقد قالت له أختى (بمعنى زوجته) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا فى قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلاً : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى، زوجة الملك العظمى ، وأم الملك تتى شيرى المتوفاة ، أن لها اليوم غرفة دفن وضريحاً فوق أرض المقاطعة الطيبية ومقاطعة أبيدوس ، ولكنى أقول لك ذلك لان جلالتي انتوى أن يصنع لها هوما ومحراباً فى الاراضى المقدسة ، على مقربة من أثر جلالتي ، هكذا قال جلالته ، ووضعت هذه الامور موضع التنفيذ (٢٠) .

(٥) القرابين :

كان المصريون القدامى يعتقدون أن «كا» المتوفى لا تنضم الى قبره الا اذا أمده الاحياء بالقرابين المختلفة كالخبز والغطائر والحلوى واللحوم والفاكهة والجعة والملابس والزيوت العطرية وغير ذلك مما كان يستمتع به الاحياء فى تلك العصور الخالية ، وكان من الطبيعى أن يقوم بهذا العبء ولد المتوفى الاكبر ، الامر الذى يرجعه البعض الى أسطورة أوزير التى تمثل بر الابن (حور) بأبيه أوزير ، ثم سرعان ما أصبح هذا البر بالوالدين مثلاً يحتذى فى كل الامور التى تدل على انسانية رفيعة ، ومن هنا فاننا نقرأ كثيراً فى النصوص المصرية «كما أن حور قد قرب عينه لوالده أوزير ، فكذاك يقرب الابن لابيه قربانا ، موحداً بعين حور» .

20) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 14-16, A. H. Gradiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 172.

وهكذا كان قيام الابن الاكبر بتقديم القرابين لابيهِ المتوفى انما كان يعد المثل الاعلى في البر والاحسان بالوالد ، ومن ناحية أخرى فان الابن الاكبر ان أهمل في أداء هذا الواجب ، فان أوخم العواقب تصيب أباه في آخرته ، ومن ثم فقد كان من الواجب عندئذ أن يقوم بهذا الواجب قوم يتخذون من هذه الصناعة حرفة يرتزقون منها ، وهكذا نشأت طبقة الكهنة الجنازبين ، وأدى ذلك الى أن توقف عليها الاوقاف للصرف منها على مستلزماتها وعلى الكهنة الذين يقومون بخدمتها ويؤدون لها الشعائر الدينية •

هذا وتشير شواهد الاحوال على أن الملك انما قد اشترك اشتراكا فعليا في تقديم القرban للمتوفى منذ عهد جدا قديم ، وليس هناك أدل على ذلك من صيغة القرban المشهورة والتي تبدأ دائما بكلمات «قربان يقدمه الفرعون لفلاح» مما يشير الى أن الفرعون انما كان هو المتصرف الاعظم في أمور القرban ، بوصفه المالك لكل شيء في مصر ، وان كان ذلك لا يخلو سبيل ابن المتوفى من القيام بواجباته نحو أبيه ، ومن ثم فهو الوسيط بين الملك والمتوفى •

هذا وقد كان الملوك يوقفون ضياعا كبيرة على ما أقاموا من أهرمات ومعابد حتى يتمكن الكهنة من تقديم القرابين الى الابد ، ومن هنا استمرت عبادة بعض الملوك الى الاف السنين ، حتى استمرت عبادة ملوك من أمثال سنفيرو وخوفو وخفرع حتى العهد البطلمي ، وكانت تلك الاوقاف تبلغ أحيانا قدرا كبيرا من المال ، ففي القرن التاسع والعشرين ق.م أوقف على قبر الامير «نكاورع» بن «خفرع» ما لا يقل عن اثني عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة ، وقد أوقف كل دخلها على صيانة قبره^(٢١) ، وفي الاسرة السادسة أصدر «ببى الاول» أمرا ملكيا

(٢١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٦٥ وكذا J. H. Breasted, A, History of Egypt, 1946, P. 60.

نيابه عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتى هرمه ، جاء فيه «أمر جلالتي بأن تعفى هاتان المدينتان الى الابد من أداء أى عمل للمقر المملكى ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر المملكى الى الابد ، ومن أية سخرة يأمر بها أى انسان» (٢٢) .

هذا فضلا عن أن أمراء الاقاليم انما قد نحتوا قبورهم فى صخور أقاليمهم ، وخاصة فى مصر العليا والوسطى ، وقد كلف ذلك خزائنة الدولة الكثير من المال ، ذلك لان الملك انما كان منذ بداية العصور التاريخية قطب الحياة المصرية وعمادها ، ومن ثم فقد كان يغدق على عظماء رجاله جزءا كبيرا مما يحتاجون اليه فى تجهيز قبورهم والانفاق عليها بعد ذلك ، وهكذا رأينا مدير قصر الملك «وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنائزين لخدمة قبره ، ويكافىء الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول اليه دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل على قبر الملكة «نفرحتب» ، ولعل الذى دفعه الى ذلك انما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة الى أخرى حديثة العهد (٢٣) .

وفى عهد الاسرة الثانية عشر أعد «(حعبى زفاى)» حاكم كرمه بالسودان من قبل الملك «سنوسرت الاول» مقبرة فخمة فى موطنه الاصلى بأسيوط ، وتتكون من سبع حجرات ، ويبلغ عمقها ٤٥ قدما ، وتشتهر بنقوشها التى توضح تفاصيل الاعمال والطقوس الكهنونية التى كان يريد «(حعبى زفاى)» أن يقوم الكهنة بها بعد موته ، وقد أوقف عليها الكثير من الاراضى والعبيد والماشية ، ولكن الاقدار لم تكتب له أن يدفن فيها ، وانما دفن فى كرما ، تحت ركة من التراب ، يحيط بها حوش دائرى ضخم مبنى من الطوب ، قطره ٢٧٥ قدما ، وعلى

22) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 99.

23) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 61-62.

طريقة النوبيين ، هذا وقد امتازت مقبرة أسيوط بتلك العقود الجنازية التي كانت أشبه باتفاق تجارى بين «حعبى زفاى» وبين الكهنة ، وهى عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على مقبرته ، وتهدف الى أقامة الاحتفالات الدينية فى المعبد على مر الايام^(٢٤) .

وقد استخلص الباحثون منها معلومات هامة عن الاعياد المصرية التي كانت تقام فى أسيوط فى الاسرة الثانية عشرة ، فضلا عن الاحتفالات الجنازية التي كانت تقام للأفراد ، والمرتبطة بالاعياد العامة ، وقد أتضح منها أنه ما كان يمر يوم دون أن يقدم الطعام والشراب لقربين حعبى زفاى ، كما أنها تقدم لنا صورة واضحة عن أهمية تمثال المتوفى فى الشعائر الجنازية ، وذلك بسبب علاقة التمثال المباشرة بالقربين (كا) فهو يمثل المتوفى ، واليه تقدم القرابين ، كما أن المتوفى ليس فى استطاعته أن يشترك فى هذه القرابين الا فيما بعد ، أى عند خروجه من القبر نهارا ، ومن ثم نرى بعد ذلك أن صيغة القرбан ، كما نفهمها فى عهد الدولة الوسطى تجعل حعبى زفاى يأكل من الطعام الذى كان يقدم كل يوم للاله المحلى «وب واوات» ، ومن ثم فقد كان على كاهن محراب هذا الاله أن يحمل وجبه يومية الى قبر حعبى زفاى أمام التمثال ، كان يزداد مقدارها فى أيام الاعياد بنسبة زيادة القرابين الالهية نفسها .

هذا وكان تمثال المتوفى يحمل فى موكب الى معبد الاله المحلى الرئيسى ، حيث يقدم له الكاهن نصيبه من القرابين ، ذلك لان اشتراك المتوفى فى أخذ نصيب من القرابين الالهية انما كان فى نظر العنصر الرئيسى فى الشعائر الجنازية ، كما كان وضع تمثال الواحد منهم فى معبد الاله المحلى أو وضع تذكاري له فى محاريب الدولة الكبرى ميزة يحسد عليها ، وليس هناك من ريب فى أن كل ما كان يخص الشعائر الجنازية انما كان من الامور الحيوية ، ومن هنا وضع حعبى زفاى

(٢٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٤٠١ ،

شروطه العشرة ، والتي كان منها مثلا «انارة الضوء» الذي كان يحدث في بعض الاحتفالات ، فأوجب على الكهنة الذين كانوا يلاحظون المصاييح في المعابد أن يقدموا الذبالات لهذه الانارة بانتظام •

وبدهى أن الكهنة الذين عقد معهم حعبى زفاى عقودهم لم يكونوا يعملون بدون أجر ، ومن ثم فقد كافأهم على ما كانوا يقدمونه له من قرايين ، وذلك بالتنازل لهم عن أجزاء من أراضيهم أو بالتخلي لهم عن أمور أخرى ، ذلك ن الرجل انما كان بحكم مولده ينتمى الى هيئة كهنوت الاله «وب واوات» ، وبالتالي فقد كان له نصيب من مقررات معبد هذا الاله ، وربما قد تنازل لهم عن جزء من نصيبه ونصيب ورثته من هذه المقررات ، هذا فضلا عن أنه قد ترك وقفا من الاراضى والخدم والماشية والحدائق وغيرها للقيام بالطقوس الجنازية الخاصة به ، ولعل هذا هو السبب في أنه قد نقش عقود العشرة على جدران مقبرته في ستين سطرا ، ربما بوحى من الكاهن الذى نقشت من أجله أكثر تلك العقود •

ولعل من الاهمية الاشارة الى أنه كان هناك في هذا العصر ثمة قواعد ثابتة وراقية لتحرير العقود ، منها أن سلطان أمير الاقليم في الوصية والهبّة مقيدة محصورة ، فهو يؤكد المرة ثلو الاخرى أنه لا يستطيع أن يتصرف الا في هذا الجزء من أملاكه وموارده التى تعد حقا وراثيا في عائلته ، فبوصفه كبير كهنة في معبده كان من حقه قطعة ثواء من لحم العجول المضحاه في المعبد ، كان يريد أن يقدم قربانا لثمئاله في أيام الاحتفالات الكبرى ، ومع ذلك لم يستطع أن يقرر ذلك بنفسه ، ومن ثم فان عليه بوصفه فردا عاديا أن ييرم عقدا مع نفسه ككاهن أعظم ، وأن تقر هيئة الكهانة هذا العقد الذى يشتري بمقتضاه قطعة ثواء اللحم الآنفة الذكر ، هذا فضلا عن أن حعبى زفاى عندما أراد أن يضمن عدم تقسيم قرايينه التى أوقفها على مقبرته بين أبناء كاهنه الجنازى بعد وفاة هذا الكاهن طبقا لنظام الوراثة المعمول به في هذه الوظيفة ، فقد اشترط على الكاهن الجنازى أن تكون هبة الاراضى

والخدم والقطعان والحدائق وغيرها لأحب أبنائه إليه ، والذي سوف يكون كاهنا جنازيا لصعبي زفای بعد وفاة أبيه ، ولا يسمح لهذا الابن بدوره أن يقسمها بين أبنائه (٢٥) .

ومن أسف أن تلك الشروط وغيرها مما وضع للحفاظ لعى قرايين الموتى لم تراعى بدقة ، ومن ثم فإن كثيرا ما تخاطب كتابات المقابر زوارها في مستقبل الايام ، بعد أن شاع نكران الانسان للجميل حتى مع أقرب الناس إليه ، وهكذا رأينا أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحق في احترام الخلف له ، لأنه كان رجلا طيبا «لم يأت سوء ضد أى انسان» ، وأنه «ابتنى مقبرته هذه من مواد جديدة ، ولم يأخذ لها شيئا من ممتلكات انسان آخر» ، ويقول لنا آخر «ان ما يقدم له انما هو ملكه الخاص» و «أن ماشيته الخاصة تذبج له في قبره الذى بناه بيده» ، ويقول ثالث «أن كل من يدخلون هذه المقبرة ، ويرون ما فيها ويصنون كتابتها ... سيصبحون في مدنهم ، رجالا محترمين في أقاليمهم ، ولكن الويل لمن يتلف المقبرة ، ان المتوفى سوف يدعوه أمام المحكمة ، وهو وان لم يستطع ذلك على أية محكمة في الارض ، فهو يستطيع أن يداكمه أمام الاله العظيم الذى يقيم عنده» .

وهكذا كان الناس يستعينون بالسمااء وقت ذاك حين كانت العدالة في الارض لا تحقق على الوجه الاكمل ، ومن البدهى أن ما فعله الملك «ساحورع» ، كما رأينا من قبل ، عندما أراد أن يسر قلب موظف القصر العجوز «برسن» بهبة خالدة ، وذلك بالاستيلاء على وقف قديم ، والانتفاع به في المطالب الجنازية الجديدة ، لدليل على أن الملعات والاقواق الثابتة لم تق المقابر المصرية من المصير المحتوم ، ذلك

(٢٥) ادولف وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ١٤٩ - ١٥٢ .

A. Weigall, Op. Cit., P. 73; G. A. Reisner, JEA, 5, 1918, P. 79-98; J. H. Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, P. 259; ARE, I, P. 258-260; P. Montet, Kemi, I, P. 53; F. Griffith, the Inscription of Siut and Der Refeh, I, Pl. J. A. Wilson Op. Cit., P. 130-140.

لانه ما كان فى مقدرة الشعوب ، حتى أغناها ، من أن تتحمل دائما وأبدا ما تقتضيه الرعاية المتصلة لموتاهم من تكاليف باهظة، ومن ثم ففعل الذى دفع ساحورع الى أن يخصص لمقبرة «برسن» دخلا من الخبز والزيت كان يصرف من قبل من معبد بتاح الى مقبرة الملكية «نفرحتب» ، انما هو الرغبة فى التخلص من الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، مما أدى فى نهاية الامر الى أن تغلق كثير من المقابر القديمة وتترك لشأنها (٢٦) .

وتمضى القرون ويزداد اهمال شأن المقابر حتى ينتهى أمر الكثير منها الى الخراب ، ويمحى اسم صاحب المقبرة من بعضها ، ويثبت مكانة اسم مالك جديد ، وهكذا رأينا الكثير من القوابيت والتمائيل وغيرها من الاثاث الجنائزى انما يحمل آثار هذا الاستخدام المزدوج ، وربما كان الاسوأ من ذلك هدم بعض المقابر واستخدام أحجارها مادة سهلة للبناء ، وبمرور الزمن تضاعف معالمها ، وتحمل اليها الرياح رمال الصحراء التى سرعان ما تتجمع وتعلو شيئا فشيئا حتى تكون آخر الامر مستوى جديدا ، يقيم عليه جيل متأخر مقابر جديدة ، وهكذا توجد فى سقارة فوق المقابر الخربة من عهد الملك تتى ، من الاسرة السادسة . وغير بعيد من هرمه ، مقابر أخرى من الدولة الحديثة ، تعلوها مقابر أخرى أقيمت فى العصر اليونانى ، وقد خربت هذه المقابر جميعا ونهبت ، وقد أثارت هذه المناظر حكماء عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى رأينا فى ذلك الحوار الفلسفى بين «نسو وروحه» (٢٧) شسكا فى فكرة الخلود نفسها ، فهو لاء الذين بنوا لانفسهم مقابر فخمة انما هم الذين

(٢٦) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

F. L. Griffith, Op. Cit., P. 225 J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 61-62.

(٢٧) انظر : محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٢١٩ - ٢٢٠ ،

R. O. Faulkner, JEA, 42, P. 21-40.

A. Erman, LAE, P. 86-92.

R. Weill, BIFAO, 45, P. 89-154.

وكذا

وكذا

لم يبنونها سواء ، فالكل تحت حرارة الشمس ، والكل تعتقد معه
الاسماك الاحاديث ، يقول نسو «ان من شادوا مقاصير القرايين
بالجرانيت ، وخصصوا لانفسهم قاعات في الهرم ما غدوا أربابا في
السماء حتى أصبحت موائد قرايينهم خاوية ، وأصبح شأنهم شأن
المكدودين الذي قُضوا على ضفاف القنوات ، وقد أعوزهم الموريث ،
نال الفيض مقصده منهم ، وقيظ الشمس نصيبا ، وجلست الاسمال
اليهم تعتقد معهم الاحاديث على الصفتين» ، على أن هذا الشك لم يستمر
طويلا ، ومن ثم فقد رأينا كثيرا ما يشعر أحد الاحفاد الاتقياء بأن
واجبه انما يقضى اقامة هذه المقابر المهدمة ، وهكذا رأينا «أنتف» أمير
أرمنت من عهد الدولة الوسطى يفاخر بقوله «لقد وجدت غرفة قربان
الامير «نختى - اقر» مهدمة وتمائيلها مهشمة ، ولم يكن هناك من يهتم
بها ، فشيدتها من جديد ، وزدت في رقعتها ، وصنعت تمائيلها من جديد ،
وأقمت أبوابها من الحجر وذلك لكى يسمو مقره بين الامراء العظام
الآخرين» *

وفي الواقع أن ما فعله انتف انما يعد واجبا دينيا ، فلقد كان
القوم يسمون مقابرهم «مساكن أبدية» ، ويحبون أن يقولوا عن موتاهم
انهم ذهبوا الى مكانهم الابدى أى الى جبانتهم ، ويبدو أنهم فهموا أن
هذه الابدية لن تمنح لهم الا باقامة مبان حجرية أو نحت أضرحة في
الصخر يدفنون فيها (٢٨) *

(٦) الاثاث الجنائزى :

عنى المصريون منذ أقدم العصور ، كما رأينا من قبل بتزويد الميت
بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك ربما كان مقصورا في بادىء الامر على
أسلحته وحليه ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرابه ، غير أن
هذا سرعان ما يتغير بازدياد الرخاء وتقدم الحضارة المادية ، فكان

(٢٨) محمد ببومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٣ -

١٦٥ أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٩١ .

J. A. Wilson, ANET, P. 405.

يودع مع الميت كذلك الارائك والصناديق المقاعد وتمائيل النساء والخدم وربما القوارب وأوان من الحجر والنحاس ، ولعل أهم ما كشف عنه من أثاث جنازى يرجع الى عهد الدولة القديمة انما كان بقايا أثاث الملكة «حتب حرس» ففى عام ١٩٢٥ م عثر «جورج رايزنر»^(٢٩) على حجرة دفن ، شرقى الهرم الاكبر ، لم يعرف للصوم طريقهم اليها ، ومن ثم فقد عثر فى داخل هذه الحجرة على التابوت المرمرى الجميل ، والاثاث الجنازى للملكة «حتب حرس» أم الملك خوفو ، وزوج سنفرو ، ومع أن التابوت وجد خاليا الا أنه قد عثر على الاحشاء التى استخرجت من الجسد فى صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبى» .

ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملكة ربما دفنت فى مقبرة بدهشور ، على مقربة من هرم زوجها الملك سنفرو ، وأن اللصوص قد اقتحموا قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة بقية أثاثها اكتشف الحراس الامر ، فنقلوا البقية الباقية منه الى الجيزة ، وهناك قطعوا الى جانب طريق المعبد الجنازى للهرم الاكبر ، بئرا عميقا كدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة ، دون أن يحيطو الملك خوفو علما بذلك .

وهناك فى احدى قاعات المتحف المصرى بالقاهرة ، صفت محتويات الملكة حتب حرس ، ومنها أوان من المرمر ، وابريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الاظافر ، مہرية من أحد طرفيها لتنظيف الاظافر ، ومقوسة من الطرف الآخر لضغط أطراف اللحم عند الطفر الى اسفل ، هذا وقد احتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ، ملأى بالعطور والكحل ، فضلا عن عشرين خلخالاً من الفضة ، رصع كل منها

29) G. A. Reisner and W.S. Smith, A History of the Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.

وانظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ١٤٠ - ١٤٢

بفراشات من الدهنج واللازورد والعقق الأحمر ، وهناك كذلك سرير الملكة المصنوع بالذهب ، فضلا عن محفة مصنوعة من الخشب ، وقد كسى جزء منها بصفائح من الذهب ، محلاة بكتابة هيرغليفية من الذهب ، مثبتة في لوح من الابنوس ، ومكرره أربع مرات ، ويمكن ترجمتها كالتالى «أم ملك مصر العليا والسفلى ، تابعة الآله حور ، رائدة المحاكم ، العزيزة التى نفذ كل أوامرها ابنة الآله المولودة من صلبه ، حتبهرس» (٣٠) .

وبدهى أن أهم أثاث جنازى عثر عليه انما كان من مقبرة «توت عنخ آمون» والتى كشف عنها في وادى الملوك بطيبة الغربية (٣١) ، ذلك أنه في صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ عثر «هوارد كارتر» على باب مختوم في مكان عميق تخفيه بقايا تكونت فوق مقبرة رعمسيس السادس ، وكان الباب يؤدى الى أربع غرف منها ثنتان داخليتان سالتان تماما ، وأما الغرفة الخارجية عند المدخل فكنت تحوى أثاثا أعيد وضعه بسرعة وبغير ترتيب بعد أن حاول اللصوص نهبه وفشلوا ، أما الغرفة الرابعة فتقع وراء ذلك ، وكانت تستخدم للباقيا والمخلفات الى لم يكن من اليسير اصلاحها .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م أجرى رسميا افتتاح الغرفة الخارجية أو الجنوبية التى فاقت محتوياتها كل ما شهده أو حلم برؤيته أى واحد ممن قاموا بعمليات الكشف عن الاثار في مصر ، فقد عثر في هذه الغرفة على ١٧١ قطعة من التحف ومختلف الاثار ، فهناك على الجدار الغربى لهذه الحجرة تركت على عجل صناديق صغيرة ومقاعد وكرسى ذو ثقوب ومزين بروح الخلود ، وعرش يتلألأ بالذهب والفضة وعجائن الزجاج ،

30) I.E.S. Edwards, The Pyramids o Egypt, 1965, P. 132-136.

(٣١) أنظر :

H. Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, 3 Vols, London, 1923-1933.

وكذا

C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1963, P. 173, 183-184,

وصناديق متنوعة تحوى حليا وملابس لم تكد تمسها يد ، وكذا عناصر أربع مركبات مفككة ، ثم تمثال خشبي مرتفع أمامه صندوق كبير مطعم بالعاج والابنوس ، وقد صورت على ضلعه مناظر للصيد والحرب ، كما عثر كذلك على مذبذبات مزدانة بفرش النعام وحلى شتى ملقاة على الارض أو فى داخل صناديق ، وأوان من الكلسيت وحوامل مشاعل من خشب وبرونز وصولجانات وعصى وأبواق وصناديق صغيرة تحوى حلى وملابس أخرى للملك ، منها تلك القفازات التى كانت تتيح لفرعون مزيدا من راحة امساك أعنة جواده ، كما وجد بوق من البرونز عليه صورة الاله بتاح وأمون وحرار أختى ، ثم ثلاث عصى مزخرفة بفخزرات ، وأخرى ذات أطراف مقوسة ومزدانة بجسم رجل أسير أو زنجى أو هما معا ، وفى موضع آخر وجدت صلاصل من خشب مذهب ، وصندوق صغير ممتلىء بالاثواب والمناديل ومساند الرأس ، وكذا تماثيل الاوشبتي الخشبية البديعة ، فضلا عن ناؤوس من الخشب المذهب .

وفى ١٧ فبراير ١٩٢٣ كسر الحائط الذى يفصل الغرفة الخارجية عن الغرفة الغربية التى يحرسها تمثالان حارسان على الجانبين بالحجم الطبيعى للملك (ما بين ١٦٧ سم ، ١٧٠ سم) ، وان كان أهم ما فيها هيكل كبير مذهب ومحلى بالقاشانى وجدت بداخله ثلاثة هياكل أخرى مذهبة الواحد فى داخل الآخر ، وبداخل أصغرها تابوت ضخم من الكوارتز الاصغر يضم فى داخله ثلاثة توابيت فخمة ، وكان التابوت الاخير من الداخل من الذهب الخالص وبداخله مومياء الملك بقناعها الذهبى الرائع ، وكذا ثروة ضخمة من الحلى بين اللفائف تبلغ ١٤٣ حلية ذهبية ، وكان هناك سرير من خشب مذهب ، منخفض جدا ، على شكل أسد ، يحمل وحده التوابيت الثلاثة والمومياء ، ويبلغ وزنها كلها ١٣٧٥ كيلو جراما ويبلغ وزن التابوت الذهبى وحده ١١٠ كيلو جراما من الذهب الخالص ، وقد عثر خارج الهيكل الاول على عصا فاخرة مزينة بأزهار اللوتس المصفحة بالذهب والفضة وعجينة الزجاج ، وكان

أمام الهيكل الثانى عصى أخرى ، أجملها اثنتان ، الواحدة من الذهب ،
والاخرى من الفضة ، وكل منهما مزدانة بمقبض فى صورة الملك •

وأما الغرفة الشمالية (الخزانة) أو غرفة الكنز ، فتضم صندوقا
كبيرا يشبه مقصورة مقدسة تضم تحت أغلفة عديدة أحشاء الملك المودعة
فى أوعية كانوبية ، وعلى عتبة الباب حامل لصندوق كبير من الخشب
المذهب على شكل صرح المعبد فوقه تمثال فخم مدهون بطلاء أسود
للالة أنوبيس ، ملفوف بقماش من كتان ، فلا يظهر منه الا رأسه وفمه
المدبب وعيناه المرصعتان بالذهب وأذناه الموشتان بمعدن نفيس ، والى
الخلف برز رأس بقرة من الذهب ، لها قرنان من النحاس على شكل
قيثارة تمثل الالهة حتحور ، والى الورا ثلاثة كتوس من الالبستر
تحتوى على أشياء مختلفة من الطقوس الجنازية ، ثم هناك مجموعة
الاوعية الكانوبية موضوعة على زحافة ، وتحمل العمود الجانبية الاربعة
افريزا تزيينه ثعابين على رأس كل منها قرص الشمس ، وثمة مظلة
تحمى الصندوق الاوسط ، وفى خارج المقصورة تقف الالهات الاربع
الحارسات ، ايزة ونفتيس ونيت وسرقت ، وفى داخل هذا الاثاث
المذهب استقر صندوق من الالبستر على زحافة ، وعلى زواياه برزت
الالهات الاربع باسطة اذرعها اللاصقة بجوانب الصندوق فى هيئة
مماثلة ، وحفر فى كتلة الصندوق فراغ يسمح بوضع الجزء العلوى من
أربعة أوعية من الالبستر استقرت فى أربعة أقسام ، ويعلو كل منها
غطاء فى صورة رأس توت عنخ أمون مزين بالنمس مع العقاب والكوبرا
المقدسین على الجبهة •

وعندما رفعت الاغطية ذات الرؤوس الادمية ، ظهر فى كل قسم
تابوت مصغر من الذهب وضعت فى داخله أحشاء الملك فى شكل مومياء ،
وخضع كل وعاء كانوبى لاله من الذكور ، وجعل بطن كل وعاء فى حمى
الهة أنثى ، وهناك على طول الحائط الجنوبى صناديق على شكل
الناوؤس من خشب مسود ، مغلقة ، ما خلا واحدا ، أبوابه مفتوحة ،
تتلاها خلالها دمية غربية بديعة من الخشب المذهب وموضوعة على فهد

أسود لامع في وضع المشى ، وأما بقية النواويس السود الصغيرة فهي تحتوى على تماثيل صغيرة للملك أو الالهة من خشب مذهب أو مسود بالراتنج ، منها سبعة تماثيل في صورة الملك ، وتسعة وعشرون تمثالا تمثل الالهة ، وعيونها مرصعة بالاليسر وحجر زجاجى أسود والبرنز ، وكذا بعجينة الزجاج ، وفوق هذه الصناديق تكدست مجموعة من زوارق يتجه مقدمتها صوب الغرب ، وتتجلى فيها جميع الاشكال ، من الزورق المصنوع من البردى المستخدم في مطاردة فرس النهر ، الى السفين المخصص لرحلة الميت الجنائزية أو المركب الذى يتيح له الاشتراك في رحلة اله الشمس في عالم الموتى ، وكل هذه السفين مزودة بمكان أو قمرة أو هيكل •

وأمام الصناديق التى تحتوى على التماثيل الصغيرة المذهبة والسوداء التى صور الملك والارواح ، والموضوعة على طول الحائط الجنوبي ، ظهر ستة صناديق صغيرة وعلب ذات اشكال مختلفة ، واحد منها مكنت بالعاج والابنوس بصورة فريدة ، وقد أحصى «كارتر» فيه ٥٤ ألف قطعة مرصعة ، كما عثر فيه على حلة للصدر فاخرة ومزينة بقارب في وسطه جعل (جعران) يدفع قرص الشمس ، حيث تريط عريض من معدن ثمين معلق به حلقة للصدر ، وسللة بدلا من الثارب وتشكل المجموعة المكونة من الحبل والسللة والشمس اسم الملك توت عنخ آمون «(نب خبرو رع)» ، وهو الاسم الذى أخذه عند التتويج ، وكل ذلك من ذهب وأحجار كريمة •

وأما الصندوق الثانى فكان على شكل الخرطوش الملكى ، وقد برزت على الغطاء المصفح بالذهب ، والمحفوظ بالابنوس ، بعض النقوش الهيروغليفية المرصعة بالعاج والابنوس ، والتى استخدمت في كتابة «توت عنخ آمون» وهو اسم الملك الذى حملته قبل تتويجه ، وكان هذا الصندوق مليئا بالمجوهرات المكدسة في غير نظام ، وهى عبارة عن أقراط وأساور من اللازورد وعجائن الزجاج والمفيروز والعقيق

والجمشت واليصب الاحمر ، هذا فضلا عن عدة صنابير أخرى تحوى
أشياء كثيرة أو قليلة من أثاث الفرعون الجنائزى •

وفى أخريات نوفمبر عام ١٩٢٧م بدأ «كارتر» العمل فى الحجرة
الرابعة أو الملحق ، حيث كشف عن تكديس لا يتصوره العقل لأشياء
منوعة قلبها اللصوص ، وتركها مفتشو الجبانة كما هى ، وعلى أى حال،
فقد كشف فى الملحق عن أربعة أسرة من نمط واحد ، منها سريران من
الابنوس ، أحدهما مكسو بصفيحة سميكة من الذهب ، والثانى مذهب .
ثم سرير ثالث قابل للطلى ، ثم هناك عرش فخم من خشب الابنوس
المطعم بالعاج ، وبعض أجزائه مصفحة بالذهب والاخرى مطعمة
بالخزف والاحجار الرقيقة ، والى جانبه كرسى من القش ، اعتبره
المقبون من مقاعد الحديثة ، وبجواره كرسى آخر مدهون بطلاء ابيض،
ثم كرسى ثالث بدون ظهر ومطلى بلون ابيض ، ثم مقعد نصف
دائرى ووسادة مستديرة ، ثم هناك خزانتان نفيستان مزودتان بأربع
أرجل طويلة من خشب الارز الاحمر القاتم والابنوس . وبهما افريز
من التماثيل من دعائم أوزير ، وعقدة على الخزائن الاولى ، وعلامة
«عنخ» (الحياة) متبادلة مع صولجانات «واس» (القوة الالهية) •

ثم هناك علبة خشبية مربعة فى داخلها ما يشبه المشجب لابد أنها
كانت عليها قلنسوة الملك ، لم يبق منها الا آثار من قماش تتأني وبضع
خرزات رقيقة من ذهب ولازورد وعقيق وفلسبار . ثم علب من الابنوس
للبس الملك ، الى جانب صندوق كبير على شكل القوس به قصى وسهام
وعصى وسيوف وفتروس ، الى جانب مجموعة من المعصى والهراوات
مزخرفة بالذهب أو الفضة أو مطعمة بالخشب أو العاج ، ثم مراوح
صغيرة وكبيرة ، ثم مجموعة من تلك اللعبة ذات الثلاثين قسما ، ماتزال
بها أحجار اللعب باحجار مختلفة ، ويدخل فى صناعتها الابنوس والعاج
والذهب ، ثم مجموعة الاوانى التى حوت الازهار والمؤن من يابس
وسائل ، بقى منها ٨٤ آنية من الالبستر . وجدت فارغة ، ثم ١١٦ سلة
موضوعة فوق الاوانى تحتوى على فواته جافة وبذور كالعنب والدوم

والماندراجور (تفاح الجن) وبذور الشمام وغيرها ، ثم ٣٦ جرة من
النبيد ، على بعض سداداتها آخر سنة من حكم توت عنخ آمون ، وهى
السنة التاسعة (٢٣) .

٧ - الطقوس الجنازية :

لم تكن رعاية المتوفى مقصورة على تحنيط جثته ودفنها مع مايلزمها
من ضرورات الحياة المادية ، وانما يجب أن يتلى عليها ما يجب تلاوته
من تراتيل السحر والدين ، عند الوفاة ، وعند الغسل والتطهير ، وعند
الدفن ، وعند تقديم القرابين وعند اجراء الصلوات فى مقاصير المقابر
وهياكل المعابد ، وأوسع المصادر الدينية حظا فيما تضمنته من هذه
التراتيل ، وأوسعها تعبيرا عن عقائد ما بعد الموت وتطورها من عصر
الى عصر انما هى : متون الاهرام ومتون التوابيت ، وكتب الموتى .

فأما متون الاهرام التى كشف عنها «جاستون ماسبرو» فى عام
١٨٨٠م فى داخله هرم وناس ، ثم عثر بعد ذلك منها فى أهرام ملوك
الاسرة السادسة ، بل وفى أهرام بعض ملكاتها ، فهى التعاويذ السحرية
والطقوس الجنازية ، وأجزاء من بعض الاساطير المصرية القديمة ،
يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الاسرة الاولى ، بل فيها أشارت الى
الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها ، على أنها حروب بين الالهة
التي عبدت فى تلك الايام .

وعلى أى حال ، فهى تختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين
أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، انما كانوا يختارون البعض ويتركون
البعض الآخر ، وقد قسمها «كورت زيت» الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف
منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الآخر ، حيث تفتح له أبواب
السما التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحوله الى نجم من

39) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, P. 59-102.

وأنظر : الترجمة العربية ص ٥٧ - ١٠٥ .

النجوم التي لا تنفى ، والى اله للشمس ، أو على الاقل يكون فى ركاب
اله الشمس •

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد
للارض ، والروح للسماء» ، وقولهم فى مخاطبة فرعون فى حديث رمزى
«نقد يتحلل جسدك طولا وعرضا ، ولكن روحك سوف تبقى ، وسوف
تشهد رع فى غلاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم ايمانهم
بمقابرهم على أنها بيت الخلود ، الا أن أرواحهم لن تظل حبوسة فيها ،
وانما سوف تكون ، وبخاصة أرواح الملوك والاخيار ، طليقة فى عالمها
غير المنظور ، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاءت ، وتستروح
نعيم الجنة فى العالم الآخر حيث شاءت ، وتؤوب الى قبرها لتنعيم
بمرآى القرايين متى شاءت، وتحط على جسدها حيث شاءت، هذا فضلا
عن أن القوم لم يتخيلوا أن روح فرعون سوف ترتقى الى السماء دون
إذن من ربها ، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى أخراه ، ومن ثم
فهم يخاطبون كائنا فى السماء قائلين «انظر : ان الفرعون آت مقبل
منطلق ، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه ، وانما استدعى بناء على رسالة
أتت اليه ، وأن الرسل قد أحضرته ، وكلمة مقدسة رفعت» كما أشارت
متون الاهرام الى أن وصول الملك الى نعيم الآخرة عند رب السماء ،
انما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة ، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه
ملك صادق فى السماء ، عادل فى الارض» ، مما يشير الى أن عدل
فرعون فى الارض انما هو سبيل القربى من رب السماء •

ومع ذلك فان هذه المتون نفسها هى التى جعلت الملك يدخل أبواب
السماء التى حرمت على غيره من رعائيه ، وأن مأواه السماء ، وأما
الآلاف فمأواهم الارض ، وربما كان المراد أن جنة الملك فى السماء ،
وأن جنة العامة من الناس على الارض ، ذلك لان القوم انما كانوا
يظنون حتى نهاية الاسرة الخامسة أن مركز الجنة الارضية انما كان فى
حقل القربان عند هليوبوليس ، المركز الرئيسى لعبادة الاله رع ، الذى
زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها ، بقانون

ماعت الذى سنه ، ثم تخلى عن حكم العالم الدنيوى لابنه ، ورفع نفسه الى السموات العلى ، كما رفع كذلك حقل قربانه الى العالم العلوى ، وأصبح مأواه الابدى فى السماء ، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) بعيشة راضية فى حقول والده ، وترك حقول المقربان التى على الارض فى هليوبوليس للعامة من الناس^(٣٣) .

وأما متون التوابيت فقد ظهرت منذ أخريات الدولة القديمة، وكانت مقصورة على الفرعون وحده ، غير أن الثورة الاجتماعية الاولى انما أدت الى أن تصبح هذه التوابيت أمرا مشاعا بين أفراد الشعب ، كما أصبحت تكتب على جدران التوابيت ، بدلا من داخل الاهرامات ، هذا وقد تنوعت مذاهبها فى عصر الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى ، واقتبس الكهان بعض أورادها من متون الاهرام ، ثم ألقوا بقيتها بما يتناسب مع عهودهم المتتالية وآمالهم فيها ، وكان من أهم ظواهرها تلقيب كل متوفى بلقب «أوزير» أملا فى أن ينعم فى الآخرة بما نعم به ويخلد فيها مثل خلوده .

وكان هذا اللقب فى بدايته مقصورا على الفرعون باعتباره وريث أوزير فى الدنيا والآخرة ، فلما اهتمت الملكية فى أخريات أيام الدولة القديمة حصل النبلاء على حىق استخدام نصوص الاهرام وبدأوا يكتبونها على توابيتهم ، ومن هنا فقد أصبح أى شخص له من الاهمية والثروة ما يمكنه من أن يشتري تابوتا مكتوبا ويحصل على الخدمة المكهوتية عند موته ، ويستطيع أن يسخر الدين ليصبح الها عند الموت ، انه يصير الاله أوزير عند وصوله الى عالم الآخرة ويصبح واحدا من أعداد الالهة ، وفى العالم الثانى لن يكون بينه ، وبين فرعون فارق جوهرى .

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٩ - ٣٢٠ ، سليم

حسن : المرجع السابق ص ٢١٨ ،

S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, N. Y. 1952.

ولم يقتصر الامر على النبلاء ، فان الهزة العنيفة التى أصابت الملكية فى قدسيّتها ، جعل العامة من القوم لا يكثرّون كثيرا بالعقيدة القائلة : ان الملك وحده هو الوسيط بين الناس والالهة ، ومن هنا أصبح كل فرد فى استطاعته الحصول على تلك المقرابين التى كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس الجنازية ، ترى ذلك بوضوح فيما عرف فى هذا العصر بنصوص التوابيت ، وهكذا استعمل عامة القوم نفس النصوص السحرية والشعائر الدينية التى كان يستعملها الملك ، والتى تبشر كل منهم بحسن المآب *

هذا وقد تنوع مضمون متون التوابيت ، كما تنوع مضمون متون الاهرام ، بين أناشيد ودعوات وأساطير وفلسفات وتخيلات وأوهام ، وكان من نصوصها ذلك النص الذى يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليقة ، وفيه ترد عبارة ربما كانت سببا فى أن يوضع هذا العصر فى مرتبة أرفع من روح العصر السابق أو اللاحق ، حيث نرى الاله يذكر فى هذه العبارة أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل بنى الانسان ، والطريف أن الرواية قد بدأت بتصوير الرب يحادث حاشيته فيما فعل ، وقالت : «قال رب التل لمن ارتاحوا من النصب وساروا فى معيته ، اطمئنوا فى سلام ، ولسوف اعيد عليكم أربع ممن أوحى الى قلبي بآدائها ، لقد صنعت الرياح الاربعة ليتنفس منها كل انسان مثل أخيه ابان حياته . وذلك أول الافعال (المن) ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، وجعلت للفقير فيها ما للعظيم من حق ، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل أخيه ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد صنعت قلوبهم بحيث تنفّر فى الغرب لئلى تقدم المقرابين المقدسة لآلهة الاقاليم ، وذلك رابع الافعال» (٣٤) *

(٣٤) محمد بيومى مؤران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٧ - ١٦٨ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، وكذا

وأما كتاب الموتى أو كتب الموتى ، فكانت تحوى نصوصا جنازية تحفظ مع الميت فى تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الأطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الديموطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات للخروج نهارا» ، مما يشير الى أن الهدف منها إنما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر الى ضوء الشمس ، وتمكينه من الحركة بعد الموت ، فضلا عن توفير السعادة له فى العالم الآخر ، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع الى عصر الدولة الحديثة وحتىى العصر البطلمى لم تكن متكاملة فى عدد موضوعاتها ، وإنما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الآخر ، إلا أن جميع الموضوعات ، كما وردت فى أكثر من كتاب إنما تتكون من ١٤٠ فصلا ، ورد الكثير منها مكتوبا فى متون الاهرام وفى متون الوابيت .

وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل انه لم يحو نصائح معينة للميت ، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف ، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحدة فكرية ، ولعل أهمها الفصل ١٢٥ والذي يؤكد فيه الميت عدم افتراءه لأية معصية ، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاورة (الاشبتي) ويطلب من كل تمثال أن يهب فى اليوم المحدد له ، لكى ينوب عن صاحبه فى أعمال الزراعة فى عالم الموتى ، أما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى ، هذا ويمتاز كتاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص ، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتلوينها بألوان زاهية ، فمثلا كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الارباب قد تردت من قبل فى متون الاهرام ومتون التوابيت ، ولكنها أصبحت أوضح فى كتاب الموتى ، حيث عبر عنها المصرى القديم

J. A. Wilson, The Burden of Egypt, 1954, P. 116; ANET, 1966, P. 7-8.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221 F.

A. de Buck, OIP, LXXXVII, 1961, P. 461-465.

وكذا

وكذا

باللفظ والصورة ، وبالصورة المعنوية والمادية (٣٥) .

(٨) العمل الصالح سبيل السعادة في الآخرة :

كانت عصور ما قبل الثورة الاجتماعية الاولى تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالدا على مر السنين ، اذ ان ذلك ، في نظر القوم ، ضمان للخلود في العالم الآخر ، بل ان فقدان المقبر انما كان في عقيدة القوم ، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصرى ، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقصى عقاب لمن يمكن أن يشك في ولائه لفرعون،حتى أن أحد الحكماء قد حذر أولاده من هذا العقاب الاليم ، اذ يقول «لا قبر لانسان خارج على الملك ، وانما سيلقى بجثته في الماء» ، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب ، ومن ثم فأننا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده باقامتها «زين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مقعدك فى الجبانه» (٣٦) ، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة في الحياة الثانية ، وانما أصبح للاخلاق في هذا العصر شأن عظيم في تقرير مصير الانسان بعد وفاته .

وهكذا أصبحت الاهمية الكبرى للوصول الى الخلد هو العمل الصالح ، بعد أن كان ذلك من قبل للثروة والقربى من الملك الاله،وتقدم لنا الملك الاهناسى أمثلة كثيرة على ذلك ، ففى تعاليمه التى وجهها لولده «مرى كارع» حثه فيها على نبذ المادية فى ثلاث فقرات «لاتكن شريرا، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك» ، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الاخلاقى ببناء بيت الذكرى ، قال له «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان» ، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الاشرار ، «ان فضيلة

(٣٥) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٣٤٤ ، وكذا

T. G. Allen, JNES, 11, 1952, P. 177-186.

A. de Buck, JEA, 35, 1949, P. 87-97.

T. G. Allen, The Book of The Dead, Chicago, 1974.

36) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, P. 86.

الرجل المستقيم أحب الى الاله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان)^(٣٧) ، ويقدم صاحب قصة القروى الفصيح مثلا آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكى فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب «احذر فان الابدية تقترب»^(٣٨) .

هذا ويرى امراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والعناية بهم ، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الارملة وواسى المتألم وأطعم المجائع ، ولم يفرق بين رجل فقير ، وآخر عظيم فى شئ ، وها هو «امينى» أمير بنى حسن يقول فى نقش كتبه على مزار قبره «اننى لم استعمل القوة مع أية واحدة من بنات الاهالى ، ولم أظلم أية أرملة ، ولم أقبض على أى عامل ، ولم أطرده راعيا ، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عماله أثناء العمل ، وليس هناك فقير ولا جائع فى عصرى»^(٣٩) ، ويذكر «حقا ايب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعرىان ، وأنعمت على البسطاء سرا ، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا ، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا ، وقدمت الزيت لاقليم نخن ، بعد أن أخذت منه مدينتى حاجتها ، وصنعت سفينة طولها أربعون ذراعا ، وكذا قاربا ، لنقل الماشية ، وتعدية من لا قارب له فى فصل الفيضان»^(٤٠) .

ويفخر «خيتى» أمير أسيوط على عهد الالهاسيين بإدارته الحكيمة وما قدمه من خير لحكوميه ، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتى ، عندما حفر فى الارض الصالحة للزراعة ، قناة عرضها عشرة أذرع ، وقدمت أجورا من الحبوب للساقين ليقولوا توزيع المياه وقت الظهيرة ، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه ، وحفرت نبعاً فى الجبل الذى عز فيه الماء ،

37) J. Wilson, ANET, P. 417.

38) A. Erman, Op. Cit., P. 123.

39) P. E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, P. 27.

40) H. J. Polotsky, JEA, 16, 1930, P. 194.

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٨٦ -

وضمنت الحدود الزراعية ، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء ، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل ، وكما أرضعت الجار سقيت جاره» (٤١) .

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لاقامة الشعائر الدينية لينال عطف الاله ، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئاً ، فالم تسنده أعمال طيبة ، وفي جملة الملك الاهناسى التى تنص على أن الاله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة ، والتى تعد أجمل ما جاء فى التفكير الخلقى فى مصر الفرعونية فى ذلك العصر المبكر ، وفى هذه الجملة دلالة على أن للفقير ما للغنى من حق فى رعاية الله ، ذلك لان أكرمهم عند الله أنقاهم ، وليس أكثرهم قربانا ، وهكذا فان السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر بينى ، أو قرابين تقدم ، ولكنها أصبحت فى العمل الصالح ، والعدل بين الناس ، والعطف عليهم والعناية بهم ، وفى هذا يقول الملك الاهناسى «أقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض ، وواسى الحزين ، ولا تسيئ إلى الارملة ، ولا تحرم رجلا من ميراث أبيه ، ولا تضرن الاشراف فى مراكزهم» (٤٢) .

وهكذا ظل المصريون ، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية ، يؤمنون بأهمية اوسائل المادية كطريق للسعادة فى الحياة الآخرة ، فالقبر الفخم والهبات الجنائزية السخية من الامور الهامة فى ذلك ، ولكن الثورة أضافت الى ذلك ، أن السعادة فى الآخرة ، لن تكون فقط بقبر بينى أو قرابين تقدم بانتظام ، أو بعطف من الملك ورضاه ، وانما السعادة فى العالم الآخر بشئ أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى ، وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة حين تؤكد

41) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 188.

(٤٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٧ - ١٨٨ ، وكذا

A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, P. 28.

مبادئها بأن الآخرة إنما هي نتاج عمل الدنيا ، وأن الذين اعتادوا عمل الخير في الدنيا ، سوف يسلكون نفس الطريق ، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا ، لأن «الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ، ولا تحيد في سيرها عن طريق أمسها» .

وهكذا تكشف الثورة للمصريين ، منذ ذلك العهد البعيد ، أن المقيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن الانسان ان أراد خلودا في آخرته ، وسعادة في حياته الثانية ، فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، ومن ثم فان مصر تكون أول أمة عرفت القيم التى في الانسان العادى، ولم يقف الامر في مصر عند هذا الحد ، بل أن هذه المعرفة إنما كانت تهدف في محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل (٤٣) .

(٩) محكمة الموتى :

كان المصري القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام اله الشمس ، وذلك استجابة لطلب أى انسان كان الميت قد أخطأ في حقه وليس حسابا على شئ آخر ، فاذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصفة فمن المحتمل الا يتعرض في الحياة الثانية لمحاكمة أخرى ، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التى تنتظر كل انسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقا لقواعد الاخلاق ، وهكذا فاننا نقرأ — ولأول مرة في التاريخ المصرى — عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه في دنياهم ، خيرا كان أم شرا ، ولن ينجح في هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لاصحابها من قرايين وأدعيات ، وما أقام فيها من طقوس وصلوات ، وانما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة ، ذلك لان أعمال كل انسان — أيا كان هذا الانسان — ستوضع مكدسة

(٤٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٥ .
J. Wilson, The Burden of Egypt, P. 114; ANET, P. 415.

بجواره ، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين ، وهكذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحانا عسيرا أمام هذه المحكمة لينال السعادة المنشودة في العالم الآخر .

وفي تعاليم الملك الالهاسى اشارة الى ذلك ، حيث يقول لولده : «انك تعلم ان القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى يوم المحاكمة ، وتسوء العاقبة ان كانت التهمة من الواحد العاقل (ربما تحوت الذى يدير المحاكمة يوم القيامة) ، لا تضع ثقتك في طول السنين ، فهم ينظرون الى فترة المحاكمة ، وكأنها ساعة ، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان الخلود مثواه هناك في العالم الآخرة ، الغبى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى يؤمئذ دون أن يرتكب اثما ، فانه سوف يعيش هناك كما يعيش الابرار المتوفين ، سادة الابدية» ، وهكذا يحذر فرعون الهاسية ولده ، من يوم الحساب ، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا جاه ولا سلطان ، لان من سيحاسب الناس انما هو الواحد العاقل ، كما يحذره من أن يغتر بطول السنين ، لانها في نظر قضاة الابدية وكأنها ساعة مما يعد القوم ، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ، وهكذا تكون نتيجة المحاكمة ، فمن يصل الى الآخرة وقد عمل الخير في دنياه ، فانه سيثوى هناك مرحا مع الابرار المتوفين ، ومن لا يكثر بنتاج هذا اليوم فهو غبى أحق ، وسيكتب عليه سوء المصير (٤٤) .

هذا وقد تصور القوم أن «أوزير» انما سيكون سيد مملكة الموتى ، والمشراف على حساب الميت ، هذا وقد صور كتاب الموتى ، من عهد الدولة الحديثة ، المحاكمة أوضح تصوير ، وعبر عنها باللفظ والصورة ، فهناك

(٤٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ٤١٤

٢١٦ .

A. Erman, Op. Cit., P. 77; J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 250.

ما يمثل أوزير جالسا على عرشه في أحد جانبي بهو العدالة ، وأمامه أبناء حور الاربعة (ايمسى وحابى ودواموتف وقبح سنواف) ، فضلا عن ملتهم الموتى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر ، وفي الجانب الآخر يتقدم الميت لتلقاه الهة الحق والعدالة ، وفي الوسط ميزان ينصب ويوضع في احدى كفتيه قلب المتوفى ، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير ، بينما تصور في الكفة الاخرى «ريشة» ، ترمز من حيث اللفظ الى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة ، وترمز من حيث الصورة الى دقة الوزن وحساسيته ، ويجرى الحساب ، كما قلنا آنفا ، في حضرة أوزير ، رب الآخرة ، وبحضور اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أرباب عواصم الاقاليم ، ويتحقق حور وأنوبيس من صحة الوزن ، بينما يقوم على تسجيل الحسنات والسيئات تحوت ، رب الحكمة والكتابة ، فيسطر على لوحة ينتجه الوزن ونتيجة دفاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه والهة الاكبر ، وحينئذ يتحدد مصيره ، فلما الى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها الى سبعة اذرع ، واما الى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفزع وأذى الوحوش والحيات والثيران •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ان على المتوفى أن يتقدم بدفاعين ، الواحد عن نفسه ، وهو دفاع عام ، والآخر الى كل من القضاة باسمه وصفاته وأن يبرىء نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة ، ومما يقوله في دفاعه الاول : «اننى لم اقترب اثما ضد البشر ، ولم أفعل شيئا تمقته الالهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أعرض على القتل ، ولم أسبب لاحد ألما ، ولم أتحييف من خبز الالهة ، ولم استلب طعام الابرار ، ولم أفسق في المكان الطاهر لاله مدينتى ، ولم استعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيف في أبعاد الممثل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزعج لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أصد طيور الالهة ولا

الاسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء الفيضان في وقته ، ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أؤذ قطعان المعابد ، ولم أعترض ارادة الاله» •

وأما الذنوب التى ينكرها الميت فى دفاعه الثانى ، فمنها أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترب ما يندم عليه ، ولم يتكلم كثيرا بلغو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسيء الى الملك ولا الى الاله» •

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا الى حد ما من المبدأ الذى قرره كتب لسماء ، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا ، فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولكن هناك امورا هدمت ذلك المبدأ النبيل ، أو على الأقل أوجدت ثغرة فيه ، ولعل أهم تلك الامور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم فى أن العوامل المادية كاقامة القبور الفخمة والاتفاق عليها بسخاء ، انما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الآخر ، ومن هنا نرى الملك الالهاسى ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو فى الغرب ، فهى الشئ الذى تركز اليه قلوب أهل الاستقامة ، ومنها كذلك أنتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه فى عالم الآخرة ، ومن ثم فقد لجأوا الى التعاويذ التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الاخطار التى تحف به فى الآخرة ، أو على الأقل تزوده فى آخرته بما هو فى حاجة اليه من نعيم ، فانتهاز الكهنة تلك الفرصة لابتنزاز أموال الناس حبا فى الكسب الذى كان يأتى اليهم بهذه الطريقة السهلة ، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة ، وادعوا أنهم يستطيعون انقاذ الموتى فى كل موقف حرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتما ، وبذا يضمّن المتوفى قبوله خلقيا عند المحاكمة فى عالم الآخرة •

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم بربهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة ، ذلك أن المديمقراطية ، التى نادى بها عصر الثورة الاجتماعية لم تكن وقفا على الحياة الدنيا ، وانما تعدتها الى الحياة الثانية ، ومن ثم فقد شارك العامة المفرعون فى

مصيرة الاخرى ، فكما أن الفرعون سيصير «أوزير» في الآخرة ، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير» ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرى جسده حارس الموتى «أنوبيس» ، وتحنو عليه ربة السماء «نوت» ، وتبكيه أختاه ايزة ونفتيس ، ويقوم الى جواره ولده ليدفع عنه شر المعتدين وأذى المكائدين ، ثم يقوده في موكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع الحياة من أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بيئة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى مخلفة شبر كلها الى أن الناس قد تساوت مقاديرهم في هذه الدنيا ، فأصبحوا في عالم القبور سواء، ذلك لان مجرد الامتزاج بأوزير أصبح كفيلا بأن يحقق براءة الميت ، وأصبح كل ميت يلقب «بالمبرأ» ، ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأى ذنب اقترفه في حياته ، اذ كان عليه ، كما رأينا آنفا ، أن يعلن براءته من كل ذنب وخطيئة ، وأن يدعى لنفسه سلسلة طويلة من الفضائل والاعمال الحسنة ، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالاله أوزير ، وامتزاجه به الى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة ، وأصبح الاهتمام بالسحر والشكيات شائعا .

وهكذا أدت كل هذه العوامل دورا هاما في القضاء على الهدف من المحاكمة ، وجعلت منها شيئا يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى ، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم نسبيا ، استطاعوا أن يصلوا الى هذا المستوى من التفكير الدينى والخلقى ، فقد أصبح للاخلاق في نظرهم شأن عظيم في تقرير مصير الانسان بعد الموت ، بعد أن كان ذلك وقفا على الوسائل المادية ، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الاله ورضاه عنه^(٤٥) .

(٤٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢١٦ - ٢١٧ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٦ ، كذا

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 268.

وأنظر : الترجمة العربية (برستد : فجر الضمير ص ٢٦٦ - ٢٩٠)

الفصل السادس

الكهانة

(١) نشأة الكهانة وشروطها :

من المعروف أن العبادات في مصر كانت تقام في أى معبد باسم الملك الذى كان مسئولاً عن إقامة العبادات ، فضلاً عن دوره السياسى والادارى والتشريعى ، وهكذا كانت واجبات الملك الدينية كثيرة ، فهو الذى يبنى المعابد ويقدم لها الهدايا وهو الذى يمنح القرابين ، وهو الذى تمثله جميع صور المعبد ، وهو الذى كانت تقام له الصلوات في المعبد ، فى حين لا يرد شئ عن شعبه التتقى ، وفى الواقع فإن علاقة الملك بالالهة انما تختلف تماماً عن علاقة الالهة بأى فرد من الرعية ، فهو بوصفه ملكاً على مصر انما كان ابناً وخليفة للالهة ، يقدم لها القرابين كأسلافه ، كما كان يقدم أى فرد عادى قرابينه لأرواح أجداده ، ومن ثم فهو الكاهن الاول لكل الهة في البلاد وبالتالي فقد كان عليه أن يقوم بالطقوس الواجبة نحو الالهة •

وبدهى أن هذا انما كان أمراً محالاً ، زماناً ومكاناً ، ومن ثم فقد كان الملك ينيب عنه أولاده أو كبار موظفيه في الاقاليم ، على أن يقوم هو بأداء واجبه الدينى نحو الهة العاصمة ، وربما الاله المحلى في المكان الذى يقيم فيه ، وقد جاء في أحد فصول الشعائر «ان الالهة قد أعدت لى السبيل ، وأن الملك هو الذى يرسلنى لاجتلاء طلعة الاله» ، فالملك اذن هو الذى يعين الكهنة الذين كانوا يختارون عادة من أسمى درجات المجتمع ، بل من الدم الملكى أحياناً ، وهكذا كانت مكانة الكهنة انما تقوم على أساس أنهم منووبون عن السلطة الملكية المؤلهة ، وكانوا يؤدون الطقوس الدينية اليومية في كل البلاد باسم الملك الفرعون •

هذا ولم يكن الكهنة المصريون طائفة منعزلة تعيش على هامش المجتمع ولا تغشاه الا لاستمالة الجماهير ، ودفعها نحو حياة خلقية أرفع مستوى وأقوى نشاطا من حياتها العادية ، وانما كانوا يقومون بدور نواب الملك صاحب الحق الوحيد في القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الالهة على الارض ممثلا في صورة متكاملة داخل قدسه في المعبد حيث طابت له الاقامة ، كما كانوا يشاركون في البناء الدينى للملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقتة الالهة ، الامر الذى يتطلب النهوض به متخصصون فنيون ، وفيما عدا ذلك ، فهم مواطنون عاديون لا يختلفون عن غيرهم فى شئ ، ولا يتميزون بأنهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعها ، وقد يكونون هم أنفسهم مفكرين أحرارا أو قديسين ، فذلك نتيجة استعاضهم الشخصى ، ولا صلة له بنشاطهم المهني نفسه .

ولئن لم تكن الكهانة تتطلب التزاما خلقيا معينا أو تدريبا فنيا ، فانه يطلب من الكاهن أن توفر فيه على الاقل شرائط معينة للطهارة الجسدية ، ولم تكن الدار المقدسة أو المعبد المصرى يشبه ما نعلمه الان بمكان العبادة ، فهو ليس مكانا يذهب اليه المتعبد ليصلى لئله ، ولا هو بالدار التى تحتشد فيها الجماهير لممارسة الطقوس الروحية وتترقب أن يتجلى عليها الاله ابان الاحتفال ، كما أنه ليس مكانا تقام فيه الشعائر المقدسة التى يؤم فيها أمام متخصص جمهرة من الناس ، ذلك لان المعبد المصرى لا يستقبل الجماهير ، فمن الهيكل تقوم أبواب متعاقبة تسمى المكان المقدس ، وكلما توغلنا الى الداخل زاد الاظلام حتى يصل المرء الى قلب المبنى ، وعنئذ وفى رهبة متزايدة يدخل الزائر مدخل الهيكل المحكم الاغلاق ، حيث يستقر هناك التمثال المقدس الذى يتجسده المعبود ، ويبدو أن تمثال الاله صغير الحجم ، ففى «القدس الاقدس» كانت تقوم مقصورة فيها قارب فخم الزخرف يوضع فيه تمثال الاله ، الذى لم يكن فى أغلب الظن يزيد ارتفاعه عن نصف متر ، وربما كان شبيها بتمائيل الالهة البروفزية الصغيرة ، التى وصل الينا منها عدد كبير من مخلفات العصر المتأخر .

وقد كان القوم يوجبون هذا التمثال الشديد القتاسه عن أعين الناس ، حتى أنهم لم يجروا ، ولو مرة واحدة ، على تصويره في رسوم المعابد ، وحتى صور قدس الاقداس لا يظهر فيها الا القارب المقدس .
تزيينه من الامام والخلف رأس حيوان الاله المقدس ، أما بحارته فتماثيل للوك وآلهة ، وتقوم في وسطه مقصورة صغيرة على شكل المعبد ، تنسدل عليها أستار تغطيها وتحجبها عن الانظار مبالغة في حمايتها ، وكانت الطقوس تقضى أن الكاهن بمجرد أن يرى مثال الاله عليه رآن يقبل الارض وينطرح على بطنه ، ثم ينطرح مرة أخرى على بطنه ، ويقبل الارض بوجهه يتجه الى أسفل ويطلق البخور ثم يحيى الاله بانشودة قصيرة» ، هذا وقد كان على الكاهن أن يقوم بتزويد التمثال المقدس بالطعام والمشرب يوميا ، فضلا عن حمايته من الأرواح الشريرة التي يحتمل أن تفاجأه بالاذى .

هذا وقد اشترط القوم ان تتوافر فيمن يسمح لهم بدخول المعبد والاقامة في رحاب الصنم الرهيب شروطا أولية من الطهارة البدنية ، ومن هنا كان الاصطلاح الذى يطلق على أكثر طوائف الكهنة اننشارا «الكهنة المتطهرون» ، وطبقا لرواية هيودوت المتصلة بالمعابد ، فقد كان الكهنة قبل بدء خدمتهم ينزلون الى الماء فيريقونه على أنفسهم بغزارة ، فإذا لم تكن هناك بركة حل محلها حوض من الحجر ، وهناك ضرب آخر من الطهارة المادية اذ كان على الكاهن أن يغسل فممه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس ، كما كان عليه كذلك أن يزيل الشعر من جسده ، ويذهب هيودوت الى أن الكهنة كانوا يخلقون أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الالهة ، كما كانوا يمارسون الختان حبا في النظافة لانهم كانوا يفضلون النظافة على حسن المنظر^(١) .

(١) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ،
هيودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٤ - ١٢٥ ، سيرج سونيرون : كهان
مصر القديمة ص ٣٧ - ٤٢ ، وكذا

(٢) امتيازات الكهنة :

يذهب هيودوت الى أن الكهان انما كانوا «يتمتعون بامتيازات ليست بالقليلة ، فهم لا يسهلون ولا ينفقون شيئا من ثرواتهم الخاصة ، بل يصنع لهم خبز مقدس ، ويحبيب كل واحد منهم يوميا كمية كبيرة من لحم البقرة والاوز ، وتقدم لهم خمر مصنوعة من العنب ، وأكل السمك غير مباح لهم ، ولا يبذر المصريون الفول في بلادهم أبدا ، ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجأ أو مطبوخا ، أما الكهنة فلا يطبقون حتى رؤيته ويعتقدون انه بقل نجس» ، غير ان الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأي ، فهم يذكرون ان الكهنة كان عليهم ان يحرموا على أنفسهم كل شيء تقريبا ، ومن تلك المحرمات بعض أجزاء الذبائح ، فضلا عن لحوم البقر والخنزير والماعز والحمام والنجع والاسماك ، وبخاصة البحرية منها ، الى جانب الخضر والفول والثوم ، أما النبيذ فكانوا لا يتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا ، كما أن الملح الذي كان من منتجات الاله تيفون لم يكن من المرغوب أن يظهر على موائدهم .

وبدهى أن في ذلك مبالغة غير مقبولة ، وربما كانت الحيوانات والخضروات التي أشرنا اليها محرمة في بعض الاقاليم ، ولم تكن كذلك في اقاليم أخرى ، كما أن تحريم أنواع بعينها من الاطعمة في اقليم انما كان خاصا بعقيدة الاقليم نفسه ، وأما القول غاغلظ الظن أن يكون في رواية هيودوت شيء من المبالغة ، وقد يكون الصواب فيما رواه ديودو الصقلي من أن أكل الفول قد كان محرما على بعض المصريين ، وعلى أى حال ، فلقد وجدت حبوب الفول في قبور بعض المصريين ، مما يشير الى أن زراعته لم تكن محرمة ، كما يزعم هيودوت ، وربما كان تحريم أكله مقصورا على الكهان ، وأما السمك فقد اختلفت الآراء حول

وانظر عن الختان :

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 303.

A. P. Davies Ten Commandments, N. Y. 1956, P. 59-60.

تقدسيه في مصر الفرعونية ، وان كان مما لا شك فيه أن السمك النيلي كان وما يزال من عناصر الغذاء طريا ومجففا ومملوحا ، وقد أشار الى ذلك هيرودوت نفسه ، وبخاصة في أقاليم الدلتا والفيوم حيث كان في الفيوم كذلك مصدرا من مصادر دخل الخزانة الملكية ، هذا وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنصبة العمال من الغذاء الى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك ، ومع ذلك فقد اعتبر القوم أن صيد السمك من الحرف الوضيعة ، الا أن تكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار ، كما أن القوم قد قدسوا السمك ، وبخاصة على أيام الرعامسة ، في كثير من المدن كاسنا وأبيدوس والبهنسا (٢) .

وأيا ما كان الامر ، فان حياة الكهنوت انما كانت تحرم الاتصال الجنسي أيام الاعتكاف في المعبد ، كما كان عليهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، بينما كان لغيرهم أن يتزوج من أكثر من واحدة ، ومع ذلك فلم يكن هذا المقيد عاما ، وكان عليهم جميعا أن يتطهروا عندما يعبرون السور المقدس ، وطبقا لرواية هيرودوت «فقد كان المصريون أول من راعى السنة التي تحرم مجامعة النساء في المعابد ، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال ، وسائر الشعوب ، فيما عدا المصريون واليونان ، يجامعون النساء في المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، اذ يعتقدون أن شأن الانسان في ذلك شأن سائر الحيوان ، وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الالهة وحرمها ، فاذا كان ذلك العمل لا يرضى الاله فلما ذا اذن تفعله الحيوانات» ، وعلى أي حال ، فالنصوص المصرية لا تحتل تأويلا في ذلك ، فالداخل الى المعبد يجب أن يتطهر من كل اتصال جنسي بالمرأة ، بل يجب أن يمتنع عن الاتصال الجنسي قبل دخوله المعبد .

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٢ - ١٢٧ ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ٢٨٣ وكذا

Diodorus, I, 99, 4; G. Legrand, Herodot, II, P. 92; BIFAO, 28, P. 4. K. Sethe, Urk., I, P. 173, 202.

هذا ولم يكن الكهنة يرتدون غير ثياب من الكتان ، وكانوا يجرمون على أنفسهم بعض الاقمشة كالصوف الذى كانوا يأخذونه من كائنات حية تصيب لابسها بالقذر ، وتحط من قدسية الاماكن التى كانوا يؤدون فيها واجباتهم المقدسة ، وعلى أى حال ، فلقد كان أجود اللباس عند القوم انما يصنع من الكتان ، فهو لشدة بياضه سريع التأثير ، لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله الى تنظيفه ، كما كان زى الكهنوت لا يتغير ، ومن ثم كان الكهان على مر العصور بزيهم الثابت هذا ، والذي ارتدوه منذ العصور الاولى للحضارة المصرية •

ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التى تحدد وظيفة كل كاهن ، كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل ، فأما الكهنة المتخصصون، وكذا كبار الكهنة ، فقد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك ، فالكاهن «سم» كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كهنة عين شمس يحملون رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان كبير كهنة منف يحمل قلادة ذات شكل خاص ، ويزين رأسه بذؤابة مضمفورة تنحدر على السالفة ، وعلى أى حال ، فاذا استثنينا كبار الكهنة ، فقد كان بقية الكهان يتميزون عن جماهير الشعب بقدم زيهم ووقاره ، مما كان يضيف الى هيبتهم ومكانتهم شيئاً من الشهرة في مجتمع كل ما فيه جيد وجديد (٣) •

(٣) الانخراط في سلك الكهنة :

لم يكن الانخراط في سلك الكهانة يتطلب ثقافة دينية معينة ، وان كان على الكاهن أن يقضى فترة في التدريب على طقوس العبادة الصارمة ، ومن ثم فقد كانت ممارسة العمل والمران كفيلين بالوصول بالرجل العادى الى المستوى المطلوب ، ومع ذلك فانه ليبدو مستحيلا أن نصل الى قاعدة لكل الكهنوت المصرى في كل العصور فيما يتصل

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٦٦ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٦ •

بالشرائط التى يفترض توفرها للدخول فى نطاق الكهان ، وان كان هناك سبلا ثلاثة أتفق القوم عليها ، وهى حقوق الموراثة والترشيح وشراء الوظائف .

فأما حقوق الموراثة فيذهب هيودوت الى أن الكاهن انما كان يورث وظيفته لولده من بعده وبخاصة فى المعابد الاقليمية الكبرى، ومع ذلك فلم تكن هذه قاعدة عامة ، وان أصبحت تقليدا متبعا ، وقد عثر على وصايا ترجع الى أيام الدولة القديمة ، يطلب فيها الكاهن أن تؤول وظيفته الى وريث يحدده بنفسه ، وفى الدولة الحديثة كان الرجل يزعم أحقية فى وظيفة كهانة معبد بقوله انه كان ابنا لكاهن هذا المعبد ، وهناك من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من أنساب أصحابها ، يذكر بعضهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه ، ومن ثم فقد أصبح من الممكن القول بأنه كانت هناك أسرات كهنوتية ، ومع ذلك كله ، ورغم أن الوظيفة كانت تنتقل بالموراثة من الاب الى الابن ، ومع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان فضل الملك فى هذا الامر يجب أن يكون واضحا ، ذلك لانه بهذا الفضل يستطيع الابن أن يحل محل أبيه ، وهكذا عندما أراد الملك بسماتيك الاول أن يكافئ «بتيزيس» بسبب خدماته الجليلة منحه لقب كاهن فى كل اعابد التى كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، مع أن بتيزيس لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس الكهانة .

وأما الترشيح فكان يتم حين تنتشر الموراثة أو تنفى ، وحين يكون هناك مكان شاغر، وهنا يعقد كهان المعبد اجتماعا يتفقون فيه على اختيار من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة ، وربما كانت هذه الطريقة أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف الشاغرة بمن يشغلها ، ومن المرجح أن كل كاهن جديد ، ولو كان من أسر العاملين فى المعبد ، أن يوافق المجلس الكهنوتى على تعيينه ، وفى العصور المتأخرة ما يشير الى شراء الوظائف الدينية ربما بسبب كثرة الموارد التى كانت تفيض على الكهان .

وأما عن التعيين ، فمن المعروف أن الملك هو الذى يعين سائر الكهان ، غير أن عمل الملك فى واقع الامر انما كان مقصورا على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهنة فى العبادات الكبرى ، وأما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا ، فقد كان يترك للوزير فى غالب الامر ، هذا فضلا عن أن من سلطة الملك ترقية من يعجب بنشاطه وكفاءته من الكهان كما حدث بالنسبة الى الكاهن «نب وى» من أيام تحوتمس الثالث ، الذى رقى الى رتبة رئيس كهنة أوزير ، ثم أصبح بعد بضعة سنوات ، بسبب حظوته عند فرعون ، المتحدث الشخصى باسم الملك فى معبد أحمس الاول فى أبيدوس ، والظاهر أن تدخل الملك هنا انما كان الغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسن ، شاب فى خدمة مولاة الفرعون ، هذا فضلا عن أن «توت عنخ أمون» عندما أراد أن يعيد تنظيم الكهانة بعد ثورة اخناتون الدينية ، فقد اختار أعضاءها الجدد من بين طبقة النبلاء التى لم تزل ، فيما يرى ، النخبة الممتازة فى البلاد ، وهكذا «جمع كهنة من أبناء أعيان مدينتهم ، وكل منهم ابن رجل مبرز معروف الاسم» .

هذا فضلا أنه كان من حق الملك أن ينقل أى كاهن من معبد الى آخر ، ومن ذلك ما حدث على أيام رعمسيس الثانى عندما عين كبير كهنة أمون فى طيبة من بين رجال معبد أبيدوس ، على غير رضى من كهان أمون فى الكرنك ، وقد كان هذا التعيين مما رواه بفخر الكاهن المعين «نب أو ننف» فى مقبرته بطيبة ، وقد جاء فى قرار التعيين «ها أنت من الآن كبير كهان أمون ، وسائر كنوزه وخزائن غلاله تحت يمينك ، أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك ، فأما معبد حتحور فى دندرة ، فسيؤول الى سلطان ابنك ، فضلا عن وظائف آبائك ، والمركز الذى كنت تشغله أنت» ، وأخيرا فان هذا التعيين انما يدل على أن الفرعون هو صاحب الكلمة الاخيرة فى تعيين الكاهن الاكبر لأمون ، وقد برره الفرعون بمهارة حتى اعتبر اختياره هذا من لدن الالهة ، ومع ذلك فان الملك لم يكن يتدخل فى تعيين كبار الكهنة الا عندما يريد أن يكافئ أحد الكهنة ، وربما أحد موظفيه ، والا عندما يود ، مدفوعا بأغراض سياسية.

داخلية ، أن يغير موازين القوى ، وخاصة بالنسبة الى كهان أمون الاقوياء ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت هناك قواعد تلتزم ولا يمكن تجاوزها^(٤) .

(٤) طبقات الكهنة :

كان على رأس الكهنوت في كل معبد مصرى ما يسمى بالكاهن الاول أو الكاهن الاكبر ، وكان له شخصية بارزة في المجتمع ، وان ارتبطت سلطته الى حد كبير بالاله الذى يقوم على خدمته ، وكان له أحيانا لقب خاص يشير الى وظيفته الفعلية في خدمة الاله الذى كان ينتمى اليه ، وهو لقب لاشك في أنه يرجع الى أصل بالغ القدم ، فضلا عن أنه انما يشير الى عبادة الاله نفسه ، ومن هنا فقد كان الكاهن الاكبر لاله الشمس في عين شمس يسمى «أعظم الرائيين» ، وقد كان من قبل يسمى «من يستطيع رؤية العظيم (الاله)» وهو اللقب الذى حور بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى «أعظم الرائيين يستجلون طلعة الاله رع» ، كما كانت تطلق عليه القاب اضافة أخرى ، مثل «الذى يرى سر السماء» و «رئيس أسرار السماء» ، كما لو كان كبيرا للفلكيين .

وكان كبير كهنة بتاح في منف يحمل لقب «رئيس الصنّاع» أو «الزعيم الاول للفنانين» ، كما لو كان المعبد مصنعا للاله ، وربما لان الاله بتاح انما كان حامى الصناعات جميعها ، وأن الفنون انما كانت تحت حماية الاله بتاح وربما كان كبير كهنة بتاح يشغل في الواقع وظيفة «الرئيس الاعلى للفنانين» في مدلولها المعنوى ، فقد كان في الدولة القديمة يعتبر رئيسا فعليا لكل أعمال النحاتين والاعمال الاخرى المماثلة،

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٧ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٧ - ٥٢ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثالث ص ٣٣٩ - ٣٤٠ وكذا

C. D. Noblecount, Op. Cit., P. 182-183.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 257-258.

W. F. Edgerton, JJNES, 6, P. 156.

ويظهر أنه في الأصل كانت هنالك شخصيتان توزع عليهما أعمال هذه الوظيفة التي كان نصفها دينيا ، ونصفها الآخر دنيويا •

وفي أخريات أيام الدولة القديمة نقل أحد الملوك كل شيء إلى الهى وكل ما كان يقوم به الكاهنان إلى رجل يدعى «تيتى - سابو» كانت له فيه ثقة كبيرة ، هذا وقد كان الكاهن الأكبر للاله تحوت يسمى «عظيم الخمسة لبیت تحوت» وكان كاهن أمن الأول يحمل لقب «الكاهن الأول للاله» أو بعبارة أصح «الخادم الأول للاله» ، كما كان يحمل نفس هذا اللقب أى «الكاهن الأول» لكل من الآلهة «مين» و «أنحور» و «حتصور»^(٥) •

وكان من الممكن أن يصل الكاهن الأول إلى وظيفته عن طريق الترقى في مختلف الوظائف الكهنوتية، وإن كان من المعتاد في الكهانات الكبرى أن يتم ذلك وفقا للظروف السياسية أو الرضى الملكى ، كما كان من الممكن أن يختار كبير الكهنة من خدام بيت أمن أو من بين رجال البلاط أو كبار قواد الجيش ، كما كان من حق الملك أن يختار كبير الكهنة من غير هؤلاء وأولئك ، كما في حالة «نب أو ننف» وفي هذه الحالة كان التعيين يؤيد بنبوءة المهية ، ثم يتلقى الكاهن الأكبر الجديد من الملك هدية عبارة عن حلقتين من الذهب ، وعصا رمزية ، وكان رؤساء المعابد الكبرى في مصر يختارون عادة من أرقى الطبقات ، فقد كانوا في الدولة القديمة من أبناء الملك عادة ، وأما في المقاطعات التي كانت تحت نفوذ أمرائها المحليين، فقد كان هؤلاء الأمراء في نفس الوقت هم رؤساء خدام الآلهة والكهنة الكبار • وكان الكاهن الأول يمثل الملك في المعبد الذي كان موكلًا به ، وكان هو الذى يقوم في غياب الملك - الذى كان وحده موكلًا بإقامة الاحتفالات والشعائر اليومية وأيام الأعياد والمواكب الإلهية العظيمة - بالشعائر

(٥) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٦٩ ، محمد

بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٩ - ٤٧٠ •

M. A. Murray, Index of Names and Titles of the old Kingdom, London 1908, P. 19.

الدينية ، وكان الكاهن الاكبر له وظائف ادارية ، بجانب رياسته الدينية ، فكان يشرف على الامور الدنيوية الخاصة بالاله ، وكانت غالباً كثيرة جداً ، مما أدى الى تدخله في الامور السياسية ، كما يبدو ذلك واضحاً في كبير كهان أمون في الكرنك ، وعلى أى حال ، فلم تكن هناك مميزات ظاهرة يمتاز بها الكاهن الاكبر عن الكهنة الاخرين ، فقد كان رأسه حليقاً ، ويرتدى جلد الفهد عندما كان يقوم بأداء الشعائر الدينية ، وكانت ملابسه كملايس عظام القوم في عصره ، ففى الدولة الحديثة كان يرتدى أحياناً قميصاً فضفاضاً يصل الى ما تحت ركبتيه ، وأحياناً كان يلبس قميصاً فخماً المظهر بسترة مكشكشة وكمين مفتوحين ، وأحياناً كان يحمل شارة خاصة بوظيفته ، وخاصة كبير كهان بتاح في منف •

وكان هناك في كهانة أمون الكاهن الثانى ، وكان صاحب مركز مرموق في الدولة ، ويحل محل الكاهن الاول الذى كانت مهامه الدينية والسياسية تضطره في أحيان كثيرة الى الغياب عن معبد الكرنك ، ولكنه كان كثيراً ما يختص بشئون عمال الحقول وإدارة الشئون الخارجية للاله ، مما استدعى أن يكون تحت امرته إدارة كاملة وأعداد كبيرة من الموظفين والكتاب والخدم لإدارة دولة أمون ، التى كانت أشبه بدولة داخل الدولة ، كما كان يعاون هذا الكاهن الثانى كاهن ثالث في احياء الطقوس وتصريف الامور في اقطاع الاله الكبير ، فضلاً عن كاهن رابع ، كما كان يعاون الكاهنين الثالث والرابع خدم الاله ، والذين كانوا يقسمون الى أربع جماعات تتناوب الخدمة ، وقد سماهم الاغريق في غير دقة بالنبتين لانهم كانوا يترجمون ما ينطق به وحي الاله •

وفي الواقع لم يكن الاله المصرى قوة معنوية تعبد في أى مكان ، وانما كان مولى قويا شديد البأس ، يحل جسدياً في قدس الاقداس ، ومن ثم فقد كانت رعايته مادية ، اذ يتطلب الغذاء والكساء والزينة ، ومن هنا كان العاملون في خدمته من رجال الكهنوت أشبه بمن يحيطون بعظيم في قصره ، ويتسمون مثلهم خدماً ، وفي كثير من الاحيان نجد المعابد المتوسطة في يد عدد محدود من خدام المعبود ، ولكن حين يكون

المعبود من الاهمية بمكان ، ويتضخم عدد العاملين في خدمته ، تتعدد طبقاتهم ، كما في هيئة كهانة آمون حيث تدرجت طبقات خدم المعبود أكثر من غيرهم في المعابد الاخرى ، واحتوت على أربع طبقات من العاملين ذوى السلطان ، فضلا عن الخدم الذين لم تنظمهم سجل الدرجات العليا .

وهناك الكهنة المرتلون (خريوحب) وهم الذين يفسرون الكتب المقدسة ويتلون الصيغ الدينية أثناء الحفلات الدينية ، كما كان يسند اليهم منح الاسم للطفل الملكى ، وكان لهم رئيس يسمى «حرى ثب» ، ويلى ذلك طبقة أدنى من الكهان يدعون «الكهنة المطهرون» (وعبو) ، وربما كان اسمهم مأخوذا من الكلمة التى تعنى طاهر أو نقى ، وكانوا يتولون أعمال المساعدة من ذبح العتائر والاعمال اليدوية مثل تنظيف المعبد ، فضلا عن تزيين تمثال الاله ، وقد اعتبروا فيما يعد فى أسفل السلم الكهنوتى ، أو بعبارة أخرى أصبح اسمهم يعنى «كاهن» فحسب ، كما كان هناك الى جانب الطبقة الدنيا من رجال الكهنوت مساعدون تزخر بهم رحبات المعابد المصرية .

وهناك جماعة من الدارسين والمتقنين فى «بيت الحياة»^(٦) ، وكانوا يقومون بالعمل فى غرف قرب المعبد ، ويعنون بالكتب الدينية اللازمة للعبادة وغيرها من ألوان المعرفة ، ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه المدارس التى سميت «بيت الحياة» أو «بيوت الحياة» انما كانت موجودة بصفة مؤكدة فى منف وأبيدوس والعمارنة وأخميم وقفت وطيبة وعين شمس وساو واسنا وادفو وغيرها ، ذلك لانه من المفروض أن يكون لكل معبد ذى مكانة ملحوظة «بيت حياة» خاص به ، ولقد كانت

(٦) أنظر عن «بيوت الحياة» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الجزء الاول - العلوم والاداب ص ٣٤٤ - ٣٤٧ ، وكذا A. H. Gradiner, Onom, I, P. 35, JEA, 24, P. 167-177. B. Gunn, JEA, 4, P. 252. J. Pendbury, JEA, 10, P. 134, P. 160 F.

بيوت الحياة في الواقع مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية، أو «موسيون» الاسكندرية في عهد البطالمة ، حيث كان يلتقى العلماء والفلاسفة والاطباء وطلبة العلم في بيوت الحياة هذه ليتبادلوا الاراء فيها ، على أساس أنها معاهد علمية تلحق بالمعابد ، ويشغل المتخرج فيها مركزا مرموقا ، فهو «كاتب دار الحياة ، ما من أمر يسأل عنه الا ويجد له جوابا مناسباً» ، ومن ثم فان المتخرجين فيها لم يكونوا كهنة بالمعنى المعروف ، فهم ألصق بالعلم منهم بالدين ، وألقابهم تشير الى تمسكهم بالالقب الخاصة بالكتاب أكثر من التصاقهم بألقاب الكهنة .

على أن هناك من يذهب الى أن بيوت الحياة لا تعدو أن تكون بناء مزدوجا من مدرسة ودار للنسخ حيث كانت النصوص القديمة تجمع وتنسخ وتدرس، حيث كانت تعد المؤلفات اللازمة لاداء الطقوس الدينية وتناقش المسائل الفلسفية والدينية، وحيث كان الى جانب الكتبة الفنانون والرسامون الذين ينقشون جدران المعابد والمقابر بالنصوص والناظر ، وبدهى أن أبرز ألوان النشاط في بيت الحياة هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ بسبب ما لحق القراطيس من تلف ، هذا وقد أطلق اليونان على موظفى بيت الحياة اسم «هيوجراماتس» .

وقد كان بعضهم من الكتبة الممتازين ، وكان البساقون من ذوى الثقافة الرفيعة موظفين ممثلين للحكمة في رحاب المعبد ، وكان فرعون يختار أحيانا من بينهم ممثليه الدينيين حين يتطلب ايفاء بعثات رسمية في المعابد المصرية ، وقد ذاع صيت هذه الجامعات العلمية وانتقلت سمعة أصحابها عبر البحر ، كما تشير الى ذلك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية التى تحدثت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية ، فقد كانوا قادرين على اشفاء المرضى ومعرفة النباتات الطبية والجغرافيا والعلامات المميزة للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء والتنبؤ بالمستقبل والعمل على نزول المطر ، وأما زملاؤهم الكهنة القراءون من نساخ الكتاب المقدس ، والذين سماهم الاغريق

Peterophores بسبب الريشتين الكبيرتين اللتين كانتا تزدان بهما شعورهم فقد شاركوهم هذه الشهرة العالمية ، فضلا عن الشهرة الشعبية في مصر .

وهناك كذلك جماعة الكهنة حفظة الوقت ، وجماعة الفلكيين الذين يحددون أيام الاعياد وأيام المآسى ، وما يشير اليه اليوم من نحوس أو سعود ، وهناك أيضا جماعة المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات الذين كان لهم دور هام في الحياة الدينية في المعبد ، وكان الاله يصحو في الصباح على نغماتهم وترتيلهم ، وهناك بعض النصوص في دندرة والدامود وغيرهما منظومة على وثيرة ايقاعية ، مع بعض المقاطع التي ترددها مجموعة من رجال التخت ، كما كانت تتضمن لازمة متكررة ، هذا وقد أخذ دور هؤلاء المغنين في ازدياد بمرور الزمن ، حتى رأينا «كليمان السكندري» يشير الى أهميتهم ويضعهم في مصاف الكهنة الممتازين ، وان كان ذلك موضع شك على الاقل بالنسبة لمراكزهم الاقتصادية والاجتماعية في العصور القديمة .

وهناك الاداريون الذين كانوا يشرفون على ممتلكات المعبد ومخصصاته ، وكان يرأسهم جميعا حاكم الاقليم الذي كان يلقب بالمشرف على الكهنة ، وان كان ييبدو أنه كان اشرافا اسميا ، اذ أن الكثيرين منهم كانوا يشرفون على عدد كبير من معابد الاقليم ، فقد كان لمعبد أمون في طيبة مثلا ، جهازه الادارى الذى كان يعتبر بمثابة وزارة قائمة بذاتها ، ولم يكن فيها للموظفين الدينيين أى شأن ، فكان هناك من يديرون الاراضى من كتبة الضيعة وكتبة الحسابات ورؤساء الجنود ورؤساء الرديف ، كما كان هناك رئيس الخدم في بلاط المعبود ، وكبير خدامه والمشرف على موظفيه ورئيس الشرطة ، وكان يوكل بنتاج المعبد وغلاته الى «رئيس قطعان الماشية من ذوات القرون والاطلافو الريش» أما الحقول فكانت تحت اشراف مدير الحقول والاراضى الصالحة للحرث ، وكانت المحاصيل تحت اشراف «رئيس مخزن الغلال المزدوج» ، وأما الخزينة فكانت تحت اشراف «مدير الخزانة ورئيس كل شئ يقع تحت يمين الاله آمون» .

وكان تحت كل واحد من كبار الاداريين هؤلاء ، جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الادارى العام لبلاط الاله آمون ، ومع ذلك فقد كان من الممكن عمليا أن يصبح أعضاء الجهاز الادارى الدنيوى على اختلاف درجاتهم من رجال الدين ، وفي أغلب الاحايين كانت الهيئة الادارية لمعبد معين ، بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورؤس خزانة الاله وكاتب داره ومدير خزائن غلاله ، تحت رئاسة حاكم الاقليم ، كما أشرنا آنفا حيث كان يضطلع بجانب وظائفه الادارية ، ببعض المهام الدينية ، كما كان الامر بالنسبة الى «(حعبى زفاى)» أمير أسيوط في عهد سنوسرت الاول ، الذى كان يعتبر نفسه يعتبر نفسه عضوا في الجهاز الدينى ، وأن عمله في المعبد لم يكن يقل كثيرا عن أولئك الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه .

وهناك الى جانب الاعداد الهائلة من المساعدين من غير الكهنة من حراس المباني المقدسة وعمال الصناعة والقصابين والخبازين وزراع الزهور وغيرهم ، فضلا عن الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسامين والنحاتين ، كانت هناك مجموعة من الاشخاص ضخمة وغريبة في آن واحد ، منهم «(النسك)» (الخلوتية) وهم فريق من المدنيين الراغبين في البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانزعال أو الاختلاء ، وان كان من حقهم الخروج من المعبد متى يشاءون ، ومنهم «(النذيريون)»^(٧) الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاله والانقطاع للعبادة ، وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع من الحماية لقاء تنازلهم للكهانة عن بعض ممتلكاتهم ، وكان في استقطاعتهم أن يمارسوا احدى الوظائف الملحقه بخدمة الاله ، ومنهم «(المستجيرون)» والذين يجدون في قربهم من مذبح الاله راحة لانفسهم وملأذا يهرعون اليه هربا من متاعب الحياة التى يجدونها على أيدى الشرطة ومحصلى الضرائب والتجنيد وغير ذلك من مشكلات الحياة ، وهناك الاشرار الذين يكتفون بالامن

(٧) قارن : النذيريون عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهران : اسرائيل - الحضارة - الكتاب الرابع - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٠ - ١٥١)

المادى الذى يكفله لهم المعبد ، لقاء قيامهم ببعض الاعمال البسيطة من أجل لقمة العيش التى ينالونها •

وهناك الذين جاءوا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم عن طريق الاحلال ، وهناك أهل الكشف وهواة العذاب الذين عرفتهم معابد العصور المتأخرة ، وتصورهم نصوص المنجمين بأن «اهمالهم للعناية بأجسادهم كان رهانا لكمالهم الروحى ، فقد كانوا يلبسون ثيابا رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل الحصن ، وكانوا أحيانا يكبلون أجسامهم الهزيلة بالسلاسل اشارة لسجنهم الاختيارى ، ولاشك أنهم كانوا يفرضون على أنفسهم الامتناع التام عن بعض الاشياء ، ويجبرون أنفسهم على النظام ، كما أن زهدهم فى الحياة يجعلهم فى نظر العامة من الناس يستحقون أن يتجلى عليهم الاله ، وكانوا يقومون أحيانا بشرح الاساطير الالهية للزوار والسائحين والحجاج قائمين بذلك بوظيفة الترجمة ، كما كانوا كثيرا ما يزعمون التنبؤ بالغيب ، وتنتابهم الرعدة عند التنبؤ فيجنون بعض المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعترهم»^(٨) •

(٥) المرأة والكهانة :

لم تكن المرأة بعيدة عن الخدمة الدينية ، فقد كانت بعض النساء يتفرغن لخدمة المعبد ، كما يفعل الرجال ، ومن ثم فقد رأينا فى الدولة القديمة بعض النسوة اللاتى يتباهين بأنهن كاهنات للالهة نيت وحتحور وربما يقمن بطقوس العبادة كالرجال ، وربما كن من سيدات المجتمع أو

(٨) سبج سونيرون : المرجع السابق ص ٦٤ - ٨٢ ، ١٤٨ - ١٤٩ ،
نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٢ ، ٤٥٠ - ٤٥١ ،
ياروميلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ١٦٦ - ١٦٨ •

مجرد بنات كهنة ورثن وظائف آبائهن ، وأما ظهور المرأة كمغنية أو موسيقية فأمر أكثر شيوعا ، وتحفل النقوش بمناسظر للنساء يمكن بالصلاصلا أو يعزفن على الجناك أمام المعبود لارضائه •

هذا وقد ظهر منذ الدولة الحديثة لقب كهنوتى جديد حملته الملكات أو الاميرات اللاتى سيصبحن ملكات ، وهو لقب «زوجة الاله» أى زوجة الاله آمون ، ومن ثم فقد أصبحن ينلن ، بجانب حقوق الوراثة ، مركزا دينيا ممتازا ، يتصل بآمون رع ، وكما أشرنا من قبل ، أن هذه الوظيفة انما نشأت فى السنوات الاولى من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «إيعح حوتب» و «أحمس نفرتارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا فى عصور متأخرة ان اللاتى كن يشغلنه أميرات، وليسن ملكات ، كما أصبح له فيما بعد أهمية سياسية كبرى ، ذلك أنه منذ الاسرة الحادية والعشرين أصبح لقب زوجة الاله ، وعابدة الاله ، من نصيب ابنة الملك ، التى أصبحت الزوجة الملكية للاله آمون ، كما أصبح محرما عليها أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا •

وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخما ، وتساوى الملك أباهما ، فقد كانت تمتلك الضياع الضخمة وتشرف على موظفين يخدمونها، وتتخذ مجموعة من الألقاب ، وتحيط اسمها بخرطوش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحفظ بأعياد اليوبيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، وتقدم القرابين للالهة ، وكانت هذه الحقوق الضخمة لزوجة الاله سببا فى دفع فراعين الاسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبني زوجة الاله لابنة الملك حتى تخلفها فى وظيفتها، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «بعنخى» و «بسماتيك» الاول والثانى ، وقد

نالت ابنة الاخير لقب «الكاهن الاول لآمون» ، وهى وظيفة لم تحصل
عليها أية «زوجة اله» من قبل^(٩) .

(٩) محمد بيومى مهران : مصر : الجزء الثالث ص ١٣١ ، ٦٠٣ ،
٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤ .

R. A. Camminos, JEA, 50, P. 71-101.

وكذا

J. Lechant, JNE, 1954, P. 169.

وكذا

E. R. Russmann, an Index to Egyptian Sculpture of The Late Period,
1971, P. 5.

T. H. Jarmes, CAH, II, Part, I, 1973, P. 307-308; A. H. Gardiner, Op.
Cit., 206, 343, 344-355; ASAE, V. 1905 P. 84, F. M. A. Murray, Op.
Cit., P. 28-29; A. Mariette, Les Mastabas de L'ancienne Empire Paris,
1889, P. 90, 162, 183.